الهيئة المصرية العامة للكتاب

# القاهرة مدينة الفن والتجارة

للمستشرق الفرنسى الكبير :
جاستون فييت

ترجمة الدكتور:
مصطفى العبادى



يعد كتاب القاهرة مدينة الفن والتجارة من أهم
الدراسات عن تطور العواصم الإسلامية لمصر،
وبصفة خاصة مدينة القاهرة. والمؤلف يبدأ
بالدراسة منذ الفتح العربى الذى أدى إلى اختلاط
واسع الانتشار بين الشعوب فى قارتين، وانتهى
باكتشاف الطريق حول رأس الرجاء الصالح، فهو
حدث لم يسبق له مثيل فى تاريخ التجارة العالمية،
أدى بطريقة حاسمة إلى إضعاف دور مصر الدولى
الحيوى.

ويقدم المؤلف فى هذا الكتاب عرضا دقيقا للعادات
والتقاليد عن الشعوب والعواصم الإسلامية الأولى.
حيث كانت القاهرة بمثابة عاصمة عالمية، مع بقائها
مركزاً إسلامياً، كما أصبحت محط أنظار الأوروبيين
بسبب الرخاء التجارى الذى نعمت به.

ISBN# 978977910295






الهيئة المصرية العامة للكتاب

# القاهرة
# مدينة الفن والتجارة


للمستشرق الفرنسى الكبير

**جاستون فييت**

ترجمة الدكتور

**مصطفى العبادى**



الهيئة المصرية العامة للكتاب





الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠١٥



سلسلة القاهرة

فييت، جاستون.
القاهرة مدينة الفن والتجارة/ جاستون فييت؛
ترجمة: مصطفى العبادى. ـ القاهرة : الهيئة
المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٥.
١٩٢ص؛ ٢٤ سم.
تدمك ٥ ٠٢٩٥ ٩١ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ القاهرة ـ وصف ورحلات.
أ ـ العبادى، مصطفى. (مترجم)
ب ـ العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠٩٥٢/ ٢٠١٥
I. S. B. N 978 - 977 - 91 - 0295 - 5
ديوى ٩١٦,٢١٦

# المقدمة

« بغبطة ادخل هذه المدينة الفريدة »
اوجين فرومنتان

إن هدفى هو دراسة تطور العواصم الاسلامية لمصر ، وبصفة خاصة مدينة القاهرة . وسوف ابدا بالفتح العربى الذى أدى إلى اختلاط واسع الانتشار بين الشعوب فى قارتين ، وانتهى بلكتشاف الطريق حول راس الرجاء الصالح ، فهو حدث لم يسبق له مثيل فى تاريخ التجارة العالمية ، ادى بطريقة حاسمة إلى اضعاف دور مصر الدولى الحيوى .

لقد كتب هذا الكتاب لجمهور ذى ميول مختلفة ، وان التصدى لوضع مؤلف عن القاهرة ، مهما كانت الظروف ، لهو عمل لا يخلو من مخاطرة ، إذ لعلها المدينة الاسلامية التى حيرت المؤرخين اكثر من غيرها . فهناك كتب كثيرة فى جميع اللغات تتناول تاريخ المدينة وآثارها وسكانها . ولهذا ، فان من المشكوك فيه ان هذا الكتاب ، الذى ياتى بعد كثير غيره ، يمكن أن يوصف بالأصالة . ولعل اصالة هذا العمل تقع فى التعبير بكلمات جديدة عن الاعجاب بحضارة لا ادعى لنفسى فضل اكتشاف خصائصها . فسوف افيد من أعمال من سبقونى ، مضيفا إليها جهدى الشخصى ، وانه لمن المستحيل الا اكرر ما سبق ان قالوه . على أن الهدف الذى اسعى إليه أمر ليس من السهل تحقيقه . فهناك كلام كثير اليوم عن الدراسة الشاملة للشعوب ، وفى هذا المجال ، نجد القائمين بالدراسات الشرقيه متخلفين عن الركب ، حتى انهم يجدون صعوبة فى دراسة الأوصاف الظاهرة لشخصيات كبرى . وانى لآمل أن اقدم عرضا دقيقا للعادات والتقاليد ، وأن أجعل الماضى يعيش من جديد ، ولكن مازالت هناك وثائق مفقودة أو لم يتم نشرها ودراستها .

ليس للقاهرة من ذيوع الشهرة ما لمراكز الحضارة فى مصر القديمة ، والجنوح الى التعالى بالاضافة الى الاكتشافات الاثرية مثل مقبرة توت عنخ أمون لم تساعد على تغيير هذه النظرة . ومع ذلك ، فإن هذه المدينة تحتل مركزا مرموقا فى تاريخ الفن ، وذلك بفضل الاعمال العمرانية التى ازدهرت فى ربوعها ازدهارا باهرا . ولا يزال بالمدينة احياء تتميز بطابعها الذى

يسمح للخيال بان يعود بنا إلى العصور الوسطى ، فالأبنية تحرك ذكريات كثيرة من الماضى . فهى ترد إلى مخيلاتنا احداث السنين الخوالى . انها تقف بمثابة شهود تمنعنا من ان نقلل من شان تاريخ القاهرة ، فنرتكب بذلك اثم تزييفه . ففيها ، كما فى غيرها ، تردد الأحجار الحانا من المجد السالف . ونحن انفسنا يجب ان ننظر خلال المئات من الدروب الضيقة لنرى تلك الأماكن المقدسة المتواضعة التى تخيم عليها مسحة من الكآبة الحلوة . فعلى طول الطريق ، من الأسوار الشمالية للمدينة الفاطمية إلى حدود المدينة الجنوبية ، يصاحبنا نغم متناسق بخاتمة مهيبة ، حيث نسمع لحنا لنشيد رفيع فخم ، حين تواجه اسوار مسجد السلطان حسن اعيننا فى تحد قوى .

...........................................................................

وحين نصعد إلى قمة القلعة ، بعيدا عن الزحام وضوضاء الطريق ، ننظر تحتنا إلى « الاف من الابنية البيضاء المتداعية ، والآثار ، والجبانات ، وعدد لا يحصى من القباب والمآذن الدقيقة المزركشة » ، فتبدو وكأنها غابة من القلاع « تتجه إلى السماء » ، مرتفعة فى كل مكان فوق مجموعة من المكعبات .

...........................................................................

كانت القاهرة العظمى ، كما يسميها الرحالة من الأوروبيين ، عاصمة سياسية منذ بدء وجودها . ونظرا لكونها مركزا شيعيا ، فمن المرجح أن المدينة كانت مكروهة ، كما كانت هناك محاولة لمنع انتشار نفوذها بنوع من السياج الوقائى . وكان للمدينة فوق ذلك منافسون فى ذلك الوقت ، ولو أن هذه المنافسة اقتصرت ، من ناحية ، على بغداد ، العاصمة القديمة للدولة الاسلامية والتى حلت محل دمشق ، ومن ناحية اخرى ، على مدينة قرطبة التى كانت عاصمة لحضارة فريدة ، وتحت حكم السلاطين المملوكيين ، اصبحت القاهرة بمثابة عاصمة عالمية ، مع بقائها مركزا اسلاميا ، كما اصبحت وجهة انظار الأوروبيين بسبب الرخاء التجارى الذى نعمت به .

جاستون فييت

نويى ـ سير ـ سان

١٣ تموز ( يولية ) ١٩٦٤



# ١

# العواصم الإسلامية الأولى



إن دراسة القاهرة فى الفترة السابقة لقيامها التاريخى تعين علينا تناول مشكلة موقع العواصم الاسلامية لمصر . وقد كانت هذه العواصم فى أول الأمر مدنا اقليمية هامة قبل أن تصبح عواصم بالمعنى الصحيح .

كانت هناك عند الفتح العربى ، قبل كل شىء ، مدينة الاسكندرية ، ولكنها لم تناسب العرب الذين كان عليهم أن يبقوا على اتصال بالمدينة اولا ، ثم بدمشق ثانيا ، وبعد ذلك اصبحت بغداد مصدر السلطة فى الدولة العربية .

نمت المدينة الأولى ، الفسطاط ، التى كانت مركزا اداريا وعسكريا ، حول حصن بابلى بيزنطى . وحسب قصة طريفة ، قبلت على انها حقيقة تاريخية فى الشرق وفى الغرب على حد سواء ، فان المدينة نمت تدريجيا حول فسطاط ( خيمة ) القائد ، الذى عششت عليه وافرخت يمامة برية[1] . ولقد اخذت هذه القصة ماخذ الصدق إلى أن اكتشفت بردية مكتوب عليها باللغتين اليونانية والعربية اظهرت العلاقة بين الكلمة العربية « الفسطاط » والكلمة اليونانية phossaton ، ومعناها : المعسكر الذى يحيط به خندق[2] . ولم يختلط المسلمون ، باعتبارهم القوة المحاربة ، مع السكان الأصليين . ولأغراض الأمن ، ظل المسلمون فى مكان واحد ، وقسموا إلى جماعات حسب قبائلهم ، وذلك ليكونوا مجموعة متماسكة فى الفسطاط وضواحيها على الأقل . وسرعان ما اتخذت الفسطاط مظهر المدينة ، بجامعها الكبير الذى لزم توسيعه فى الحال ، وباسواقها التى احاطت بالجامع .

---

( ١ ) انظر النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ١ : ٦٤ ( ط القاهرة ، ١٩٦٣ ) ؛ وفى الخطط للمقريزى ١ : ٢٩٦ ( ط بولاق ، ١٢٧٠ ) : « امر بنزع فسطاطه ، فإذا فيه يمام قد فرخ » .

( ٢ ) انظر مصر فى فجر الاسلام للدكتورة سيدة إسماعيل كاشف : ٢٤٤ ( القاهرة ، ١٩٤٧ ) ؛ والكلمة باللاتينية اصلا هى :fossatum

ولقد أجمل أحد المؤرخين العرب في براعة وصف نمو القاهرة فيما بعد ، مثل قيام العواصم ناحية الشمال . على النحو التالى :

وقدم عمرو بن العاص رضى الله عنه بجيوش المسلمين إلى مصر وفتح الحصن واختط مدينة فسطاط مصر ، فصارت دار الامارة من حينئذ بالفسطاط ، إلى أن زالت دولة بني أمية وقدمت عساكر بنى العباس إلى مصر . وبنوا في ظاهر الفسطاط العسكر . فصار الأمراء من حينئذ تارة ينزلون في العسكر وتارة في الفسطاط . إلى أن بنى أحمد بن طولون القصر والميدان وانشأ القطائع بجانب العسكر ، فصارت القطائع منازل الطولونية إلى أن زالت دولتهم . فسكن الأمراء بعد زوال دولة بنى طولون بالعسكر إلى أن قدم جوهر القائد من بلاد المغرب بعساكر المعز لدين الله ، وبنى القاهرة المعزية . فصارت القاهرة من حينئذ دار الخلافة ، ومقر الأمانة ، ومنزل الملك ، إلى أن انقضت الدولة الفاطمية على يد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب . فلما استبد بعدهم بامر سلطنة مصر ، بنى قلعة الجبل هذه ومات ، فسكنها من بعده الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب . واقتدى به من ملك مصر من بعده من أولاده . إلى أن انقرضوا على يد مماليكهم البحرية ، وملكوا مصر من بعدهم . فاستقروا بقلعة الجبل الى يومنا هذا[1] .

لقد اقميت هذه المدن المختلفة لاغراض عسكرية . ونظرا لأنه لم يكن هناك خطر من جانب عدو خارجي ، فانه من الأصح أن نقول أن هذه المدن بنيت بغرض حماية رئيس الدولة ضد الثورات . وليست هذه الحالة فريدة في العالم الاسلامى .

من الناحية السياسية والفنية ، يبدأ التاريخ الحقيقى لمصر الاسلامية المستقلة بابن طولون . فحين وجد هذا الأمير أن العسكر غير أمنة . رغب في أن تكون له عاصمة وقصر ومسجد لتخلد ذكراه . ومع أن الأسرة الطولونية لم تعمر طويلا . إلا أنه يحق لنا أن نتحدث عن الدولة الطولونية والفن الطولونى .

وقد اتخذ ابن طولون مدينة سامرا . وهى المدينة الرافدية التى نشأ

---

( ١ ) الخطط : ٢ ٠ ٢٠١

فيها ، مثالا له ، فخطط في داخل محيط دائري رسما للقطائع التي ستمنح للضباط والموظفين والافراد ، كما رسم مخططا للمسجد الجامع والأسواق التي ستحيط به . وكانت صفوف الأسواق ممتدة وتنقسم حسب التخصص التجاري ، وقد استخدمت هذه الطريقة ذاتها في تقسيم جماعات السكان المختلفة . وهكذا بنيت المدينة الجديدة للجيش والادارة والتجارة التي لا غنى عنها للحياة اليومية في الدولة . وقد خصصت مساحة كبيرة إلى الشرق من المدينة ، بالقرب من سفوح جبل المقطم ، لركوب الخيل والسباق . وكانت التدريبات والعروض العسكرية تقام هناك ايضا .

وكان عرض الجيش الطولوني على هذه الساحة مشهورا في جميع ارجاء العالم الاسلامي في ذلك العصر ، ويقارن الكتاب بينه وبين الجمعة ببغداد ، التي كانت تقام بحضور الخليفة . وقد اتخذ خمارويه ، ابن أحمد ابن طولون ، في حرسه الخاص ، أفرادا أشداء أقوياء ، لوحظ في اختيارهم الطول والضخامة . كما كانت لديه قوة من الزنوج ، يمرون في العرض ، تلف رؤوسهم عمامات سوداء وتغطي صدورهم دروع حديدية تلبس فوقها قمصان سوداء ، فكانوا اشبه بمحيط اسود متدافع ، بتاثير لون بشرتهم وملابسهم .

وبدأ ظهور البذخ في مصر في أيام هذا الأمير الاخير . فانه زين القصر ووسعه ، وأضاف إليه حديقة صناعية باشجار مفضضة ومذهبة ، على طريقة أهل العراق التي أعجب بها رسل بيزنطة ايما اعجاب . كما ضمت هذه الحديقة أيضا نباتات زكية الرائحة ، واشجارا من اندر الأنواع . وكانت هناك حديقة للحيوان تربى فيها الخيول المنتقاة ، والجمال ، والنمور ، والفهود ، والأفيال ، والزرافات ، وكان خمارويه قد استانس سبعا لم يبرح جانبه قط ، وأحاط نفسه بعدد ضخم من الحسناوات الصغيرات ، اللائي قضى معهن فيما يبدو اكثر أيام حياته .

وعمل في داره مجلسا برواقه سماه بيت الذهب وجعل فيه على مقدار قامة ونصف صورا في حيطانه بارزة من خشب معمول على صورته وصورة حظاياه والمغنيات اللاتي تغنينه .. وجعل على رؤوسهن الاكاليل من الذهب الخالص الابريز الرزين والكودان المرصعة بأصناف الجواهر وفي اذانها الأجراس الثقال الوزن المحكمة الصنعة[1] .



(١) الخطط ١ : ٣١٦

بيد ان كل شيء قد اختفى ، بعد ان قضت عليه احقاد الخلافة العباسية بالدمار ، ولكن تلك الاحقاد لم تجرؤ على ان تهاجم المسجد الجديد . وهذا البناء الذى هو من تصور ابن طولون « يمثل لنا روحا تتميز بالخشونة والطموح والاباء » . هنا يشعر الإنسان بعمق العاطفة الدينية ، كما يتاثر بالبساطة الرائعة في التصميم ، تلك البساطة التي لم تمنع المهندس من أن يباين بين الضوء الباهر في الصحن والظل في الأروقة ، وأن يزيد من حدة التباين بتضخيم الأعمدة . وفي داخل المسجد ، في وسط ساحة يبعث طهرها على التفكير العميق ، يجد الانسان نفسه وقد انغمس في جو من التامل الديني الذى يوحي به اتساق الخطوط . والعمق الغامض للأروقة ، وارتفاع العقود الشاهق ، الذى خفف من صرامتها ما بها من نوافذ ، ثم زاد من رقتها نتوءات الزخرفة للجامات الوردية التي تتوج أعالي الجدران . ان الأجزاء القليلة من الزخارف على الجص تجعل الانسان يفكر في الفنانين وفيما يبدو في عملهم من حرج ظاهر متعمد ، لقد وضعوا أساسا تخطيطيا لا تستطيع الأجيال المقبلة إلا ان تجمله .

اما مئذنة المسجد ، فقد اعيد بناؤها في القرن الثالث عشر ، ولكنها شكلت حتما على نمط المئذنة القديمة التي تذكرنا ـ كنموذجها الأصلي في مسجد سامرا ـ بهياكل النار في العبادة الزرادشتية . ويفسر الشكل الغريب للمئذنة قصة طريفة يوردها مؤرخ[1] معاصر للأمير تقول أن أحمد بن طولون ، الذى احتفظ دائما بسمت صارم أثناء مقابلاته ، أخذ قطعة من الورق ذات يوم ولفها حول أصبعه ، مظهرا طرف الأصبح من نهايتها ، فنظر الحاضرون بعضهم إلى بعض في شيء من العجب ، محاولين تفسير عمل الامير . وحين لحظ الأمير استغرابهم ، قال مداعبا : « تبنى المنارة التي للتاذين هكذا » .

واقتفى اثر الدولة الطولونية في استقلالها الأخشيديون ، الذين اقاموا حكومة مستقلة قبل وصول الفاطميين إلى مصر مباشرة . وليس هنا مجال الاهتمام بالجوانب السياسية ، ولكن لابد من الاشارة إلى حقيقتين حضاريتين على جانب كبير من الاهمية . لقد عاش الرحالة والمؤرخ

---

( ١ ) الخطط ٢ : ٢٦٨ ، وزبدة كشف الممالك لخليل الظاهرى : ٣٠ ( ط باريس ١٨٩٤ ) .

المسعودى فى مصر فى ذلك الوقت . وتحدث عن الرخاء الاقتصادى فى البلاد فى كتابه الذى الفه أثناء اقامته هناك ، فقال[1] .

يحمل إليها من جميع الممالك المحيطة بهذين البحرين ( بحر الروم وبحر الصين ) من أنواع الأمتعة والطرائف والتحف من الطيب والأفاويه والعقاقير والجوهر والرقيق وغير ذلك من صنوف المآكل والمشارب والملابس . فجميع البلدان تحمل إليها وتفرغ فيها .

ويجب أن نذكر بصفة خاصة أن الأمراء الأخشيدين شجعوا موهبة المتنبى ، ذلك العملاق بين شعراء العربية ، الذى يتميز شعره فى المناسبات بنفحات ملحمية جارفة . وأننا لنجد فى شعره القوة الخارقة على التصور ، والسيطرة المطلقة على جميع مصادر وامكانيات فنه ، سواء فيما يتعلق بالايقاع أو بالمهارة فى استخدام الكلمات . وبالرغم من احترافه المديح ، إلا أن عبقريته الفذة انقذته من الاسفاف . وما من شك انه يرجع إليه بعض الفضل فى أن الأجيال اللاحقة لا تزال تذكر الاخشيديين بشىء من الاجلال .

ولقد اتخذت هاتان الدولتان المستقلتان اتجاها جديدا تجاه الأقلية المسيحية ، ولعل السبب فى ذلك هو الرغبة فى كسب الراى العام فى وجه الخلافة فى بغداد . ويكفى أن نورد هنا الوصف التالى الذى أورده المسعودى والذى يرجع الى عام ٩٤١ م قال[2] :

ولقد حضرت سنة ثلاثين وثلاثمائة ليلة الغطاس بمصر ، والاخشيد محمد بن طفج فى داره المعروفة بالمختارة فى الجزيرة ( الروضة ) ... ، وقد أمر فأسرج من جانب الجزيرة وجانب الفسطاط ألف مشعل ، غير ما أسرج أهل مصر من المشاعل والشمع ، وقد حضر النيل فى تلك الليلة آلاف من الناس من المسلمين والنصارى ، منهم فى الزوارق ، ومنهم فى الدور الدانية من النيل ، ومنهم على الشطوط ، لا يتناكرون الحضور ، ويحضرون كل ما يمكنهم اظهاره من المآكل والمشارب والملابس وآلات الذهب والفضة

---

( ١ ) التنبيه والاشراف للمسعودى : ١٩ ( ط القاهرة ) .

( ٢ ) مروج الذهب للمسعودى ١ : ٣٤٣ ( ط الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد وانظر ايضا الخطط ١ : ٢٦٥

والجواهر والملاهى والعزف والقصف ، وهى احسن ليلة تكون بمصر ، واشملها سرورا ، ولا تغلق فيها الدروب . ويغطس اكثرهم فى النيل ، ويزعمون ان ذلك امان من المرض ومبرىء للداء .

تتميز النظم السياسية الاسلامية بالمركزية . ولهذا ، فلنه يمكن ارجاع النجاح فى العمل المزدوج الذى قام به السادة الجدد - وهو صبغ البلاد بالصبغتين الاسلامية والعربية - الى العاصمة فى مصر ، تحت توجيهات الخلافة بطبيعة الحال .

ولقد عرض وليام مارسيه بوضوح لموقف المسلمين الأولين من مشكلات التعليم ، فقال :

ان اهداف التعليم فى المجتمع الاسلامى تهتم ، أو لعلها تختلط ، بالرغبة فى تمكين كل شخص من أن يؤدى واجباته الدينية ، وتدعيم عقيدة المؤمنين ، ونشر الاسلام بين الكفار . ويعتبر من واجبات الحكام الأساسية العمل بين رعاياهم على نشر المعرفة النافعة بين كل من يعتنق الاسلام .

وان نظرة سريعة إلى الخطوات التى ادت إلى نشر الاسلام بن الأقباط تظهر ان المسيحيين اصبحوا اقلية فى القرن التاسع الميلادى ، أى بعد مائتى سنة من الفتح العربى ، وكان هذا يعتبر حينئذ نصرا سريعا . ففى الفسطاط - وهو ما يهمنا بصفة خاصة - تم التعريب بسرعة أيضا ، وكادت العربية فى اقل من ثلاثة قرون أن تزيل تماما منافستها اللغة القبطية . واهم وثيقة لدينا فى هذا الصدد هى مقدمة ساويروس الأشمونى لكتابه « تاريخ بطاركة الاسكندرية » ، والذى كتب فى نهاية القرن العاشر الميلادى ، حيث يقول[1] :

فاستعنت بمن اعلم استحقاقهم من الأخوة المسيحيين وسألتهم مساعدتى على نقل ما وجدناه منها بالقلم القبطى واليونانى إلى القلم العربى الذى هو اليوم معروف عند اهل هذا الزمان باقليم ديار مصر لعدم اللسان القبطى واليونانى من اكثرهم

---

( ١ ) تاريخ بطاركة الكنيسةلا القبطية بالاسكندرية ، لساويروس ابن المقفع الأشمونى
History of the Patriarchs of the Coptic Church of Alexandria, Patrologia Orientalis, Tome I; p. 17 )115).

وكان المسجد منذ البداية مركزا للتعليم . وهو أمر طبيعي ، لأن الغاية من التعليم هي اعداد متخصصين في القرآن والحديث . ويعنى هذا معرفة النصوص الدينية عن ظهر قلب ، وترديدها دون ارتكاب اخطاء في تذكرها ، ودون أخطاء نحوية . وكان الفرد يستطيع عن هذا الطريق أن يصبح مسلما صحيحا وداعية يتصف بالجد والعزيمة ، وكان العالم في الدراسات القرآنية لاغنى عنه في جميع المساجد . ويقول ابن جبير[1] :

وتعليم الصبيان للقرآن بهذه البلاد المشرقية كلها انما هو تلقين ، ويعلمون الخط في الأشعار وغيرها ، تنزيها لكتاب الله عز وجل عن ابتذال الصبيان له بالاثبات والمحو . وقد يكون في أكثر البلاد الملقن على حدة والمكتب على حدة فينفصل من التلقين إلى التكتيب .

وهناك نوع من التعليم الخاص ، عن طريق تخصيص مبلغ من المال تدفع منه مكافاة لكل شخص يحاضر جالسا في مسجد ومستندا الى أحد الأعمدة . كما قامت الجمعيات الخيرية بمساعدة الأيتام الذين وجد انهم يفيدون من التربية الدينية . ومنذ القرن السابع ، ظهر في الفسطاط عدد من المحدثين اللامعين . وقام الى جانب هؤلاء العلماء الأجلاء طائفة من الخطباء الشعبيين ذوى المقدرة ، ممن استمدوا مادتهم من قصائد الهجاء القديمة .

وهكذا اتجه المنهاج التعليمي نحو الاعتماد على الذاكرة . ومنذ البداية ، لعبت الكتابة دورا ضئيلا ، وكان لهذه الحقيقة الهامة تاثير كبير على النظم التعليمية لعدة قرون . كانت هذه هي الطريقة التي اتبعها مرتلو القرآن وقراؤه منذ اقدم العصور الاسلامية . وعلى اى حال ، كان الطفل يتعلم القراءة والكتابة ، وما هما بالأمر الهين . وبعد ذلك ، كان الدارس يحفظ القرآن عن ظهر قلب ، ويرتله حسب قواعد دقيقة معينة في علم القراءات .

لهذا ، كان القرآن هو الأساس الذى تقوم عليه تربية الرجل المسلم وتعليمه . فكان التلاميذ يبدأون بقراءة النص كاملا : وبعد ذلك يطلب إليهم أن يستظهروا منه أكبر قدر يستطيعونه . وبعد تحليل النص باكمله تحليلا نحويا ، يكلف الأساتذة التلاميذ بنسخه بشكله التقليدى . وخلال

(١) رحلة ابن جبير : ٢٤٥ (ط. بيروت) ، و ٢٧٢ (ط. اوروبة) .

هذه العملية ، يقوم الأساتذة بتفسير النص . ولم يكن استظهار القرآن مجرد دليل على الثقافة فحسب ، ولكنه كان يميز الرجل العالم بين قرنائه . وقد حرص المؤرخون على أن يحفظوا للأجيال التالية اسماء أولئك الذين وهبوا أنفسهم لهذه الرياضة الذهنية .

ومما لاشك فيه كذلك ، أن غرضا آخر من أغراض التعليم كان الحرص منذ البداية على حفظ الحديث . وكان البرنامج يتكون من قسمين : القسم الاجبارى ويختص بتعليم القرآن والتربية الدينية والقراءة والكتابة ، والقسم الاختيارى ويشتمل على تاريخ ما قبل الاسلام وسيرة الرسول والصحابة والشعر والنحو والانشاء والمفردات والحساب والخط . ولهذا ، تعددت أساليب تنشيط الذاكرة ، إذ لا نعرف فى غير هذا الأدب تلك الثروة من الشعر التعليمى التى تقدم للطالب دراسات فى الفلك والرياضيات والتاريخ ، وفى القانون على وجه الخصوص . » ولم يضعف الاعتقاد فى المبدأ القائل بأن نقل المعرفة عن طريق الرواية هو وحده الصحيح » إلا بحلول القرن الثامن واكتشاف الورق .

ولم تسمح بعض كتابات المتزمتين بالتعليم الابتدائى للأطفال فى المدرسة فى العصور الوسطى .. خوفا من ان يلوثوا الجدران . واقترحوا أن تقام الفصول فى الدكاكين التى تقع على الطريق أو على جوانب الأسواق . وقد اقيمت معظم الفصول فى أماكن ضيقة جدا ، باستثناء تلك التى كانت تعقد فى الهواء الطلق . ويمكننا أن نقدم صورة لما كانت عليه المدرسة الابتدائيه فى العصور الوسطى حسب ما لدينا من أوصاف حديثة . كان جميع التلاميذ يجتمعون فى مكان واحد ، وينشدون ويتعلمون ما يقرر عليهم من الدروس بصوت عال . ويمكننا ان نتصور الصوت الذى كان يسمع فى الفصل ، وحتى يتمكن المدرسون من تحمله ، كان عليهم أن يعتادوا عليه تماما . وإلى جانب الترتيل عند انشاد الدروس او قراءتها ، كما كان يحدث فى جميع البلاد ، كان الأطفال يهزون نصف اجسامهم العلوى إلى الأمام والخلف . هذه الحركة الدائبة ، بالاضافة إلى الصوت النشاز المنبعث من مجموع تلك الأصوات ، جعلت منظر المدارس العربية يبدو غريبا . وكان الأطفال الذين لا يقومون بواجباتهم أو يسيئون السلوك أمام أساتذتهم يعاقبون بشدة . فكان التلميذ المذنب يلقى على ظهره على الأرض ، بينما يرفع المساعد رجليه عاليا ريثما يثبت الشيخ قدميه فى « الفلقة » ،

وهى أداة شبيهة ببعض أدوات التعذيب التى استخدمت منذ العصر البيزنطى وحتى الأزمنة الحديثة . وعند ذلك يضرب الشيخ قدمى الضحية بغصن رفيع من الجريد . وقد كان ينظر إلى مهنة المعلم باحتقار ، فشاع التعبير القائل « أحمق من معلم » . ولم تقتصر هذه النظرة على الحضارة العربية .

أما التعليم فى المرحلة الأعلى فكان يتم فى المساجد . فمنظر الطلبة وقد جلسوا على شكل حلقة حول الأستاذ ، الذى كان يجلس مستندا الى أحد أعمدة المسجد ، يمثل لنا صورة مألوفة لازلنا نراها إلى وقتنا هذا . وكان التلاميذ ، سواء فى التعليم الأولى ، أو فى حلقات المساجد ، أو فى المدارس الاسلامية فيما بعد ، يجلسون على حصر مبسوط على الأرض . ولقد لقى أساتذة المراحل العليا العنت الشديد فى حفظ النظام اثناء دروسهم . فقد كان هناك سيل مستمر من الأسئلة من الطلبة الذين لا يحجمون عن طلب الايضاحات والشروح . وقد شكا بعض الأساتذة من ذلك بمرارة . ولعل هذا الوصف الحديث يصدق أيضا على الفصول فى جميع العصور :

ويمكن للمرء أن يرى عمامة الأستاذ ، وقد جلس القرفصاء على جلد كبش ، وأمام قدميه العاريتين منديل وزوج من النعال . وكان يجلس حول العمود الذى يستند إليه ثلاثة صفوف من المستمعين ، يشبهون بجلستهم فروع القلادة . وكان هؤلاء أيضا حفاة الأقدام ، قد وضعوا نعالهم أمامهم بعناية ، كما يفعل بعض الباعة فى الأسواق .

وكان لزاما على الطالب اثناء تلقيه التعليم الدينى ، أن يتم اللغة العربية باتقان ، حتى يمكنه أن يفهم كتاب الله فهما صحيحا . وما كانت هذه الدراسة اللغوية ممكنة إلا عن طريق دراسة متعمقة للشعر العربى .

ويمكننا الآن أن نفهم حماسة الرحالة الفارسى ناصر خسرو ، فى منتصف القرن الحادى عشر الميلادى ، عندما وصف نتيجة الرسالة التعليمية لمسجد الفسطاط الكبير على هذا النحو بقوله[1] .

يقيم بهذا المسجد المدرسون والمقرئون . وهو مكان اجتماع سكان المدينة

---

( ١ ) سفرنامه لناصر خسرو : ٥٩ ( ترجمة الدكتور يحيى الخشاب )

الكبيرة ، ولا يقل من فيه ، فى أى وقت ، عن خمسة آلاف ، من طلاب العلم ، والغرباء ، والكتاب الذين يحررون الصكوك والعقود وغيرها .

فى الوقت الذى كتبت فيه هذه الكلمات ، كانت الشيعة هى المذهب الرسمى للدولة فى مصر . وإذا ما تذكرنا أن الاسكندرية كانت منذ القرون الأولى للعصر المسيحى مركزا نشطا للهرطقة، فإنه يهمنا أن نلاحظ أنه منذ وصول العرب ، تجنبت البلاد بصفة عامة الانقسامات الدينية والسياسية التى مزقت شمل العراق وفارس وشمال افريقية . ومما لاشك فيه ، أن بعض الأفراد دافعوا عن النظريات المنشقة ، ولكن مصر ـ التى ظلت خارج نطاق صراع الخوارج وجميع ما تخلف عنهم من فرق ـ لم تبد اهتماما بقضايا الجبر والاختيار ، وكادت أن تتجنب تماما حركات الاضطهاد التى تعرض لها المعتزلة .

ولعل من المفيد فى هذا المجال أن نذكر أن فقيه الاسلام الكبير الامام الشافعى قضى الأعوام الأخيرة من حياته فى مصر ، حيث دفن . وأن الدور الذى قام به فى تنمية التشريع الاسلامى لبالغ الأهمية ، ولا يمكن أن نفيه حقه ، لأنه كان بحق واضع أساس التنظيم العلمى فى حقل التشريع الدينى . فقد اوجد مذهبا متكاملا بطريقة علمية . ويجب أن نذكر أنه كان هناك اتجاهان فى ذلك الوقت : اتجاه أهل الحديث ، الذين يمكن أن يطلق عليهم اسم أصحاب المدرسة التاريخية ، والذين يبنون القانون الأخلاقى برمته تقريبا على الحديث ، دون تحريم للقياس والرأى الشخصى تحريما مطلقا عند الحاجة ، واتجاه أهل الرأى ، الذين يمكن أن يطلق عليهم اسم أصحاب المذهب العقلى ـ فى شىء من الاحتراس ـ وهؤلاء يبدأون موقفهم ايضا باحترام كبير للحديث ، ولكن نظرا لأنهم شعروا بقلة المادة الموثوق منها ، فقد فتحوا الباب للاجتهاد الشخصى .

وقد عمل الشافعى على التوفيق بين الاتجاهين . فنحن مدينون له بالتعريف والتطبيق الدقيق لمصادر التشريع الأربعة ، وهى القرآن والحديث والاجماع والقياس . وترجع أصالته إلى أنه جعل الاجماع يمتد ليشمل الجماعة بأسرها . وقد منح ذلك قوة قانونية لتقليد معترف به من الجميع . ومن ثم نشأ القول القائل بعدم خطأ الجماعة ، التى يحددها الشافعيون باجماع أصحاب الرأى فى زمن معين .

ومهما كان الأمر ، فان الفسطاط ـ قبل انشاء القاهرة ـ لم تكن بأى حال مركزا لنشاط أدبى أو ديني يمكن أن يقارن فى الأهمية بينه وبين مدن مثل بغداد والبصرة والكوفة .

ونختم هذه الحقبة بذكر شخصية تاريخية يصعب التعريف بها ، وهى ذو النون الذى يدعيه كل من المتصوفة والكيميائيين والقبليين . وتتسم بعض فقرات من كتاباته ـ وهى حكم وأمثال وقصص ـ بطابع صوفى . وقد ترك لنا هذا التعريف لألوهية الله بقوله : « وكل ما خطر ببالك ، فالله بخلاف ذلك »[١]

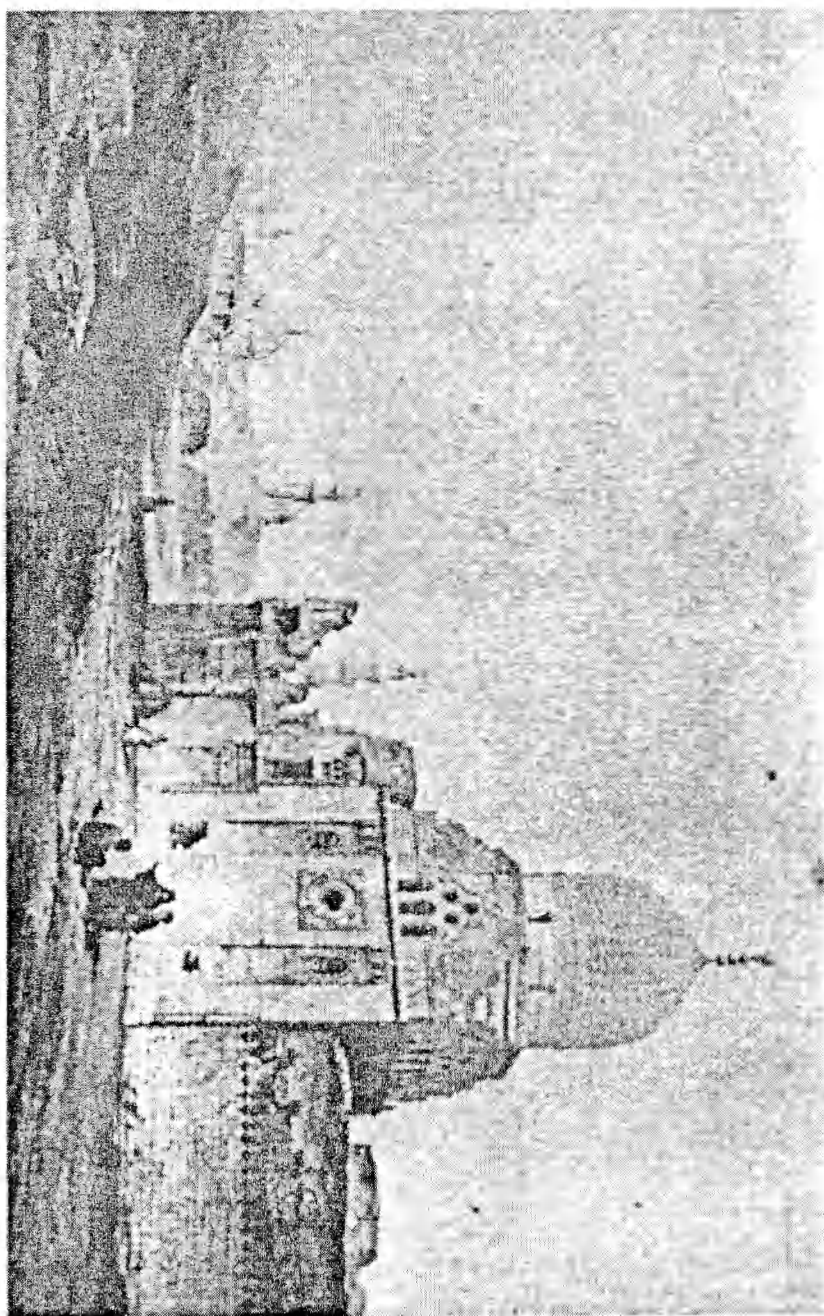




(١) الرسالة القشيرية للامام أبى القاسم عبد الكريم القشيرى : ٤ ( ط. القاهره . ١٩٤٠ ) .



٢
قاهرة الفاطميين



لم تتعد عاصمة ابن طولون مرتبة المدينة الاقليمية . وقد كان لهذه الحقيقة تأثيرها النسبى على الغضب المدمر الذى بدأ من قائد الجيوش العباسية عند سقوط الأسرة . اما القاهرة ، فقد كتب لها أن تتمتع بمجد أبقى .

كان حكام مصر قد بدأوا يتجهون شمالا ، حتى قبل دولة الفاطميين . فنجد أن آخر الأخشيديين أنشأ حديقة كافور بعيدا عن موقع العسكر والفسطاط . وقد بنيت هذه الحديقة الكبيرة - التى حافظ الفاطميون على جزء منها - على مستوى المسجد الأقمر ذاته ، وكان يحدها الخليج . وكان حكام القاهرة يصلون الى هذا المكان - الذى أصبح حديقتهم الخاصة - عن طريق سرادب تحت الأرض .

القاهرة مدينة جديدة انشئت حيث لم يوجد شىء من قبل . وعلى موقع اختير مقدما اختيارا محددا ، على سهل رملى . وحسب الرسم الذى كان الخليفة نفسه قد صممه فى شمال افريقية ، قام جوهر ، قائد الجيوش الفاطمية ، فى الليلة الأولى من وصوله الى الفسطاط . بتخطيط موقع اسوار القاهرة شمالى القلعة القديمة ، كما وضع أساس القصر الملكى . وكما حدث عند تأسيس بغداد ، قبل ذلك بزمن طويل ، حين حدد اقدر الخبراء الوقت الذى تكون فيه النجوم فال خير لمثل هذا العمل ، اتخذت اجراءات مماثلة عند تأسيس القاهرة .

. . . ان جوهرا ، لما قصد اقامة السور وبناء القاهرة [١] ، جمع المنجمين وأمرهم أن يختاروا طالعا لحفر الأساس وطالعا لرمى حجارته ، فجعلوا بدائر السور قوائم من خشب ، وبين القائمة والقائمة حبل فيه اجراس . وافهموا البنائين ساعة تحريك الاجراس ان يرموا مافى ايديهم من اللبن والحجارة ، ووقف المنجمون لتحرير هذه الساعة واخذ الطالع . فاتفق وقوف غراب على خشبة من تلك الخشب ، فتحركت الأجراس ، وظن الموكلون بالبناء ان المنجمين حركوها فالقوا ما بأيديهم من الطين والحجارة فى الأساس ، فصاح المنجمون : لا لا ، القاهر فى الطالع ! ومضى ذلك وفاتهم ما قصدوه . وكان غرض جوهر ان يختاروا للبناء طالعا لا يخرج البلد عن

---

( ١ ) النجوم الزاهرة ٤ : ٤١ وراجع ايضا الخطط ١ : ٣٧٧ .

نسلهم ابدا . فوقع أن المريخ كان في الطالع ، وهو يسمى عند المنجمين القاهر .. ولهذا سميت المدينة القاهرة .

تاسست مدينة القاهرة في يوم ٦ تموز ( يوليه ) سنة ٩٦٩ ، وعينت الاحياء لمختلف الجند بعد ذلك بستة اشهر . وأمتدت المدينة الجديدة من المئذنة الجنوبية لمسجد الحاكم الى باب زويلة . وحدودها الشرقية هى حدود القاهرة الحديثة ذاتها ؛ اما من ناحية الغرب ، فلم تتعد القناة . وقد بنى القصر الملكى مع المدينة في وقت واحد ، وامتدت واجهته الغربية من المسجد الأقمر حتى مدرسة الملك الصالح أيوب . ووضع أول حجر في الجامع الأزهر في يوم ٤ نيسان ( ابريل ) سنة ٩٧٠ ، وتم بناؤه يوم ٢٢ حزيران ( يونيه ) سنة ٩٧٢ .

وهكذا ولدت مدينة ، ستصبح فيما بعد هدفا لعداوة مريرة من جانب اهل السنة ، وذلك بسبب ميولها الدينية المخالفة لهم . وفي الواقع ، كان وصول الفاطميين الى السلطة في مصر انقلابا غير عادى . فمنذ استيلائهم على السلطة في شمال افريقية ، اصبحوا منافسين للعباسيين في بغداد . وبعد ذلك بقليل ، في سنة ٩٢٩ ، حذا الأمير الاموى في قرطبة حذو الفاطميين انفسهم في الاتجاه الى الرأى العام ، واعتبر ان من حقه ايضا اتخاذ لقب خليفة . وقرر في رسالته الى الناس « وعلمنا ان التمادى على ترك الواجب لنا من ذلك حق لنا اضعناه ، واسم ثابت اسقطناه »[١] . هذا العصر يمكن أن يسمى عصر « الانقسام الأكبر » نظرا لتعدد الخلافات . وهذه التسمية صحيحة ، لأنه اذا كان الخلفاء في بغداد وقرطبة يتمسكون بادعاء انهم قد تمت مبايعتهم بواسطة جماعة يصعب تحديدها من أهل الراى ، فان الخليفة الفاطمى أو الامام يقيم حقه على دعوى خاصة . فتوليه الخلافة لا يعتمد على أمور عادية مثل راى الجماعة ، وانما هو معين بحكم نسبة المقدس ، وهو منزه عن الخطا .

وبنيت البيوت لرجال الجيش واسرهم ، كما انشئت حوانيت تجارية خاصة لخدمتهم وبينما ارتفعت الأسوار واخذ اساس القصور والجامع

---

( ١ ) نص الكتاب الذى تلقب فيه عبد الرحمن الثالث بالقاب الخلافة سنة ٣١٦ هـ ( ٩٢٩ م ) في كتاب :
Una Cronica Anonica Anonima de Abd Al-Rahman III al Nasir, ed. par Levi-Provencal Y Emilio Garcia Gomez, Madrid – Granada, 1950 p. 79.

الأزهر الكبير في العلو ، كان جنود جوهر يبنون البيوت ، وكان المعسكر يتحول الى مدينة . وعندما قسمت الأرض داخل الأسوار بين فرق الجيش المختلفة ، ابتنت كل فرقة لنفسها خطة واطلقت عليها اسمها أو اسم قائدها . وكانت القاهرة في ذلك الوقت تنقسم الى قسمين متساويين تقريبا بواسطة قصبة كبيرة تمتد بازاء الخليج ، الذى كان يجرى غربا . وتخرج شوارع القسمين الرئيسيين في المدينة من جانبى القصبة (١) .

ووجدت غربى القناة حدائق امتدت الى ضفاف النيل .. وكثيرا ما كنت ترى فيها اعدادا كبيرة من المتعطلين أو المتنزهين ممن يطلبون اللهو والتسلية . وعندما تبلغ مياه النيل اقصى ارتفاعها ، يقصد الخليفة احدى القاعات التى تقام في السهل ، حيث تقام مهرجانات شعبية كبرى .

في هذه المدينة الاقليمية العسكرية ، لم تكن العناية بالطرق امرا عسيرا . وكانت القرب المائية المصنوعة من جلود الماعز والتى كانت تنقل على ظهور الجمال أو البغال تغطى حتى لا يصيب ما يتساقط منها المارة . وبالاضافة الى ذلك ، كان لزاما على كل صاحب متجر ان يحتفظ أمام حانوته بوعاء كبير ممتلىء بالماء ليساعد به في اطفاء النيران . وهناك أمر صدر عن الخليفة الحاكم لا يخلو من طرافة . فقد اصدر أمرا في جميع أرجاء المدينة بأن تضاء الحوانيت والبوابات والميادين والطرق العامة والحارات المسدودة . ثم أخذ الناس يبالغون في استخدام المصابيح في الشوارع والأزقة . فكانت الأضواء تظل مشتعلة طوال الليل في الأسواق المسقوفة والمكشوفة في القاهرة وفي مصر القديمة ، يتزاحم عليها المشترون . كما انفقت اموال كثيرة في حفلات الأكل والشراب والطرب . وسرعان ما ضاق الخليفة الحاكم ـ الذى لا تحتاج نزواته الى مزيد من الاشارة ـ فاصدر أمرا مشددا بحظر التجول ليلا .

ولقد امضى رحالة فارسى بعض الوقت في القاهرة وامتدحها اجمل المدح بهذا الوصف (٢) .

---

(١) المعنى في الخطط ١ : ٣٦٠ ، ٣٧١ ، ٣٧٥ : وانظر كتاب : القاهرة : تاريخها و اثارها لعبد الرحمن زكى : ١٠ (ط. القاهرة ، ١٩٦٦)

(٢) سفرنامه : ٤٧ ـ ٢٠

. . . وهكذا بنيت هذه المدينة التى قل نظيرها . وقد قدرت ان فى القاهرة ما لا يقل عن عشرين الف دكان ، كلها ملك السلطان ، .. والأربطة والحمامات والأبنية العامة الأخرى كثيرة لا يحدها الحصر ، وكلها ملك السلطان ، اذ ليس لاحد أن يملك عقارا أو بيننا غير المنازل وما يكون قد بناه الفرد لنفسه . وسمعت أن للسلطان عشرين الف بيت [1] ، فى القاهرة ومصر ، وانه يؤجرها ويحصل أجرتها كل شهر . ويستطيع المستاجر ان يستاجر منزلا أو يتركه بمحض ارادته فلا يجبر شخص على شىء .

. . . وليس للمدينة قلعة ، ولكن ابنيتها اقوى واكثر ارتفاعا من القلعة ، وكل قصر حصن . ومعظم العمارات تتالف من خمس أو ست طبقات .. وفى المدينة بساتين واشجار بين القصور تسقى من ماء الآبار .. وكانت البيوت من النظافة والبهاء بحيث تقول انها بنيت من الجواهر الثمينة لا من الجص والآجر والحجارة . وهى بعيدة عن بعضها : فلا تنمو أشجار بيت على سور بيت آخر .

. . . ويجلب ماء الشرب من النيل ، ينقله السقاؤون على الجمال .. ويقال ان فى القاهرة ومصر اثنين وخمسين الف جمل يحمل عليها السقاؤون الروايا ( القرب ) ، وهؤلاء عدا من يحمل الماء على ظهره من القدر النحاسية أو القرب الصغيرة . وذلك فى الحارات الضيقة التى لا تسير فيها الجمال .

. . . ويقع قصر السلطان فى وسط القاهرة ، وهو طلق من جميع الجهات ، ولا يتصل به اى بناء ، وكل ما حوله فضاء ، ويحرسه كل ليلة الف رجل ، خمسمائة راجل وخمسمائة فارس .

وكانت حراسة القصر ليلا تقترن بعرض مهيب . فبعد الأذان لصلاة العشاء يقوم الأمام بالصلاة ، ويتقدم احد الأمراء الى سلم القصر : وعند انتهاء الصلاة ، يصدر امره لفرقة من قارعى الطبول ونافخى الأبواق ان يعزفوا ، كما تعزف آلات اخرى قطعا موسيقية جميلة لمدة ساعة تقريبا ثم يترك القصر ضابط معين خصيصا لهذا الأمر ، فيلوح برمحه ، ويقذف بها أولا الى الأرض عند المدخل ، ثم يلتقطها ويغلق الباب ويسير حول

---

( ١ ) هناك اختلاف بين الرقم الذى يذكرهالمؤلف ورقم ترجمة الخشاب ، وقد آثرنا إثبات الاول .

القصر سبع مرات . وبعد أن يتم جولاته ، يقيم العسس الليلى وافراد الحراسة . وكانت تنضب سلسلة فى اضيق مكان من الميدان الذى يسمى بين القصرين . وابتداء من هذه اللحظة ، يوقف المرور فى الميدان حتى نوبة البوق عند الفجر . عند ذلك ، ترفع السلسلة ويستانف المرور .

ويستمر دليلنا الفارسى فيقول [1] .

ويبدو هذا القصر من خارج المدينة كانه جبل ، لكثرة ما فيه من الأبنية المرتفعة . وهو لا يرى من داخل المدينة لارتفاع اسواره ... وهذا القصر يتكون من اثنى عشر بناء . وله عشرة ابواب فوق الأرض ، فضلا عن أبواب أخرى تحتها .. وتحت الأرض باب يخرج منه السلطان راكبا ، وهذا الباب على سرداب يؤدى الى قصر آخر خارج المدينة . ولهذا السرداب الذى يصل بين القصرين سقف محكم . وجدران القصر من الحجر المنحوت بدقة ، تقول انها قدت من صخر واحد .

ولندخل القصر مع دليلنا ناصر خسرو [2] .

حين دخلت من باب السراى رايت عمارات وصففا وايوانات .. كان هناك اثناعشر جناحا ، ابنيتها مربعة ، وكلها متصلة بعضها ببعض . وكلما دخلت جناحا منها وجدته احسن من سابقه ، .. وكان ( بأحد هذه الاجنحة ) تخت يشغل عرضه بتمامه .. وهو مغطى بالذهب من جهاته الثلاث ، وعليه صور المصطاد والميدان وغيرهما : كما أن عليه كتابة جميلة . وكل ما فى هذا الحرم من الفرش والطرح من الديباج الرومى والبوقلمون ، نسجت على قدر كل موضع تشغله . وحول التخت درابزين من الذهب المشبك ، يفوق حد الوصف . ومن خلف التخت ، بجانب الحائط ، درجات من الفضة .. وقد رأيت على المائدة شجرة أعدت للزينة ، تشبه شجرة الترنج ، كل غصونها وأوراقها وثمارها مصنوعة من السكر . ومن تحتها الف صورة تمثال مصنوعة كلها من السكر ايضا .

وهناك تقرير يستحق اهتمامنا كتبه وليام الصورى عن زيارة سفراء الفرنجة للقاهرة سنة ١١٦٧ م . ذلك أن الرسل ـ الذين قادهم الوزير شاور بنفسه ـ أخذوا أولا الى قصر رائع الجمال ، عظيم الزخرفة . وهناك رافقهم

( ١ ) سفرنامه : ٤٨ ـ ٤٩ .

( ٢ ) المصدر نفسه : ٦٣ ـ ٦٤

عدد كبير من الحرس ، يسيرون امامهم ، ويحملون سيوفهم مسلولة .
وبعد أن اقتيدوا خلال ممرات طويلة ضيقة تعلوها اقبية ، حيث لم يمكنهم رؤية شيء بسبب الظلمة التامة ، وجد الرسل انفسهم في مكان مضيء ، وراوا سلسلة من الابواب . وكان عند كل باب حراس عديدون . وعند اقتراب شاور ، كانوا يقفون في الحال ويؤدون له التحية في اجلال . بعد ذلك ، وصل الرسل الى فناء خارجي تحيط به أوراق فخمة ذات عمد وقد رصف الفناء باسره بالرخام الملون المحلى بذهب خالص ثمين ، كما غطيت الدعامات السقفية كلها بالذهب ، مما جعل المكان غاية في الجمال والامتاع للنظر ، حتى ان اكثر الناس انشغال بال كان يتوقف ليحملق فيه . وفي وسط الفناء نافورة تنبعث منها المياه الصافية عن طريق انابيب ذهبية وفضية الى قنوات واحواض مرصوفة بالرخام ، وكنا نرى في كل مكان طيورا سابحات من اشكال شتى ، ذات الوان نادرة ، ومن اجمل الأنواع التي جلبت من جميع اقطار الشرق . وكان كل من راها يعجب بها ويقول ان طبيعة ناضرة قد ابدعتها . وقد اختلفت طبائع الطيور : فمنها من لزم النافورات ، ومنها من بقي بعيدا عنها . وكان يقدم لكل طائر الغذاء المناسب له . هنا ، مضت جماعة الحراس الأولى التي كانت قد رافقت المحاربين الفرنجة ، وحل محلهم في الحال قوم اكثر اهمية ، ممن كانوا على علاقة أوثق بالخليفة ، فقاد هؤلاء الأدلاء الجدد الرسل خلال أروقة اكثر جمالا ، وخلال حديقة فاقت سابقتها فخامة وروعة . وهناك رأوا مجموعات من الحيوانات غاية في الغرابة ، بحيث ان اى شخص يصفها سوف يتهم بالكذب ، كما يستحيل على اى فنان رسمها حتى في احلامه . وبعد أن مروا خلال مزيد كثير من الابواب وعبروا مزيدا كثيرا من الممرات ، وبعد أن رأوا اشياء جديدة مما بهرهم اكثر من ذى قبل ، وصلوا اخيرا الى القصر الكبير حيث يقيم الخليفة . وهو اكثر بذخا من اى شيء راوه حتى الآن . وكانت الساحات تعج بالجند المسلحين من العرب ، وقد تقلدوا اسلحة متلألئة من الذهب والفضة ، وبدا عليهم الاعتزاز بالكنوز التي يحرسونها . ثم ادخل رؤساء الفرنجة الى غرفة فسيحة تنقسم الى قسمين بواسطة ستارة تمتد من حائط الى آخر ، قد نسجت عليها صور حيوانات وطيور واشخاص ، وترصعها الاحجار من الياقوت والزمرد والاف من الاحجار الكريمة . ولم يكن هناك احد في هذه الغرفة : فما أن دخل شاور ، حتى سجد على الأرض

كانه يصلى ، ثم وقف وسجد مرة أخرى ، والقى سيفه الذى كان يتدلى من عنقه : ومرة ثالثة ، سجد على الأرض وبقى على هذه الصورة فى خضوع تام . وفجاة ، وفى لمح البرق ، رفعت حبائل الستارة المفضضة المذهبة مثل الحجاب ، وكانت تحجب الجزء الأمامى من الغرفة . وظهر الخليفة الطفل أمام الأعين المبهورة من الرسل اللاتين . وكان وجه هذا الأمير الغامض مغطى تماما بحجاب . وكان يجلس على عرش من الذهب مرصع بالجواهر والحجارة الكريمة .

ويجدر بنا أن نقف برهة لنتمعن فى الاخشاب المحفورة التى وصلتنا من هذه القصور . فهذا الحفر الذى استحق شهرته العظيمة يقدم لنا مناظر متتابعة على نحو غير متوقع . من مناظر الصيد . وحفلات الموسيقى والرقص ، ومجالس الشراب . ولم يهمل الفنانون الذين تخيلوا هذه المناظر ما تحتاج اليه من توازن وتخطيط منظم . وبعض الأجزاء تصور ايضا مجموعات من الحيوانات يواجه بعضها بعضا ، بعضها ساكن فى اوضاع هادئة جميلة ، ولكن اكثرها صور وكانه ينبض بالحركة . والطابع العام هو الأطراد ، مع زخرفة متعاقبة من اشكال هندسية هلالية وسداسية مستطيلة . ويستمر هذا التباين فى التوزيع مع التناسق فى الاشكال الهندسية التى تتكرر بطريقة منظمة عن يمين وشمال المنظر الأوسط . وقد رتب الزخرفة على مستويين : صور بشرية صغيرة ، وصور حيوانات وطيور تظهر امام خلفية من الاشكال اللولبية والأوراق الثلاثية ، وهى اقل بروزا فى الحفر . ويحد كل منظر أطار مزدوج المناظر . وحين ننظر اليها فى مجموعها ، نجدها تمثل الجوانب المختلفة لحياة الملك . وتعتبر اعمال الحفر الخشبية هذه ، باتزانها المقصود ، من بين روائع فن رسم الظل ( السيلووبت ) . وحيث أن تصوير ثنيات الملابس تصويرا متقنا كان أمرا عسيرا ، فيجب علينا أن نشيد بالبساطة فى التصميم التى مارسها هؤلاء الفنانون لاظهار خطوات الرقص بحيوية دافقة . وقد تمكن الفنانون الذين قاموا بعمل هذه المحفورات أن يخرجوا لنا صورا تشيع فيها البهجة ، وتكاد تنبض بالجمال الحسى . فالتصور الفنى فيها حاد وثورى .

وتقدم لنا هذه الأوصاف تعبيرا بليغا يمكننا من ادراك ما كانت عليه حياة الخلفاء الفاطميين من البذخ . فقد ضمت قصورهم خزائن كثيرة استخدمت كمخازن او أماكن لحفظ الأشياء النادرة . ومما ذكره الكتاب

العرب في هذا الشان ما ياتى [١] : خزانة الكسوة ، حيث حفظت جميع انواع الثياب والبز التى كان الخلفاء يوزعونها بسخاء على كبار رجال الحاشية على نحو اضر بمالية الدولة ؛ وخزانة الجوهر والطيب والطرائف ، حيث حفظت مجموعات من الجواهر والأحجار الكريمة واشياء مختلفة من البلور والصينى والمرايا واطقم الشطرنج المصنوعة من الأبنوس والعاج والفضة والذهب والصحاف الذهبية للأكل ، بالاضافة الى كمية هائلة من الطيب والعطور النادرة ؛ وخزانة الفرش والامتعة ، وهى مخصصة لحفظ السجاد والأقمشة المطرزة بالذهب والفضة وغير المطرزة من المخرمة على اشكال الطيور والفيلة المصورة بسائر انواع الصور شىء كثير ، وكذلك الستور الحرير المنسوجة بالذهب منها صور الدول وملوكها والمشاهير فيها ، كما ضمت ايضا خياما ضخمة كانت تستخدم في الرحلات - وباختصار جميع المفروشات التى يمتلكها الخليفة ، وخزائن السلاح ، حيث وجدت شتى انواع الأسلحة من السيوف والرماح والدروع والخوذ والتخافيف والقسى والسهام والنصول ؛ وخزائن السروج ولجم الخيل : وخزانة الشر ؛ وخزانة غريبة للتوابل وانواع شتى من البهارات والشمع والعسل والسكر المكرر والحلويات المسكرة وزيت السمسم وزيت الزيتون : وخزانة البنود التى ضمت الرايات والأعلام وساريات من الذهب والفضة ، وقد استخدمت ايضا كسجن للضباط وكبار رجال الدولة : واخيرا دار الفطرة ، وكانت تعمل فيها الفطائر والحلوى .

وتمثل لنا القصور والأعمال الفنية البيئة المناسبة لحياة المرح واللامبالاة التى كانت سائدة في القاهرة . واننا لنعرف تفصيلا ترتيب الأعياد التى احتفل بها في الدولة الفاطمية ، ومنها اعياد كانت مجرد مناسبات لتوزيع الطعام والمال على الفقراء ، واقامة الموائد ، وتقديم المنح لموظفى الدولة . وكثيرا ما تلاحقت هذه الفرص للعطاء ؛ اذ بالاضافة الى احتفالات المسلمين السنيين الذين اعترف بهم الفاطميون ، وجدت مهرجانات الشيعة ، واعياد المسيحيين ، وايام اخرى للمرح الفتها وثبتتها التقاليد الشعبية للبلاد ، مثل المهرجانات الصاخبة لوفاء النيل .

---

( ١ ) انظر الخطط ١ : ٤٠٨ وما بعدها .

لم يكن الفاطميون اول من كرم الاعياد المسيحية بحضورهم . ومع ذلك ، فإن الرعاية التى حظى بها المسيحيون ، باستثناء بعض الحالات النادرة ، نمت بوصول الفاطميين . ولا ينبغى ان ننسى ان التجارة والزراعة كان اكثرها فى ايدى المسيحيين . ونستطيع ان ندرك ايضا ان العقائد الاسماعيلية التى روج لها فى مصر نفرت كثيرين من جماهير المسلمين . واتباعا لسياسة حفظ التوازن ، حاول وزراء الفاطميين بطبيعة الحال ان يكتسبوا من المسيحيين التاييد الذى فقده عند غيرهم . ويجب أن نضيف أخيرا ، أن كثيرا من المناصب الادارية كان يشغلها مسيحيون .

وفيما يتعلق ببعض النفقات العامة فى هذا المجال ، فقد ورد مثلا فى ميزانية سنة ١١٢٣ م. الأبواب الآتية : نفقات الاعياد الاسلامية والمحلية ، ونفقات حاشية القصر ، ونفقات استقبالات السفراء ، ومنح الشعراء . ولدينا فى الواقع معلومات تفصيلية عن احتفالات هذه الفترة من القرن الثانى عشر الميلادى ، وما تضمنته من ولائم سخية فى القصر ومنح من الخليفة .

وحسب التقاليد المرعية ، كان السلطان يقدم احتفالين فى كل سنة ، وذلك فى الأعياد العامة . وكان يدعو اليهما كبار الموظفين والشعب . وكان يحضر الموائد التى يدعو اليها رجال القصر ، أما موائد الشعب ، فكانت تقام فى المبانى العامة . وكانت مطابخ السلطان الخاصة موجودة خارج القصر ، وكان يعمل بها دائما خمسون خادما . ويصل القصر بالمطابخ ممر تحت الأرض . وهناك خبر طريف آخر وهو : أن أربعة عشر جملا كانت تحمل الجليد كل يوم من لبنان الى مخازن الأطعمة فى قصر الخليفة . وكان لكبار الضباط والأعيان نصيب معين من هذا الجليد . وكان بعضه يعطى الى أهل المدينة عند الطلب لعلاج المرضى .

ان هؤلاء الحكام ، الذين كان لهم ولع شديد بالاستعراضات ومظاهر الأبهة ، لم يعد أحد يذكرهم برغبتهم المحمومة فى ان يسودوا العالم . ولكنهم كانوا بناة حضارة رفيعة . ونظرا لحبهم للبذخ فى شتى مظاهره ـ فى المبانى التى خلفوها لنا ، والاعمال الفنية التى احاطوا بها انفسهم ، والاقمشة الفخمة لملابسهم ورياش قصورهم ، اظهر خلفاء مصر انهم قوم ذوو طباع رقيقة وعقول نبيلة خلاقة .

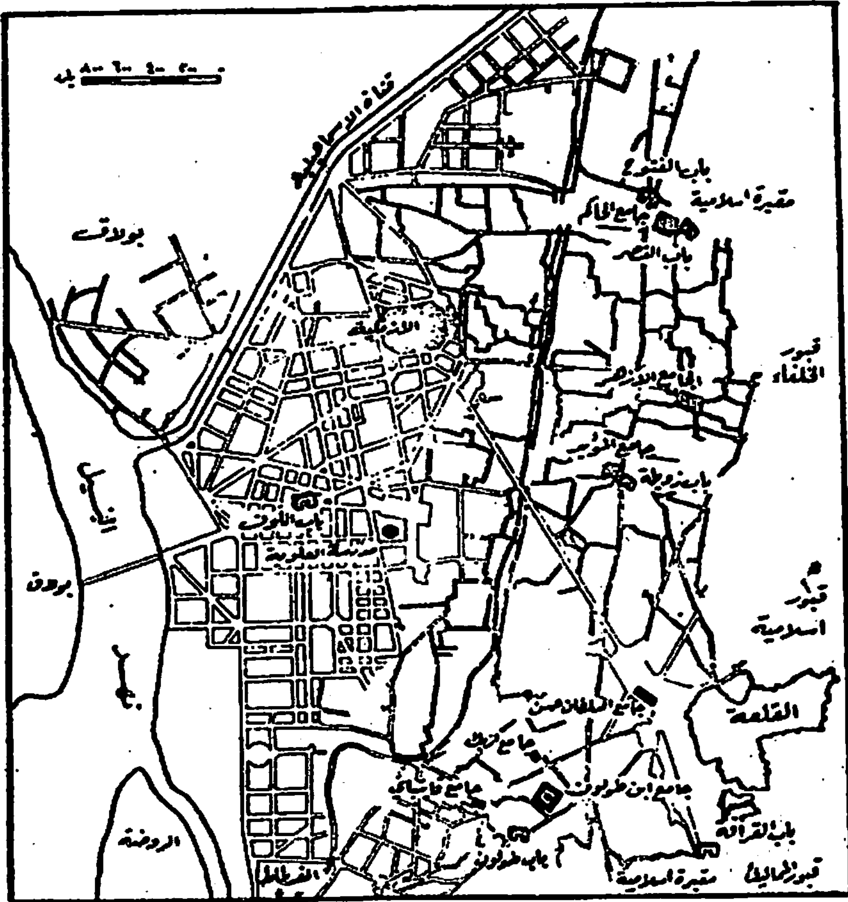
كان للقاهرة فى أول امرها سور من اللبن . وقد ظل الأمر كذلك حتى نهاية القرن الحادى عشر الميلادى ، حين اقام الوزير بدر الجمالى مكان السور الهزيل أسوارا قوية متينة من الحجر . وتقوم هذه الأسوار دليلا على استخدام فن معمارى متقن يختلف تماما عن فن بناء المساجد السابقة . والأبواب الضخمة الثلاثة التى بقيت حتى اليوم ، باب زويلة فى الجنوب وباب النصر وباب الفتوح فى الشمال ، قام ببنائها ـ ان نحن صدقنا ما يقوله الكتاب العرب ـ اخوة ثلاثة جاؤوا من شمال العراق . وهى تشبه البوابات الرومانية ، وخاصة منها باب النصر ، بمربعاتها الظاهرة من الحجر الرائع ، وبنائها ، وحلية اسفل الأفريز فيها . وكان يحد الأسوار من ناحية الغرب طريق مزدوج لدورة الحراس : اما الداخل ، فكان مسقوفا ومزودا بفتحات جانبية واسعة ليقوم الحراس بالمراقبة ورمى السهام منها . وفى هذه الأسوار هناك عقود نصف دائرية ومعقودة ومصلبة واقبية ذات دعائم . واما الفتحات التى فى اعلاها ، فهى تنتهى بقطعة حجرية منحوتة نحتا جميلا على شكل مخروط ناقص . وفى الطابق الأول الذى يعلو قسمى الباب ، توجد غرفة لرماة السهام مزودة بفتحات .

ولقد اعجب كثيرا رحالة القرون الماضية بهذه الاعمال العظيمة . وقد وصف احدهم باب الفتوح بقوله انه :

لم يسبق له ان رأى شيئا بهذا الجمال وبهذا القدم وبهذا الكمال . ويزين الباب اساسا برجان ، ليسا تامى الاستدارة ، وانما هما اقرب الى الشكل البيضاوى . وقد بلغ اتقان الصناعة فيهما الى درجة انهما يبدوان وكأنهما مصنوعان من قطعة واحدة من الحجر .

ولكن اصوات هذه الأسوار ظلت صامتة ، فلم يعلن احد قط ممن وقفوا يراقبون خلف الفتحات اقتراب العدو ، ولم تستخدم قط بواباتها الانزلاقية ، ولا صب الزيت المغلى والرصاص المصهور على رؤوس المهاجمين ، ولا أرهبت الأسوار الفقراء الذين بنوا اكواخهم منذ زمن مبكر على جانب الأسوار .

ولم يبق من المدينة الفاطمية بأسرها سوى بقايا الطريق الرئيسى الذى يمتد من الشمال الى الجنوب ، وعدد من الأزقة ، ومعالم رائعة مثل الجامع الأزهر والمسجد الأقمر ومسجد الخليفة الحاكم .




القاهرة : التوابع والأبنية الرئيسية

ويعتبر الجامع الأزهر اروع امجاد الدولة الفاطمية ، وقد ظل ( الى زمن قريب ) فى شبه عزلة عن العالم ، موليا ظهره نحو حقائق الحياة اليومية . وهو اشبه بخلية نحل من العمل والورع معا . وحيث انه قد تم توسيع البناء بمرور الزمن ، فقد اصبح بمثابة متحف للعمارة والزخرفة الاسلامية . وهو يضم عددا ضخما من العقود والاعمدة من شتى الاساليب المتباينة . وما كان باستطاعة مؤسسه ان يتوقع الاضافات الضخمة التى افسدت الخطة الاصلية المعدة له واخلت بوحدة الاسلوب . ولهذا اصبح البناء معقدا ، ويجب اخذه على هذا الأساس . وقد قدر له ان يكون مدرسة

دينية ومعهدا عظيما . وهو نتيجة لجهود مجتمعة لعدد من الأجيال من الأمراء الذين سعوا الى توسيعه واثرائه معا .

والجامع الأزهر ، فى الأصل ، من نوع المسجد التقليدى ذى الأروقة . واهم تعديل أدخل على البناء مستورد من شمال افريقية ، وهو زيادة عرض الصحن الرئيسى للمسجد ، بحيث اصبح اشبه بطريق لاحتفال رسمى . وقد اعتقد بعض الدارسين ان هذا الطراز مشتق من خطة المعبد لشعب بدوى ؛ ولكن هناك تفسيرا افضل . ذلك ان التصميم يتفق وعقيدة بسيطة وعبادة خالية من التعقيد . وتواجهنا هذه النقطة بصورة اوضح فى مصر ، حيث كانت المعابد القديمة فيما مضى تشتمل على قدس الأقداس فى مكان معتم غامض ، لا يسمح لأحد ، الا الملوك والخاصة من رجال الدين ، ان يدخلوه أو أن يتأملوا فى جلال الاله فيه . وان بعض العقود التى تتكون فى الغابات الغربية الرائعة تذكرنا بالافنية الهائلة فى الكاتدرائية : وبالطريقة نفسها ، نلحظ رابطة شبه بين الانطباع العام لمسجد ملىء بالاعمدة وغوطة من النخيل ، التى احيانا ما تكون متسقة التنظيم الى حد بعيد . ومثل المسجد ، فان غوطة النخيل « غابة خالية من الغموض ، كما ان صرامة سيقان النخيل الجامدة تنتشر فى الرحب ، دون أن تخفى معالمه » . وهناك وجه آخر يطالعنا للمقارنة بين الكنيسة والمسجد . فالكنيسة تصعد للسماء ببنائها وابراجها وابراج اجراسها . ولقد رأى ميشلية ان الدعامات الطائرة اشبه بعصى تساعد الكنيسة فى صعودها . والمسجد ينتشر ثابتا على الأرض ، مثل رمز للسكينة والايمان والشجاعة المطمئنة ، ويعوزه ذلك المشهد من الخضوع والأمل الذى تمثله الكنيسة .

واقام الفاطميون ايضا مسجدا جديدا ، بمثابة تحية وتذكار ، فوق القبور الحقيقية او المزعومة لكبار العلويين الذين يستحقون تكريما خاصا . وقد آثروا اظهار اجلالهم للعقيدة التى ضحى لها شهداء العلويين . وهكذا انتشر تقديس الأولياء بسرعة فائقة . ولم يقتصر الأمر على ائمة اهل الورع من عصور الاسلام الذهبية ، بل شمل ايضا انبياء العهد القديم . ولدينا من العصر التالى مباشرة كتب لارشاد الحجاج تحتوى على قوائم دقيقة باسماء الأولياء الصالحين . واحضر الى القاهرة راس الحسين بن على ، شهيد كربلاء ، وكذلك راس زين العابدين . ويورد

ابن جبير [١] سجلا بالاضرحة التى كانت تزار فى زمانه . وبالرغم من ازدهار المذهب السنى ، فقد ظلت الاضرحة الشيعية هدفا للتقديس الشعبى . وهكذا ، فمدينة القاهرة مدينة باكثر اوليائها لحكومة شيعية .

ورغم اننا نعجب بحضارة الفاطميين ، فلا ينبغى ان تخدعنا المبانى والأعمال الفنية التى لقيت منهم رعاية مؤكدة . وانه للزام علينا ان نقوم بدراسة للحياة الأدبية والعلمية ، وان نقدم وصفا حضاريا مركزا للعالم الاسلامى . ففى الشق الشرقى من الدولة الاسلامية ، فى ظل الدولة السامانية ، ازدهرت حلقة من الكتاب ، منهم الرودكى والبلعمى المؤرخ ، الذين يضفون بريقا على اللغة الفارسية لأول مرة . وبسطت دولة بنى حمدان بحلب حمايتها على الفارابى الفيلسوف والمتنبى الشاعر ومنافسة ابى فراس . وفى فارس ، كتب الهمذانى والحريرى مقاماتهما الشهيرة ، وهى اقاصيص مليئة بالنوادر الشعبية الطريفة ، بينما ارتفع فى سورية صوت الشاعر الضرير ابى العلاء المعرى بالتشاؤم واليأس . ولا ينبغى ان ننسى انه ساد فى القرن الحادى عشر عمالقة الادب من أمثال الفردوسى ، مبدع الملحمة الفارسية ، وابن سيناء ، والبيرونى ، وهم اكبر علماء عصرهم ، ولقد اختفت الدولة الفاطمية فى سنة ١١٧١ م دون ان تقدم مساهمة ذات قيمة فى مجالى الأدب والعلم . فلم تنتج منافسا للغزالى وعمر الخيام فى الشرق ، أو لابن زهر وابن رشد فى المغرب والاندلس فى الغرب .

وفى القرون السابقة ، كان خيرة علماء اللغة العربية فى العراق قد استطاعوا ان يجمعوا تراث حكمة الاقدمين عن طريق ترجمة كتبهم المناسبة . وفى الوقت الذى استولى فيه الفاطميون على حكم مصر ، كانت الجهود الكبرى للمترجمين قد انتهت ، واكتمل قاموس المصطلحات العلمية . ولهذا ، اتجه اهتمامهم الى ان يجعلوا من عاصمة مصر ، التى اصبحت منافسا سياسيا لبغداد وقرطبة ، مركزا حضاريا يفوق فى ظنهم العواصم السابقة . ولننظر الآن كيف نفذوا خطتهم .

فاين كلس ـ وهو يهودى اعتنق الاسلام واظهر تفاخره به و اسس حلقة للدراسات الدينية العليا فى الجامع الأزهر سنة ٩٨٨ م. وما لبث ان عين للتدريس فيه خمسة وثلاثون استاذا للشريعة .

---

( ١ ) رحلة ابن جبير : ٢١ ـ ٢٥ ( ط بيروت ) .

واتخذ الأزهر من معاهد العراق مثالا يحتذيه ، ما عدا فى العقيدة التى ظلت شيعية ؛ واصبح جامعة تدرس فيها ، بالاضافة الى العلوم الاسلامية المحضة ، الدراسات المتوارثة عن العالم القديم مثل الرياضيات والفلك والمساحة والعلوم الطبيعية والأحياء والطب والنحو والشعر والفنون وفروع الفلسفة المختلفة .

واصبح البحث العلمى ممكنا بفضل مكتبة اقامها الخلفاء فى القصر الكبير . وكانت هذه المكتبة تتكون من اربعين غرفة مشتملة على عدد هائل من الكتب فى شتى فروع المعرفة . وكانت اكبر مكتبة فى العالم الاسلامى ، ويمكن اعتبارها احدى عجائب الدنيا . واشتملت المكتبة على عدد كبير من الخزائن ، صفت حول كل غرفة ، ويفصل بينها حواجز ، وفى كل منها باب متين يقفل باقفال ومزالق . وكانت تضم مائة الف جزء مجلد أو مخيط فى الشريعة حسب المذاهب المختلفة ، ومجموعات فى الحديث ، ودراسات فى النحو والفلك والكيمياء ؛ بالاضافة الى الحوليات ، وسير عدد كبير من الأمراء . وكانت هنك عدة نسخ من كل كتاب . وكانت ملصقة بباب كل خزانة ورقة مسجل عليها اسماء المخطوطات الموجودة بداخلها .

وحفظت نسخ من القرآن فى غرفة خاصة ، وكانت تنسخ باليد بواسطة النساخ المشهورين . وكانت المجموعة تتكون من ٢٤٠٠ نسخة فى غاية الجمال ، محلاة بالذهب والفضة وزخارف اخرى .

وقد اختفت هذه المجموعة الثمينة بطريقة تبعث على الأسى . اذ بيعت المخطوطات الجميلة حتى يمكن دفع رواتب الجند ، وما تبقى بعد ذلك من كتب عند سقوط الدولة بيع بالمزاد العلنى وتبعثر .

الى جانب هذا العمل العلمى المحض ، عقد الفاطميون حلقة للدراسات الدينية فى احدى حجرات القصر . فكان المذهب الشعبى هو موضوع الدرس ، كما نعتقد ان حضور هذه الدراسات كان اجباريا لجماعات معينة من الأفراد . وكذلك عقدت حلقات خاصة للنساء .

ويورد لنا مؤرخ عربى [١] معلومات تفصيلية فى هذا المجال اذ يقول : وفى يوم السبت هذا ـ يعنى العاشر من جمادى الآخرة سنة خمس وتسعين وثلثمائة ( الموافق ٢٤ آذار ( مارس ) سنة ١٠٠٥ ) ، فتحت

( ١ ) الخطط ١ ) ٤٥٨ .

الدار الملقبة بدار الحكمة بالقاهرة . وجلس فيها الفقهاء ، وحملت الكتب اليها من خزائن القصور . ودخل الناس اليها ، ونسخ كل من التمس نسخ شيء مما فيها ما التمسه ؛ وكذلك من رأى قراءة شيء مما فيها . وجلس فيها القراء والمنجمون واصحاب النحو واللغة والأطباء ، بعد ان فرشت هذه الدار وزخرفت وعلقت على جميع ابوابها وممراتها الستور ، واقيم قوام وخدام وفراشون وغيرهم وسموا بخدمتها . وحصل في هذه الدار من خزائن امير المؤمنين الحاكم بامر الله من الكتب التى امر بحملها اليها من سائر العلوم والآداب والخطوط المنسوبة مالم ير مثله مجتمعا لأحد قط من الملوك . واباح ذلك كله لسائر الناس على طبقاتهم ، ممن يؤثر قراءة الكتب والنظر فيها .. وحضرها الناس على طبقاتهم ، فمنهم من يحضر لقراءة الكتب ، ومنهم من يحضر للنسخ ، ومنهم من يحضر للتعلم . وجعل فيها ما يحتاج الناس اليه من الحبر والاقلام والورق والمحابر . وفي سنة ثلاث واربعمائة ( الموافقة ١٠١٣ ميلادية ) ، احضر جماعة من دار العلم من اهل الحساب والمنطق ، وجماعة من الفقهاء ، وجماعة من الأطباء ، الى حضرة الحاكم بامر الله . وكانت كل طائفة تحضر على انفراد للمناظرة بين يديه . ثم خلع على الجميع ووصلهم .

وكما سبق ان راينا لم يظهر بين الشعراء أو الكتاب شخصية كبرى ذات مكانة ادبية عالية . ولا ينبغي أن ننخدع بـ « الأدباء والعلماء والشعراء العديدين الذين كان يرعاهم الخليفة » ، ممن يتحدث عنهم ناصر خسرو .

وقد لقيت العلوم رعاية خاصة ، لأن كثيرا من العلماء الممتازين يمثلون مصر في تلك النهضة العلمية التى شارك فيها - في منافسة حادة - جميع عواصم العالم الاسلامي .

فابن يونس واحد من أعظم الفلكيين الذين كتبوا باللغة العربية . وكان المرصد الواقع على التل المشرف على مدينة القاهرة هو المكان الذى قام فيه بابحاثه ، التى سجل نتائجها في « الجداول الحاكمية » ، وقد اهداها للخليفة الحاكم وهو أول من اكتشف نظرية في حساب المثلثات الكروية ، كانت ذات نفع كبير للفلكيين قبل اكتشاف علم اللوجاريثمات . ذلك ان نظريته تستخدم الجمع بدلا من عملية الضرب المعقدة لوظائف حساب المثلثات التى تحسب بكسر الستين . واظهر مقدرة بالغة في حل عدد من

المشكلات في الفلك الكوني باستخدام البروز القائم الزوايا الواقع عند الأفق من القبة السماوية وعند خطوط الطول .

وكذلك ابن الهيثم ، الذى عرف في أوروبة في العصور الوسطى باسم Alhazen ، والذى عاش في الفترة ذاتها ، كان عالما من الطبقة الأولى في تاريخ العلم . ولا يعدل وفرة انتاجه سوى تعدد مجالات معرفته ، فقد كتب في الموازين . وتكوين العالم ، وبعد المجرة ، وقوس قزح ، وتحديد القبلة ، والف في الموسيقى ، والمرايا المحدبة والمقعرة ، وضوء الشمس ، والمربعات السحرية . وكان قد استقدم من العراق الى مصر لحل مشكلة علمية ، ولكنه اخفق في حلها ، وهي تتعلق باستخدام مياه النيل لأغراض الرى دون التأثر بمنسوب الماء . وفي الواقع ، كان من الضرورى ، من اجل تحقيق ذلك . ان يقوم بالتطبيق العلمي للعلم في مصر ، وان يقوم بدراسات حول الآلات الرافعة . ولكن اكثر اعمال ابن الهيثم اصالة هي « رسالة في البصريات » ، التي ملأت بظهورها ثغرة في العلم عند العرب . وكانت هناك ترجمة لكتاب اقليدس عن البصريات ، الذى قام بشرحه الفيلسوف الكندى . وما من شك انه كان لرسالة ابن الهيثم في « البصريات » تأثير حاسم على علماء الطبيعة من الأوروبيين . ففى هذا الكتاب نجد لأول مرة وصفا لآلة التصوير eamera obscura .

أما عمار بن علي ، فهو اكثر اطباء العيون اصالة بين العرب ، وقد استقر في مصر بعد ان تنقل طويلا في الشرق . وقد اهدى الى الحاكم كتابه في امراض العيون . ورغم انه لم يخترع طريقة الازالة في عمليات ماء العين cataract . الا انه وصل بطريقة الامتصاص حد الكمال ، وقد استخدم فيها ابرة مجوفة . ولكن هذه الطريقة اعتبرت خطرة وضعيفة المفعول .

وقد خلف لنا ابن رضوان ـ طبيب الخليفة الحاكم ـ كتابا غريبا عن علم المناخ . وهو معروف بصفة خاصة بسبب اختلافه مع زميله المسيحى ابن بطلان من شمال سورية [1] . ويدور الخلاف بينهما حول درجة حرارة

---

(١) خمس رسائل لابن بطلان البغدادى وابن رضوان المصرى ( جامعة القاهرة . ١٩٣٧ ) : الرسالة الأولى في إن الفرخ احر من الفروج ، ونقدها : ٣٤ وما بعدها الرسالة الثانية في ان المتعلم من افواه الرجال افضل واسهل من المتعلم من الصحف إذا ما كان قبولهما واحدا ، وهى لابن بطلان : ٥٠ وما بعدها .

الفرخ والفروج وايهما احر . ولكن الجدل ازداد جدية حين بدأ العالمان فى استخدام التهكم ، بدافع الاعتزاز بمكانتهما ـ كما يحدث غالبا فى مثل هذه الحالات . فأكد ابن بطلان ضرورة تلقى العلم على استاذ فى اعداد الأطباء ، فى حين رأى ابن رضوان العصامى انه يمكن اكتساب المعرفة اللازمة كلها من الكتب . وقد حافظ كل منهما على فكرة التقدم العلمى التى حدد معالمها فى القرن السابق الفيلسوف والطبيب الرازى . وان هذين العالمين اللذين يمثلان الاتجاه للاخذ بالمناقشات الحرة فى العالم العربى يستحقان منا كل تشريف : اذ سرعان ما قيدت المدرسة ـ وهى المدرسة الدينية والوحيدة ـ الفكر الاسلامى بمستوى اقل من ذلك بكثير . تلك كانت فى الشرق الادنى اخر طفرة فى الدراسات الفلسفية والعلمية بصفة اخص ، وفى رصد الظواهر الطبيعية والحركات الأرضية ، تحت تاثير الفكر الشيعى .

* * *

اضرت سنوات القحط السبع من حكم المستنصر بالفسطاط اكثر من القاهرة . فقدت المدينة الأولى سكانها ، وسرعان ما اصاب الخراب بيوتها . وما من شك ان القاهرة قد اصيبت ايضا وهجر بعض احيائها . واصبحت الفسطاط خرابا مهجورا تتداعى وراء جدرانها . وكم من رجل مات بغير وريث . ولذلك امر الوزير بدر الجمالى ، ذو السطوة والسلطان حينذاك ، بأن يقوم القادرون بالبناء فى القاهرة أو فى جنوبها مباشرة ، والزم هؤلاء بان يستخدموا حجارة ومواد اخذت من بقايا الفسطاط . وقد نفذت هذه النصيحة او بالأحرى هذا الأمر ، واستخدام كثيرون تلك المواد لبناء بيوتهم فى القاهرة .

وبعد ذلك ، فى عهد الخليفة الآمر بالله ، اقيمت مبان كثيرة بين القاهرة والفسطاط . فكان موظفو الحكومة يعودون الى منازلهم من العمل فى القاهرة الى مصر القديمة خلال شوارع مكتظة تضيئها المصابيح . وقد جدد الوزير المامون الأمر بمنع الملاك فى هذه المنطقة من البناء . او بيع اراضيهم لأفراد يلزمون بالبناء ، الا اذا استخدموا هذه المواد المتخلفة من المبانى القديمة . وكانت الدولة ، فى حالة عصيان الأمر ، تصادر الأرض من ملاكها . وقد أدى ذلك الى بعث نوع من الرخاء فى المنطقة الواقعة بين باب زويلة وضريح السيدة نفيسة .

وبالاضافة الى ذلك ، فقد ادت اعادة تكوين فرق الجيش التى قام بها بدر الجمالى الى ازمة فى الاسكان . ولم تمكن اقامة الوحدات الجديدة داخل حدود المدينة ذاتها . فبنيت لهم منازل خارج الأسوار تجاه الجنوب ، واقيمت لهم اسواق تفى بحاجاتهم اليومية . ووجد فى هذه الاسواق تجار الأقمشة والعقاقير والقصابون . وكان ذلك شيئا جديدا . لأن ناصر خسرو كتب قبل ذلك بعدة سنين (١) « بين القاهرة والفسطاط تغطى المياه الوادى بأجمعه .. عدا حديقة السلطان لانها على مرتفع » . وكانت بركة الفيل لا تزال موجودة شرقى الترعة التى كانت تصب فيها عند فيضان النيل .

واصبحت هذه المنطقة باسرها عندئذ حيا واحدا كبيرا انتشروا وراء حدود المدينتين . ويقول ابن رضوان (٢) :

والمدينة الكبرى اليوم بارض مصر ذات اربعة اجزاء : الفسطاط والقاهرة والجيزة ( الروضة ) والجيزة .... والجبل المقطم فى شرقيها وبين مقابر المدينة .. واعظم اجزائها هو الفسطاط ، ويلى الفسطاط من الغرب النيل . وعلى شط النيل الغربى اشجار طوال وقصار .. وازقة الفسطاط وشوارعها ضيقة وابنيتها عالية .

وينبغى ان ناخذ فى اعتبارنا جغرافية المكان عند وصف الفسطاط والقاهرة ، التى كان قد تم تشييدها حين كتب ابن حوقل ما ياتى (٢) :

والفسطاط مدينة حسنة ، ينقسم النيل لديها قسمين ، فيعدى من الفسطاط الى عدوة اولى ، فيها ابنية حسنة ومساكن جليلة تعرف بالجزيرة ( وكانت تسمى الروضة ) ، ويعبر اليها بجسر فيه نحو ثلاثين سفينة . ويعبر من هذه الجزيرة على جسر آخر الى القسم الثانى كالجسر الأول الى ابنية جليلة ومساكن على الشط الثالث تعرف بالجيزة . والفسطاط مدينة كبيرة نحو ثلث بغداد ، ومقدارها فرسخ ، على غاية العمارة والخصب

---

( ١ ) سفرنامه : ٥١ .

( ٢ ) راجع نص ابن رضوان فى الخطط ١ : ٣٢٩ .

( ٣ ) صورة الأرض لابن حوقل : ١٣٧ ( ط بيروت )

والطيبة واللذة . ذات رحاب في محالها واسواق ومتاجر فخام وممالك جسام ، الى ظاهر انيق وهواء رقيق وبساتين نضرة ومتنزهات على مر الايام خضرة .

وبالفسطاط قبائل وخطط للعرب تنسب اليها محالهم كالكوفة والبصرة ، الا انها اقل من ذلك في وقتنا هذا وقد باد اكثرها بظاهر المعافر . وهي سبخة الأرض غير نقية التربة . والدار تكون بها طبقات سبع وست وخمس طبقات . وربما سكن في الدار المائتان من الناس .. ومعظم بنيانهم من الطوب واكثر سفل دورهم غير مسكون ..

وكان خارج مصر ( الفسطاط ) ابنية بناها احمد ابن طولون مساحتها ميل في مثله ، يسكنها جنده تعرف بالقطائع .. وقد خرجت في وقتنا هذا ..

وقد استحدث المغاربة بظاهر مصر مدينة سمتها القاهرة . استحدثها جوهر صاحب أهل المغرب عند دخوله الى مصر لجيشه وشمله وحاشيته . وقد ضمت من المحال والاسواق وحوت من اسباب القنية والارتفاق بالحمامات والفنادق الى قصور مشيدة ونعم عتيدة . وقد احدق بها سور منيع رفيع يزيد على ثلاثة اضعاف مابني بها ، وهي خالية كانها تركت مجالا للسائمة عند حصول خوف . وبها ديوان مصر ومسجد جامع حسن نظيف غزير القوام والمؤذنين .

أما عند المقدسي [١] ، في نهاية القرن العاشر الميلادي ، فالفسطاط هو مصر ، قد اتسع بقعته ، وكثر ناسه ، وتنصر اقليمه ، واشتهر اسمه وجل قدره ، فهو مصر مصر وناسخ بغداد .. حسن الأسواق والمعايش الى حماماته المنتهي .. أهل من نيسابور ، واجل من البصرة ، واكبر من دمشق . به اطعمة لطيفة ، وادامات نظيفة ، وحلاوات رخيصة . والفسطاط مدينة على النيل ممتدة ، ويقطع اليه مراكب الجزيرة والروم ، تجارته عجيبة معايشه مفيدة واموال كثيرة ... قامت به مناظر اللهو والتسلية .

وللطبيب ابن رضوان [٢] نقد لاذع فيما يتعلق بالحالة الصحية في المدينة . منه قوله :

---

( ١ ) احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم للمقدسي : ١٩٧ ( ط ليدن ) .
( ٢ ) راجع نص ابن رضوان في الخطط ١ : ٣٣٩ - ٣٤٠ .

ومن شان اهل الفسطاط ان يرموا ما يموت فى دورهم من السنانير والكلاب ونحوها من الحيوان الذى يخالط الناس فى شوارعهم وازقتهم ، فتعفن وتخالط عفونتها الهواء . ومن شانهم ايضا أن يرموا فى النيل الذى يشربون منه فضول صوانالتهم وجيفها ، وخرارات كنفهم تصب فيه . وربما انقطع جرى الماء فيشربون هذه العفونة باختلاطها بالماء . وفى خلال الفسطاط مستوقدات عظيمة يصعد منها فى الهواء دخان مفرط . وهو ايضا كثير الغبار لسخانة ارضها ، حتى انك ترى الهواء فى ايام الصيف كدرا ياخذ بالنفس ، ويتسخ الثوب النظيف فى اليوم الواحد . واذا مر الانسان فى حاجة لم يرجع الا وقد اجتمع فى وجهه ولحيته غبار كثير . ويعلوها فى العشيات خاصة فى ايام الصيف بخار كدر اسود واغبر ، سيما اذا كان الهواء سليما من الرياح .. الا ان الف اهل الفسطاط لهذه الحال ، وانسهم بها يعوق عنهم اكثر شرها .

ولعل من الحكمة ان نوازن بين هذه الملاحظة الفنية المضطربة وبين هذه النظرة الحماسية للرحالة الفارسى المعاصر ناصر خسر الذى سبق لنا ان درسنا اقواله [١] :

وتبدو مصر كانها جبل ، حين ينظر اليها من بعيد . وبمصر بيوت مكونة من اربع عشرة طبقة ، وبيوت من سبع طبقات .. وسمعت من تاجر ثقة ان بمصر دورا كثيرة فيها حجرات للاستغلال اى للايجار . وهناك اسواق وشوارع تضاء فيها القناديل دائما ، لأن الضوء لايصل اليها .

. . . وعلى الجانب الشمالى ( لمسجد عمرو بن العاص ) سوق يسمى سوق القناديل لا يعرف سوق مثله فى اى بلد ، وفيه كل ما فى العالم من طرائف . ورايت هناك الأدوات التى تصنع من الصدف كالأوعية والأمشاط ومقابض السكاكين وغيرها . ورايت كذلك معلمين مهرة ينحتون بلورا غاية فى الجمال .. ورايت انياب الفيل ، احضرت من زنجبار .. كما احضر جلد بقر من الحبشة يشبه جلد النمر ، ويعملون منه النعال . وقد جلبوا من الحبشة طائرا اليفا كبيرا ، له نقط بيضاء وعلى راسه تاج مثل الطاووس .

ويصنعون بمصر الخزف من كل نوع ، وهو لطيف وشفاف بحيث اذا وضعت يدك عليه من الخارج ظهرت من الداخل ، وتصنع منه الكؤوس

---

( ١ ) سفرنامه : ٥٨ .

والاقداح والاطباق وغيرها ، وهم يلونونها بحيث تشبه البوقلمون فتظهر بلون مختلف فى كل جهة تكون بها ، ويصنعون بمصر قوارير كالزبرجد فى الصفاء ويبيعونها بالوزن .

ومدينة مصر ممتدة على شاطىء النيل الذى عليه القصور والمناظر الكثيرة ، اذا احتاجوا الى الماء رفعوه بالحبال من النيل . اما ماء المدينة فيحضره السقاؤون من النيل ايضا . يحمله بعضهم على الابل وبعضهم على كتفه .. وتفرغ السلع من القوارب عند ابواب البقالين . وبسبب الازدحام فى الشوارع ، يستحيل على دواب الحمل ان تنقل هذه البضائع .

وأمام مصر جزيرة ، وسط النيل ، كان عليها مدينة فى وقت ما ، والجزيرة غربى المدينة .. وهى صخرة وسط النهر ، تقسمه قسمين ، كل منهما فى اتساع جيحون ، ولكن اكثر هدوءا وبطئا فى جريانه . وثبت بين الجزيرة والمدينة جسر من ست وثلاثين سفينة . ويقع جزء من مدينة مصر على جانب النيل الآخر ، ويسمونه الجيزة ، ولكن ليس بها جسر ، ولذا يعبر الناس بالزوارق او بالمعابر .

وتجار مصر يصدقون فى كل ما يبيعون .. ويعطى التجار فى مصر ، من بقالين وعطارين وبائعى خردوات ، الأوعية اللازمة لما يبيعون ، من زجاج او خزف او ورق ، حتى لا يحتاج المشترى ان يحمل معه وعاء .

. . . ويركب اهل السوق واصحاب الدكاكين الحمر المسرجة فى ذهابهم وايابهم من البيوت الى السوق . وفى كل حى على رأس الشوارع حمر كثيرة عليها براذع مزينة ، يركبها من يريد نظير اجر زهيد . وقيل انه يوجد خمسون الف بهيمة مسرجة تزين كل يوم وتكرى . ولا يركب الخيل الا الجند والعسكر : فلا يركبها التجار او القرويون او اصحاب الحرف ، ويركبها العلماء .

. . . ورأيت اموالا يملكها بعض المصريين لو ذكرتها او وصفتها لما صدقنى الناس ، فاننى لا استطيع ان احدد اموالهم او أحصرها .

واخيرا ، يدل كتاب الادريسى الجغرافى [1] ـ الذى كتب فى منتصف القرن التالى ـ ان تاسيس القاهرة لم يؤثر فى ازدهار الفسطاط : بل لعل العكس هو الصحيح :

---

(١) المغرب وارض السودان ومصر والاندلس للادريسى ١٤٢ ـ ١٤٣ ( ط. ليدن ) .

وهى الآن مدينة كبيرة على غاية من العمارة والخصب والطيب والحسن : فسيحة الطرقات . متقنة البناءات . قائمة الأسواق . نافقة التجارات ، متصلة العمارات . نامية الزراعات . لأهلها همم سامية ، ونفوس تقية عالية ، وأموال مبسوطة نامية . وامتعة رائقة . لا تشغل نفوسهم بهم ، ولا تعقد قلوبهم على غم . لكثرة امنهم ، ورفاهة عيشهم ، وانبساط العدل والحماية فيهم .. ومصر بالجملة عامرة بالناس ، نافعة بضروب المطاعم والمشارب وحسن الملابس . وفى أهلها رفاهة وظرف شامل وحلاوة .

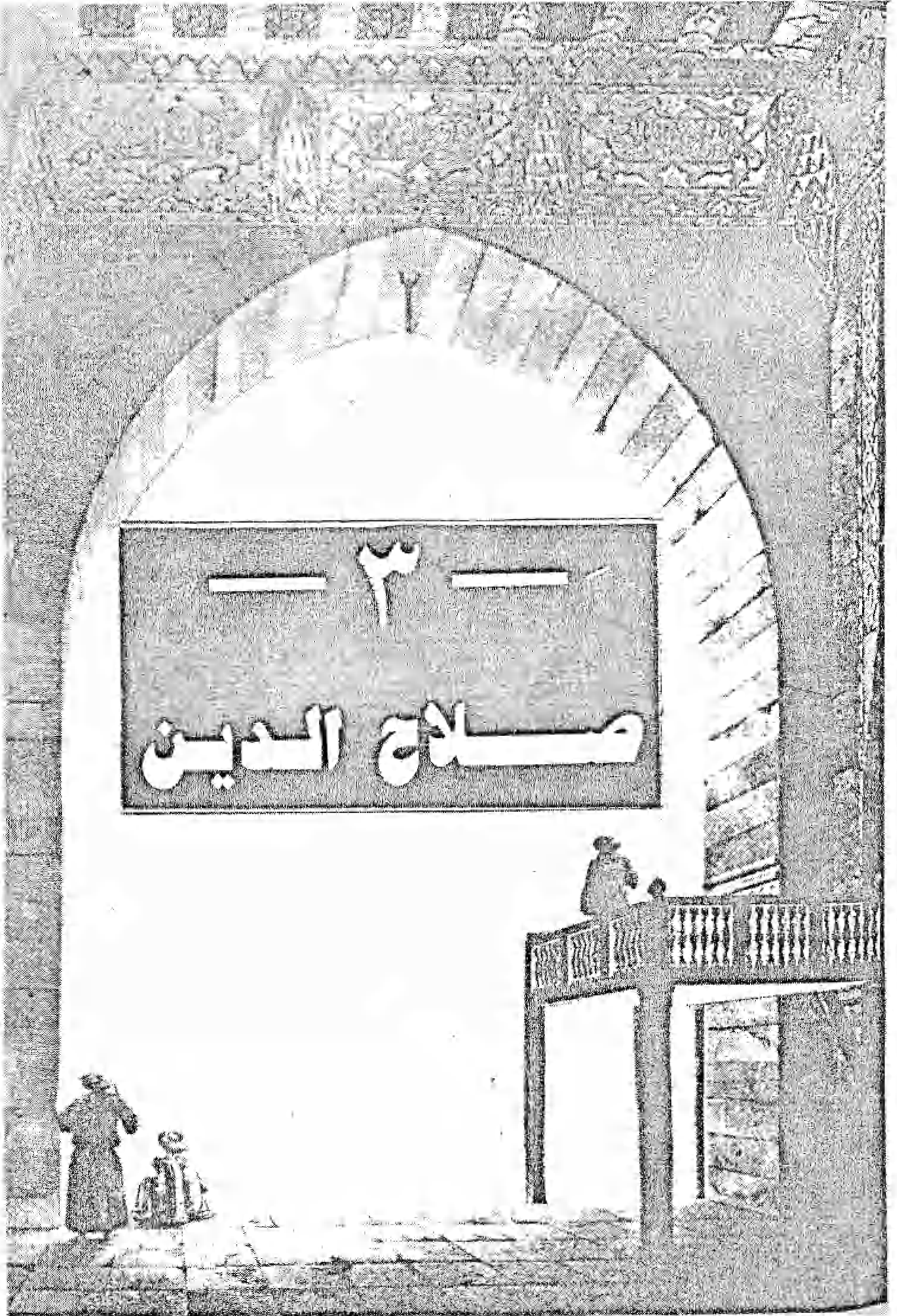
ولكن اصاب المدينة خراب شديد لبعض الوقت على يدى الوزير الفاطمى شاور فى سنة ١١٦٨ ، حين حاصرتها جيوش الفرنجة . فاراد ان يجمع قواته للدفاع عن القاهرة [١] :

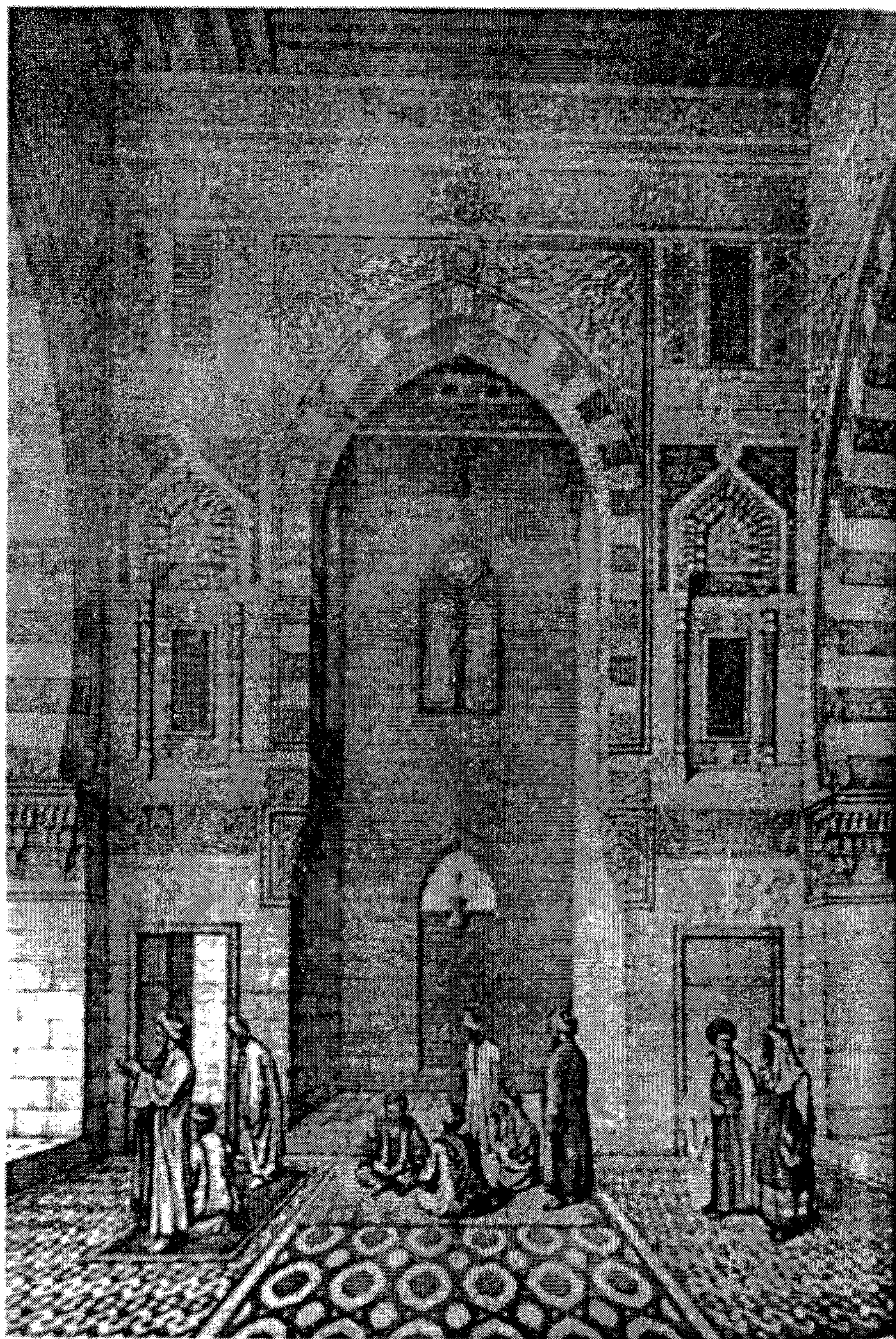
فنادى شاور بمصر أن لايقيم بها أحد ، وازعج الناس فى النقلة منها ، فتركوا اموالهم وأثقالهم ، ونجوا بانفسهم وأولادهم . وقد ماج الناس واضطربوا كانما خرجوا من قبورهم الى المحشر ، لا يعبأ والد بوالده ، ولا يلتفت اخ الى اخيه ، وبلغ كراء الدابة من مصر الى القاهرة بضعة عشر دينارا ، وكراء الجمل الى ثلاثين دينارا . ونزلوا بالقاهرة فى المساجد والحمامات والأزقة وعلى الطرقات . فصاروا مطروحين بعيالهم وأولادهم ، وقد سلبوا سائر اموالهم . وينتظرون هجوم العدو على القاهرة بالسيف .. وبعث شاور الى مصر بعشرين الف قارورة نفط وعشرة آلاف مشعل نار ، فرق ذلك فيها ، فارتفع لهب النار ودخان الحريق الى السماء ، فصار منظرا مهولا . فاستمرت النار تاتى على مساكن مصر ... لتمام اربعة وخمسين يوما ، والنهابة من العبيد ورجال الاسطول وغيرهم بهذه المنازل فى طلب الخبايا ... فمن حينئذ خربت مصر الفسطاط هذا الخراب الذى هو الآن كيمان مصر .

□ □ □

---

( ١ ) الخطط ١ : ٣٣٨ ـ ٣٣٩ .


٣
صلاح الدين



أخذ صلاح الدين يبحث عن مكان حصين لاقامته بعد أن قضى على دولة الفاطميين . ويقال أن السبب الذى دعاه الى اختيار مكان القلعة ، انه علق اللحم بالقاهرة فتغير بعد يوم وليلة ، فعلق لحم حيوان أخر فى موضع القلعة فلم يتغير إلا بعد يومين وليلتين .

ولذلك أمر ببناء قلعة على بروز فى جبل المقطم ، يكوّن ما يشبه شبه الجزيرة . ودمرت المساجد والقبور الموجودة فى المنطقة ، كما هدمت الأهرام الصغيرة فى الجيزة ، ونعرف انها كانت كثيرة العدد . ونقل ما تخلف عنها من حجارة ، واستخدم فى بناء قلعة القاهرة ، وكان السلطان يهدف الى بناء سور واحد يضم القاهرة والفسطاط والقلعة . ولكنه توفى قبل اتمام السور والقلعة ، وابتدا العمل فى بناء القلعة سنة ١١٧٦ ، ( ٥٧٢ هـ ) ، وانتهى فى سنة ١٢٠٧ م ( ٦١٤ هـ ): أما السور ، فلم يتم ابدا . وقد خلص المقريزى الى الاعتقاد بأن السبب فى بنائها ان صلاح الدين لما أزال الدولة الفاطمية من مصر ، واستبد بالأمر ، لم يزل يخاف على نفسه من شيعة الخلفاء الفاطميين بمصر ، الذين كان يساندهم النصارى ، فاحب ان يجعل لنفسه معقلا كما فعل أصحاب العسكر والقطائع بالقاهرة ، وانه أراد أن يترك مساكن من حكموا قبله ليؤسس الدولة الجديدة فى موقع يليق بها بعيدا عن احياء السكنى ، وهذا شأن الملوك ما زالوا يطمسون آثار من قبلهم ويميتون ذكر أعدائهم . فقد هدموا بذلك السبب أكثر المدن والحصون ، وكذلك كانوا أيام العجم فى جاهلية العرب ، وهم على ذلك فى أيام الاسلام[1].

وبذلك يكون صلاح الدين قد غير فى شخصية المدينة الفاطمية ، التى كانت كحصن ، فجعلها مكانا يستطيع العامة وسائر السكان أن يبنوا بيوتهم فيه . وقلل من حجم قصر الخليفة ، فهدم منه جزءا ، وحول جزءا أخر الى مساكن خاصة .

وما زالت القلعة شاهدا على عظمة عصر صلاح الدين ، رغم ان السلطان لم يسكنها ابدا ، وهى تقدم دليلا ملموسا على شخصية فذة ، ورجل سابق لزمانه وأرقى من معاصريه ، سواء فى ذلك اخوانه فى الدين أو اعداؤه ، الذين رأوا فيه انسانا يغلب عليه الاعتدال وشعور الولاء ،

---

( ١ ) معنى الفقرة فى الخطط ٢ : ٢٠ و ١ : ٣٤٨ .

مبرا تماما من الانانية والدوافع الشخصية ـ وبعبارة مختصرة ـ رجلا فذا .

وحين بنيت القلعة فى القاهرة ، وقفت كتحد بلا فائدة أمام السكان المسالمين ، الذين لم يشقوا عصا الطاعة فى العاصمة . أما فى الريف ، فقد وقعت بعض الاضطرابات حينما تعسفت معهم سلطات الضرائب .

وعلى أى حال ، فإن بناء القلعة يعتبر بمثابة وضع حد للماضى ، بل فاصل حاد ، لأنها مثلت احتمال تغير فى العادات وقلب للبناء الاجتماعى ، فبحكم موقعها الظاهر فقط ، كانت القلعة تصدم الشعور العام على نحو مثير للنفس . فظلت مراكز الحكومة محجوبة وراء الأسوار ، محمية ضد الثورات الممكنة . وكان مبعث الخوف فى أول الامر شعب يرفض الخضوع : ولكن بعد تكوين جيوش من المرتزقة ، ظهرت الرغبة فى منعهم من الاختلاط الشديد مع الأهالى . وسوف نرى أخيرا انه فى عصر سلاطين المماليك ، اصبحت هناك حاجة الى حماية الفريق الحاكم ضد المنشقين العديدين فى اى وقت . وما أن بنيت القلعة ، حتى أخذت مدينة القاهرة فى التوسع عن طريق هدم جزء من أسوار الفاطميين ، أو كما حدث فى المنطقة الشمالية ، عن طريق بناء بيوت جديدة عليها .

كانت مدينة ابن طولون مسكنا للأمير : ويمكن اطلاق هذا التعبير ذاته على قاهرة الفاطميين ، ولم يصبح لمصر عاصمة حقيقية إلا بوصول صلاح الدين . فمجد القاهرة ـ دون التقليل من عمل الفاطميين ـ يبدأ من عصر الأيوبيين . فالرحالة الاندلسى ابن جبير يعرف المدن ، ويعرف أن بعضها لا يستحق اسم المدينة ، وقد صرح بذلك عند الحديث عن بلدة فى شمال العراق بهذه العبارة[1] : « وأما المدينة . فللبداوة بها اعتناء ، وللحضارة عنها استغناء ، لا سور يحصنها ، ولا دور أنيقة البناء تحسنها ، قد ضحيت فى صحرائها كانها عوذة لبطحائها » .

ولذلك لم يخل قوله من شىء من الاعتزاز عندما وصف موقع بناء القلعة فى ذروة نشاطها سنة ١١٨٣ م ( ٥٧٨ هـ ) بهذه الكلمات[2] :

---

( ١ ) رحلة ابن جبير : ٢١٩ ( ط بيروت ) .

( ٢ ) المصدر نفسه : ٢٥ ( ط بيروت ) . و ٥١ ( ط اوروبة ) .

وشاهدنا أيضا بنيان القلعة وهو حصن يتصل بالقاهرة حصين المنعة ، يريد السلطان أن يتخذه موضع سكناه ، ويمد سوره حتى ينتظم بالمدينتين مصر والقاهرة . والمسخرون في هذا البنيان ، والمتولون لجميع امتهاناته ومؤونته العظيمة ، كنشر الرخام ، ونحت الصخور العظام ، وحفر الخندق المحدق بسور الحصن المذكور ، وهو خندق ينقر بالمعاول نقرا في الصخر . عجبا من العجائب الباقية الآثار ، العلوج الأسارى من الروم ، وعددهم لا يحصى كثرة ، ولا سبيل أن يمتهن في ذلك البنيان أحد سواهم .

وأبدى الطبيب عبداللطيف البغدادى عجبه من مساكن الطبقة الوسطى في المدينة ، وأورد لنا بعض المعلومات القيمة بشأنها والتي يمكن أن تفسر ظاهرة أن الغرف الموجودة في طابق واحد لم تكن في مستوى واحد أبدا[1] :

وإذا أرادوا بناء ربع أو دار ملكية أو قيسارية ، استحضر المهندس وفوض اليه العمل . فيعمد الى العرصة ، وهي تل تراب أو نحوه ، فيقسمها في ذهنه ويرتبها بحسب ما يقترح عليه ، ثم يعمد الى جزء جزء من تلك العرصة ، فيعمره ويكمله بحيث ينتفع به على انفراد ويسكن . ثم يعمد الى جزء آخر ، ولا يزال كذلك حتى تكمل الجملة بكمال الأجزاء من غير خلل ولا استدراك . وأما ابنيتهم ففيها هندسة بارعة وترتيب في الغاية حتى انه قلما يتركون مكانا غفلا خاليا عن مصلحة . ودورهم فيح ، وغالب سكناهم في الأعالى ، ويجعلون منافذ منازلهم تلقاء الشمال والرياح الطيبة ، وقلما تجد منزلا إلا وفيه باذاهنج وباذاهنجاتهم كبار واسعة ، للريح عليها تسلط ، ويحكمونها غاية الاحكام .

ومنذ العصر الأيوبى ، اتبعت مدينة القاهرة قواعد محددة فيما يتعلق بنموها الناتج عن الزيادة في عدد سكانها . فمن ناحية الجنوب ، نجد أن القاهرة تتجه نحو الاتصال بالفسطاط ، التى أصبحت العاصمة الجديدة

---

( ١ ) الافادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بارض مصر لعبد اللطيف البغدادى : ٣٩ ( ط. القاهرة ) ( وانظر ايضا النص العربي والترجمة الانجليزية في كتاب

The Eastern Key, by Kamal Hafuth Zand, John A. and Ivy E. Videan, London, 1965, pp. 179 O 44 l ff and 1 O 44 r ff.

فى حاجة اليها كميناء على النيل . اما ما بين المدينتين ، فستستمر الحدائق الجميلة حتى بداية القرن الرابع عشر ، ومن ناحية الغرب ، تنمو المدينة نحو ضفاف النيل وتتعدى الخليج بحيث ان جزيرة بولاق تصبح الواجهة الجديدة على النهر وتنافس الفسطاط كميناء تجارى ، وهكذا ، سوف لا يضر نمو القاهرة بمدينة الفسطاط القديمة ، او يسبب اضمحلالها ، وانما سيغير وظيفتها .

وقد كتب ابن جبير فى ذلك الوقت يقول[1] :

وبمدينة مصر ( الفسطاط ) آثار من الخراب الذى احدثه الاحراق الحادث بها وقت الفتنة عند انتساخ دولة العبيديين ( الفاطميين ) ، وذلك سنة اربع وستين وخمس مائة ( ١٦٦٩ م) واكثرها الآن مستجد والبنيان بها متصل . وهى مدينة كبيرة .

هذا هو ما ورد فى وصف رحالة اندلسى فى طريقه الى الحج ، وسوف نستمر الآن بايراد وصف ذكره رحالة أندلسى ايضا ، هو ابن سعيد الذى يتميز وصفه بالحيوية والتعليقات اللاذعة ، فاول ما تلحظه عينه هو قذارة المدينة القديمة فيقول[2] :

ولا ينزل فيها مطر إلا فى النادر ، وترابها ينتن الأرجل ، وهو قبيح اللون ، تستكدر منه ارجاؤها ، ويسوء بسببه هواؤها ، ولها اسواق ضخمة إلا انها ضيقة ، ومبانيها بالقصب والطوب طبقة على طبقة .

واضاف ابن سعيد[3] :

لما استقررت بالقاهرة تشوقت الى معاينة الفسطاط ، فسار معى اليها احد اصحاب القربة ، فرأيت عند باب زويلة من الحمير المعدة لركوب من يسير الى الفسطاط جملة عظيمة ، لا عهد لى بمثلها فى بلد ، فركب منها

---

( ١ ) رحلة ابن جبير : ٢٩ ( ط بيروت ) ، و ٥٤ ( ط اوروبة ) .

( ٢ ) راجع رحلة ابن سعيد فى نفح الطيب للمقرى ٣ : ١٠٢ وما بعدها ( ط القاهرة ، ١٩٤٩ ) .

( ٣ ) راجع الخطط ١ : ٣٦٦ : وراجع ايضا رحلة ابن سعيد فى نفح الطيب ٣ : ١٠٣ - ١٠٦ .

حمارا ، وأشار الى أن أركب حمارا آخر ، فانفت من ذلك جريا على عادة ما خلفته فى بلاد المغرب ، فأخبرنى انه غير معيب على أعيان مصر ، وعاينت الفقهاء وأصحاب البزة والشارة الظاهرة يركبونها ، فركبت . وعندما استويت راكبا ، أشار المكارى الى الحمار ، فطار بى ، واثار من الغبار الأسود ما أعمى عينى ، ودنس ثيابى ، وعاينت ما كرهته ، ولقلة معرفتى بركوب الحمار وشدة عدوه على قانون لم اعهده ، وقلة رفق المكارى ، وقعت فى تلك الظلمة المثارة من ذلك العجاج .

فدفعت الى المكارى أجرته ، وقلت له : احسانك أن تتركنى امشى على رجلى . ومشيت الى أن بلغتها ، وقدرت الطريق بين الفسطاط والقاهرة وحققته بعد ذلك نحو ميلين ، ولما اقبلت على الفسطاط ادبرت عنى المسرة ، وتاملت أسوارا مثلمة سوداء وآفاقا مغبرة . ودخلت من بابها وهو دون غلق يفضى الى خراب معمور بمبان مشتتة الوضع ، غير مستقيمة الشوارع ، وقد بنيت من الطوب الأدكن والقصب والنخيل طبقة فوق طبقة ، وحول أبوابها من التراب الأسود والأزبال ما يقبض نفس النظيف ، ويغض طرف الظريف . فسرت وانا معاين لاستصحاب تلك الحال ، الى أن صرت فى أسواقها الضيقة ، فقاسيت من ازدحام الناس فيها لحوائج السوق والروايا التى على الجمال ما لا تفى به إلا مشاهدته ومقاساته ، الى أن انتهيت الى المسجد الجامع ، فعاينت من ضيق الأسواق التى حوله ما ذكرت به ضده فى جامع اشبيليه وجامع مراكش ، ثم دخلت اليه عاينت جامعا كبيرا قديم البناء ، غير مزخرف ، ولا محتفل فى حصره التى تدور مع بعض حيطانه ، وتنبسط فيه . وابصرت العامة رجالا ونساء قد جعلوه معبرا بأوطئة أقدامهم يجوزون فيه من باب الى باب ليقرب عليهم الطريق ، والبياعون يبيعون فيه أصناف المكسرات والكعك وما سوى ذلك ، والناس ياكلون فى عدة امكنة منه غير محتشمين لجرى العادة عندهم بذلك . وعدة صبيان بأوانى ماء يطوفون على كل من ياكل ، قد جعلوا ما يحصل لهم منه رزقا ، وفضلات مأكلهم مطروحة فى صحن الجامع ، وفى زواياه العنكبوت قد عظم نسجه فى السقف والأركان والحيطان ، والصبيان يلعبون فى صحنه ، وحيطانه مكتوبة بالفحم والحمرة بخطوط قبيحة مختلفة من كتب فقراء العامة ، إلا أن مع ذلك ، على الجامع المذكور من الرونق وحسن القبول وانبساط النفس ما لا تجده فى جامع اشبيلية ، مع زخرفته

والبستان الذى فى صحنه ؛ ولقد تأملت ما وجدت فيه من الارتياح والانس دون منظر يوجب ذلك ، فعلمت ان ذلك سر مودع من وقوف الصحابة رضي الله تعالى عنهم فى ساحته عند بنائه ، واستحسنت ما ابصرته من حلق المتصدرين لاقراء القرآن والفقه والنحو فى عدة اماكن ، وسألت عن مواد ارزاقهم ، فاخبرت انها من فروض الزكاة وما اشبه ذلك ، ثم اخبرت أن اقتضاء ذلك يصعب إلا بالجاه والتعب .

ثم انفصلنا من هناك الى ساحة النيل ، فرايت ساحلا كدر التربة ، غير نظيف ، ولا متسع الساحة ، ولا مستقيم الاستطالة ، ولا عليه سور ابيض ؛ إلا انه مع ذلك كثير العمارة بالمراكب واصناف الأرزاق التى تصل من جميع اقطار النيل ، ولئن قلت انى لم ابصر على نهر ما ابصرته على ذلك الساحل فإنى أقول حقا ، والنيل هناك ضيق ، لكون الجزيرة التى بنى فيها سلطان الديار المصرية الآن قلعته قد توسطت الماء ومالت الى جهة الفسطاط ، وبحسن سورها المبيض الشامخ حسن منظر الفرجة فى ذلك الساحل .

وقد ذكر ابن حوقل الجسر الذى يكون ممتدا من الفسطاط الى الجزيرة ، وهو غير طويل ، ومن الجانب الآخر الى البر الغربى المعروف ببر الجيزة جسر آخر من الجزيرة اليه ، واكثر جواز الناس بانفسهم ودوابهم فى المراكب ، لأن هذين الجسرين قد احترما لحصولهما فى حيز قلعة السلطان ، ولا يجوز احد على الجسر الذى بين الفسطاط والجزيرة راكبا ، احتراما لموضع السلطان .

ولم أر فى أهل البلاد الطف من أهل الفسطاط ، حتى انهم الطف من أهل القاهرة ، وبينهما نحو ميلين ؛ والحال أن أهل الفسطاط فى نهاية من اللطافة ، واللين فى الكلام ، وتحت ذلك من الملق وقلة المبالاة ورعاية قدر الصحبة وكثرة الممازجة والألفة ما يطول ذكره .

وأما ما يرد على الفسطاط من متاجر البحر الاسكندرانى والبحر الحجازى فإنه فوق ما يوصف ، وبه مجمع ذلك ، لا بالقاهرة ، ومنها يجهز الى القاهرة وسائر البلاد . وبالفسطاط مطابخ السكر والصابون ومعظم ما يجرى هذا المجرى ، لأن القاهرة بنيت للاختصاص بالجند ، كما ان جميع زى الجند بالقاهرة أعظم منه بالفسطاط ، وكذلك ما ينسج ويصاغ وسائر ما يعمل من الأشياء الرفيعة السلطانية ؛ والخراب بالفسطاط كثير .

وفى اماكن اخرى ، امتدح ابن سعيد القاهرة مدحا معتدلا ، فقال[1] :

واما مدينة القاهرة ، فهى الحالية الباهرة ، التى تفنن فيها الفاطميون وابدعوا فى بنائها ، واتخذوها قطبا لخلافتهم ، ومركزا لأرجائها ، فنسى الفسطاط ، وزهد فيه بعد الاغتباط .. هذه المدينة ( القاهرة ) اسمها أعظم منها ، وكان ينبغى أن تكون فى ترتيبها ومبانيها على خلاف ما عاينته ، لكن الهمة السلطانية ظاهرة على قصور الخلفاء بالقاهرة .. وكان يجلس فيها خلفاؤها ، ولهم على الخليج الذى بين الفسطاط والقاهرة مبان عظيمة جليلة الآثار .

والمكان المعروف بالقاهرة بين القصرين هو من الترتيب السلطانى ، لأن هناك ساحة متسعة للعسكر والمتفرجين ما بين القصرين ، ولو كانت القاهرة كلها كذلك كانت عظيمة القدر كاملة الهمة السلطانية ، ولكن ذلك امد قليل ، ثم تسير منه الى امد ضيق ، وتمر فى ممر كدر خرج بين الدكاكين ، إذا ازدحمت فيه الخيل مع الرجالة كان مما تضيق به الصدور ، وتسخر منه العيون ، ولقد عاينت يوما وزير الدولة وبين يديه الأمراء ، وهو فى موكب جليل . وقد لقى فى طريقه عجلة بقر تحمل حجارة ، وقد سدت جميع الطرق بين يدى الدكاكين ، ووقف الوزير وعظم الازدحام ، وكان فى موضع الطباخين ، والدخان فى وجه الوزير ، وعلى ثيابه ، وقد كاد يهلك المشاة ، وكدت أهلك فى جملتهم ، واكثر دروب القاهرة ضيقة مظلمة ، كثيرة التراب والأزبال ، والمبانى عليها من قصب وطين مرتفعة قد ضيقت مسلك الهواء والضوء بينها ، ولم أر فى جميع بلاد المغرب أسوأ منها حالا فى ذلك . ولقد كنت إذا مشيت فيها يضيق صدرى ، وتدركنى وحشة عظيمة ، حتى اخرج الى بين القصرين .

ومن عيوب القاهرة انها فى أرض النيل الأعظم ويموت الانسان فيها عطشا لبعدها عن مجرى النيل ، لئلا يصادرها وياكل ديارها ، وإذا احتاج الانسان الى فرجة فى نيلها مشى مسافة بعيدة بظاهرها بين المبانى التى خارج السور الى موضع يعرف بالمقس ، وجوها لا يبرح كدرا مما تثيره الأرض من التراب الأسود .

---

( ١ ) نفح الطيب ٣ : ١٠٨ ـ ١١٤ : والنص ليس متتابعا دائما .

وعندما يقبل المسافر عليها يرى سورا أسود كدرا ، وجوا مغبرا ، فتنقبض نفسه ، ويفر أنسه .

واعجبنى فى ظاهرها بركة الفيل ، لانها دائرة كالبدر ، والمناظر فوقها كالنجوم ، وعادة السلطان أن يركب فيها بالليل ، وتسرج أصحاب المناظر على قدر همتهم وقدرتهم ، فيكون لها بذلك منظر عجيب .

والفسطاط أكثر أرزاقا وارخص أسعارا من القاهرة ، لقرب النيل من الفسطاط ، والمراكب التى تصل بالخيرات تحط هناك ، ويباع ما يصل فيها بالقرب منها . وليس يتفق ذلك فى ساحل القاهرة ، لأنه يبعد عن المدينة ، والقاهرة هى اكثر عمارة واحتراما وحشمة من الفسطاط ، لانها اجل مدارس ، واضخم خانات ، واعظم ديارا لسكنى الأمراء فيها ، لأنها المخصوصة بالسلطنة ، لقرب قلعة الجبل منها ، فامور السلطنة كلها فيها ايسر واكثر .

إلا أن فى هذا الوقت لما اعتنى السلطان ببناء قلعة الجزيرة ( الروضة ) التى امام الفسطاط وصيرها سرير السلطنة ، عظمت عمارة الفسطاط ، وانتقل اليها كثير من الأمراء ، وضخمت أسواقها ، وبنى فيها السلطان امام الجسر الذى للجزيرة قيسارية عظيمة ، فنقل اليها من القاهرة سوق الاجناد التى يباع فيها الفراء والجوخ وما أشبه ذلك .

وفيها جوار طباخات اصل تعليمهن من قصور الخلفاء الفاطميين ، ولهن فى الطبخ صنائع عجيبة ، ورياسة متقدمة ، ومطابخ السكر والمواضع التى يصنع بها الورق المنصورى مخصوصة بالفسطاط دون القاهرة .. ويصنع فيها من الانطاع المستحسنة ما يسفر الى الشام وغيرها ، وفيها صناع للقسى كثيرون متقدمون . ويسفر من القاهرة الى الشام ما يكون من انواع الكمرانات وخرائط الجلد والسيور وما اشبه ذلك . وهى الآن عظيمة أهلة ، ويجبى اليها من الشرق والغرب والجنوب والشمال ما لا يحيط بجملته وتفسيره إلا خالق الكل جل وعلا .

والفقير المجرد فيها يستريح بجهة رخص الخبز وكثرته ، ووجود السماع والفرج فى ظواهرها ودواخلها ، وقلة الاعتراض عليه فيما تذهب اليه نفسه ، يحكم فيها كيف شاء من رقص فى وسط السوق أو تجريد أو سكر من حشيشة وما أشبه ذلك . وسائر الفقراء لا يتعرضون اليهم

بالقبض للأسطول إلا المغاربة ، فذلك وقف عليهم لمعرفتهم بمعاناة الحرب والبحر .

وقد دخلت في الخليج الذى بين القاهرة ومصر وتعظم عمارته فيما يلى القاهرة ، فرأيت فيه من ذلك العجائب ، وربما وقع فيه قتل بسبب السكر فيمنع فيه الشرب ، وذلك في بعض الأحيان ، وهو ضيق ، عليه من الجهتين مناظر كثيرة العمارة بعالم التهكم والطرب والمخالفة ، حتى ان المحتشمين والرؤساء لا يجيزون العبور به في مركب ، وللسرج في جانبيه بالليل منظر ، وكثيرا ما يتفرج فيه أهل الستر في الليل .

* * *

أدى رد الفعل السنى الذى قام به صلاح الدين الى ايجاد معهد دينى جديد ، وهو المدرسة . وليس هناك من نص يشعرنا بمدى هذا الاصلاح خيرا من واحد من اقدم النقوش الأيوبية في القاهرة[1] :

بنيت هذه المدرسة باستدعاء الشيخ الفقيه الامام الزاهد نجم الدين ركن الاسلام ، قدوة الأنام ، مفتى الفرق ، ابو البركات ابن الموفق الخبوشانى ، ادام الله توفيقه لفقهاء أصحاب الشافعى رضوان الله عليه ، الموصوفين بالأصولية الموحدة الأشعرية على الحشوية وغيرهم من المبتدعة وذلك في شهر رمضان سنة خمس وسبعين وخمس مائة .

وقد الصقت بالعقائد الدينية للنظام السابق الفاطمى اقسى النعوت ، فاعتبرت بدعا ، وكل بدعة في الاسلام ضلالة ، ويظهر النقش اهمية واحد من ائمة المذاهب السنية الأربعة ، وهو الامام الشافعى الذى لا يزال مذهبه شائعا في مصر ، ولم يدخر صلاح الدين جهدا في بناء ضريح للشافعى ؛ وما زلنا اليوم نعجب بروعة الشاهد الخشبى الذى بناه . ويرى ابن جبير[2] في ضريح الشافعى انه « من المشاهد العظيمة احتفالا

---

(١) Chronologique d'Epiraphie Arabe. par Combe & J. Sauvaget & G. Wiet. Repertoire Tome Neuvieme N. 3339 Le Imprimerie de L'Institat Feancais Archeologre Orientale, 1937.

(٢) رحلة ابن جبير : ٢٢ ( ط بيروت ) .

واتساعا ، وبنى بازائه مدرسة لم يعمر بهذه البلاد مثلها . لا أوسع مسلحة ولا أحفل بناء ، يخيل لمن يطوف عليها انها بلد مستقل بذاته ».

اما الأشعرى - أخر شخصية مذكورة فى النقش - فهو العالم العراقى الكبير الذى أسس مذهبا عقائديا فى الاسلام ، وكانت المدرسة احدى وسائل الحركة التى ابتداها . وقد استخدم الأشعرى المنطق الأرسطى فى صياغة العقيدة فى الاسلام ، ولكن يجب أن نتنبه الى أن موقفه - كما هو الحال بالنسبة لموقف السنة فى الاسلام من بعده - يمكن اجماله فى هذه الكلمات : « الله ينبه عقل الانسان ليدركه ، ولكن العقل أداة للادراك فقط لا للحكم على الله »[1]. واتبع أهل الورع الأشعرى ، وعجلت اعماله باضمحلال الحياة الفكرية فى الاسلام . فإن تزمته الدينى لابد وان يكبل الفكر ، كما فرضت افكاره كتعاليم لا تقبل المناقشة .

لعل قيام المدرسة الدينية كان أمرا ضروريا بالنسبة لمستقبل الاسلام ، فى وقت تهددت عقيدته الانقسامات والهرطقة ، وتهددت ممتلكاته هجمات الصليبيين ، وقد نتج عنها على اى حال ضعف سريع فى نوعية التعليم ، وصلاح الدين هو الذى أخذ المدرسة الى مصر : ونظرا لسيطرة الدولة على نظام التعليم فيها ، توقفت الانقسامات الدينية والفلسفية ، كما توقف تمجيد تراث القدماء الذى شجع عليه الفاطميون ، واستطاعت البرامج الجديدة المستمدة من الفكر السنى أن تثبت السنة نهائيا . ولكن رجال هذه المدارس لم يكونوا فى ورع رجال صدر الاسلام الذين علموا الدين بدافع من التقوى وشرف العمل . فنحن نجد الآن موظفين يقدمون دروسا مألوفة لتلاميذهم بدورهم حريصون على الحصول على الشهادة حتى يمكنهم أن يعملوا فى خدمة الدولة .

ويبدو أن البداية كانت مثيرة - حسب قول ابن جبير - الذى كان من المتحمسين للمعاهد التى أسسها صلاح الدين[2] حيث انه يقول :

---

( ١ ) انظر : الملل والنحل للشهرستانى ١ : ١٠١ظ-١٠٢ ( ط. القاهرة ١٩٦١ ) : وراجع تاريخ الفلسفة فى الاسلام لدى بور : ١١٨ ( ترجمة الدكتور محمد عبد الهادى ابو ريدة ) .

( ٢ ) رحلة ابن جبير : ١٥ - ١٦ ( ط. بيروت )

المدارس والمحارس الموضوعة لأهل الطب والتعبد ، يفدون من الاقطار النائية فيلقى كل واحد منهم مسكنا يأوى اليه ومدرسا يعلمه الفن الذى يريد تعلمه واجراء يقوم به فى جميع أحواله . واتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين حتى امر بتعيين حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا الى ذلك ، ونصب لهم مارستانا لعلاج من مرض منهم ، ووكل بهم اطباء يتفقدون أحوالهم ، وتحت ايديهم خدام يامرونهم بالنظر فى مصالحهم التى يشيرون بها من علاج وغذاء . وقد رتب أيضا فيه أقوام برسم الزيارة للمرضى الذين يتنزهون عن الوصول للمارستان المذكور من الغرباء خاصة ، وينهون الى الأطباء أحوالهم ليتكفلوا بمعالجتهم .

ومن اشرف هذه المقاصد أيضا أن السلطان عين لأبناء السبيل من المغاربة خبزتين لكل انسان فى كل يوم بالغا ما بلغوا ، ونصب لتفريق ذلك كل يوم الى الفى خبزة أو أزيد بحسب القلة والكثرة .

هذه هى الأوصاف الشيقة التى يوردها اثنان من الرحالة الأندلسيين وهما ابن جبير وابن سعيد : ويجب أن نضم اليهما الطبيب العراقى عبداللطيف ، وهو عالم كبير عاش سنين طويلة فى سورية ومصر ، حيث اتصل بابن ميمون . ولدينا وصفه لمصر ، الذى يظهر فيه معرفة عميقة بالتاريخ الطبيعى ، فقد أتيحت له الفرصة فى القاهرة أن يفحص بعض الموميات المحنطة ، ويذكر ملاحظاته الشخصية بكل فخر قائلا[1] :

« فشاهدنا من شكل العظام ومفاصلها وكيفية اتصالها وتناسبها وأوضاعها ما افادنا علما لا نستفيده من الكتب . والحس اقوى دليلا من السمع » .

لا ينبغى أن نعلق أهمية كبيرة على العلاقة بين الامبراطور فريدريك الثانى مع علماء الشرق ، ولكنها إذا لم تؤد الى تقدم المعرفة ، فإنها تقوم دليلا على توفر الرغبة على الاتصال ، واعتراف الغرب بتفوق الشرق ، فنحن نعرف أن فريدريك ـ مدفوعا بولعه بالفلسفة والرياضيات والفلك ـ كان قد سأل السلطان الملك الكامل أن يجيب على أسئلة شغلت الامبراطور ، وقد وصلت الينا عن هذا السبيل أسماء عدد من العلماء ؛ ومما يبعث على العجب أن بعضهم كان من رجال الشريعة : ولكن ليس هناك ذكر

---

( ١ ) الافادة والاعتبار : ٢٧٣ ـ ٢٧٥ : ( ٦٨ ) ( ط لندن ) .

إلا لعلمهم الوفير ، ولعله يمكننا ان نستثنى منهم القرافى ، الذى حل بعض مشكلات علم البصريات .

وننوه اخيرا بذكر الطبيب ابن النفيس الذى توفى فى القاهرة واشتهر بفضل دراسات حديثة على عمل لم يكتب له النجاح قام به على دورة التنفس ، ولكن اطباء الشرق حينئذ لم تكن لديهم الكفاءة اللازمة التى تمكنهم من الاستفادة منه .

واخيرا ، فقد حظيت القاهرة بوجود الشاعر ابن الفارض فيها ، الذى اولع بالتغنى بالفناء فى الله ، ولقد كثر الكلام على نظرية الحلول عند ابن الفارض ، ولعلها » اقرب الى ان تكون نوعا من الشعور ، منها الى منهاج فى التفكير «. وهو اول شاعر غنائى متصوف ، وقد ابتدع نوعا من الشعر ما لبث ان اصبح مثالا يحتذى . وترجع اصالته الى كتابته شعرا غامضا ، فسر على انه حب الهى ، بدلا من ان ينظر اليه على انه غزل رمزى ، وقد زاد ذلك من انتشاره ، وعلى اى حال ، فإن شعره يعرض علينا اجمل ما كتب من القصائد الصوفية ، ولغته صعبة ، ولعل ذلك راجع الى كثرة تشبيهاته الرمزية ، وجنوحه الى نوع من التانق فى الأسلوب ، والى اساءته استخدام الأساليب الشعرية .

□ □ □


٤
سلاطين المماليك
الحالة العامة ..
والحياة الاجتماعية



يمكننا أن نتخيل بسهولة مدى الدهشة التى تتملك رحالة العصور الوسطى من الأوروبيين حين يقفون على قمة جبل المقطم ، فقد ذكروا انه كان منظرا من أجمل مناظر الدنيا ، وقد زاد من روعته عدد لا يحصى من القباب والمآذن ، التى اضفت نوعا من التغيير الجميل على المدينة التى تتشابه سقوفها المسطحة .

وقد كتب واحد من هؤلاء الرحالة يقول :

انى لأذكر مرة من المرات العديدة التى جلست فيها اكثر من ربع ساعة على الصخرة خارج باب الحصن ، فإن مشاهدة القاهرة من مرتفع يعتبر من أمتع المناظر ، ومصدر الامتاع هو كثرة المآذن البيضاء ، كل منها يتكون من ثلاثة ادوار او أربعة من الشرفات ، وتبدو هذه المآذن وكانها مضفرة بالخضرة الجميلة التى تتحلى بها أشجار النخيل الكثيرة التى تنمو فى حدائق المدينة ، وهذا جميعه يخلق جوا من التناسق والتباين الخلاب يسر الناظرين ، ثم ان عظمة النهر الذى يتحول فى فصل الفيضان الى بحيرة لا يحيط بها الطرق ، وعديد الجزر التى تبعث الحياة والحركة فى هذا السهل الفضى ، وروعة الجبال الشامخة التى تحد هذا المكان البهيج . كل هذه تضفى على هذا المنظر جلالا وتنوعا لا مثيل لهما .

وكان هناك ما يدعو الى الاعجاب فعلا بهذه العاصمة الضخمة ، التى انتشرت فى شكل نصف قمر من ضريح الامام الشافعى الى مقابر الخلفاء ، وكانت المدينة فى العصور الوسطى تتكون من أربعة مراكز متباينة اشد التباين : القاهرة ، ونقصد بها المدينة الفاطمية ذاتها ، تحيط ببعض أجزائها الأسوار التى كانت تختفى يوما بعد يوم وراء المبانى المتسلقة التى كانت تقام عليها : ثم مصر القديمة ، فى موقع الفسطاط القديمة : ثم بولاق ، وكانت فيما سبق جزيرة ثم تحولت الى جزء من القاهرة وميناء تجارى لها على النيل ، وهناك اخيرا مدافن القرافة ، شمال القلعة وجنوبها ، ويمكننا أن نضيف الى هذه بعض الضواحى مثل باب اللوق ، وباب زويلة ، ومسجد ابن طولون .

القاهرة ومصر القديمة كانتا فى الواقع شيئا واحدا ، إذ لم يكن هناك فاصل بينهما ، سوى بعض مناطق غير مزروعة ولا مسكونة ومهجورة بصفة عامة ، وفى بعض الأماكن ، كانت المسافة بين منازل القاهرة ومنازل

مصر القديمة لا تتجاوز مرمى القوس ، وفى أماكن اخرى ، زادت المسافة على ضعف هذا القدر ، وبعض المناطق الواقعة بين منطقتى الاسكان الكبيرتين ، كانت تغطيها البساتين الفسيحة الغنية ومزارع الخضر وحدائق اللهو ، وبينما كان بريدنباخ فى طريقه من المطرية الى القاهرة فى سنة ١٤٨٣ م ، راى عن يمينه عددا من الحدائق الجميلة جدا ، المزروعة باشجار الفواكه ، قامت بينها قصور اشبه بالحصون ، وامتدت الحدائق والبيوت فى خط متصل حتى القاهرة ، وحين دخل المدينة بيير بيلون عن طريق بولاق ، لاحظ عددا كبيرا من الأشجار لمسافة نصف فرسخ .

وكانت القاهرة قد بدات فى النمو منذ نهاية عهد الفاطميين ، وما من شك انه منذ البداية بنيت منازل جديدة ، نظرا لأن المدينة كانت مزدحمة بسكانها الى درجة الاكتظاظ ، وبدات فعلا تنفجر وراء اسوارها ، حتى ان الأبواب التى لا تزال قائمة ، وخاصة باب زويلة ، صارت داخل المدينة منذ زمن بعيد ، تماما كما حدث فى باريس حيث تعين اقواس النصر فيها موقعى بابى سان دنيس وسان مارتان ، وتتحدث النصوص العربية التى ترجع الى القرن الخامس عشر عن ضاحية باب زويلة باعتبارها جزءا من القاهرة ، وهذا ايضا شبيه بما حدث فى باريس فيما يتعلق بـ « ضاحيتيها » بواسونيير وسان دنيس .

وبعد ذلك جدت ظاهرة مختلفة حين اتصلت المدينة بالقلعة ، حتى لم تعد القلعة فى نهاية الامر معزولة ، وخاصة فى نهاية القرن الرابع عشر ، حين وصلت مبان كثيرة بينها وبين المدينة .

وقد اصاب مارسيل كليرجيه حين كتب :

كان لانشاء القلعة رد فعل قوى جدا على المناطق المجاورة لها ، فهذه الضواحى ، بعد ان زحفت على الجبانات ، انتشرت حتى وصلت الى أسفل القلعة ، فنقل الى الرميلة سوق من اهم الأسواق فى اى مدينة عربية ، وهى السوق التى تباع فيها الخيل والحمير والجمال . وفى الموقع الذى كانت تحتله من قبل وحدات الجيش الفاطمى ، بنيت حدائق وبحيرات فسيحة ، فاصبح هذا الحى اكثر جمالا ، وتمتع به سكان القلعة ، وظهرت فى الغرب فى ذلك الوقت حدائق اخرى ، وخاصة عند باب اللوق ، بحيث اصبحت هذه المناطق اشبه بالمتنزه العام ، وقد بقيت اجزاء منه حتى عصر المماليك .

وقد استمر هذا الاتساع جنوبا وشمالا وراء باب النصر وباب الفتوح ، كما قامت مبان كثيرة فى حى الحسينية ، وعلى هذا النحو ذاته ، بنيت بيوت كثيرة على طول بركة الفيل وعلى جانبى الخليج ، واقيمت على هذا الخليج جسور ذات قوس أو قوسين وممر ضيق واسوار عالية ، وحين كان الخليج يمتلىء بالماء ، فلابد ان ضفافه - بما يحيط بها من مبان ذات نوافذ محلاة بالمشربيات - كانت تشكل منظرا شيقا للغاية .

* * *

هذه المجموعة من المدن المختلفة ، وهى التى كونت مجتمعة ما أطلق عليه رحالة العصور الوسطى من الأوروبيين اسم القاهرة الكبرى ، افادت من الناحية الاقتصادية فائدة كبرى ، بحكم موقعها عند التقاء الطرق التجارية ، إذ استخدم الطريق بين الشرق والغرب لنقل التجارة بين افريقيا و أسيا ، وفى حج المسلمين الافريقيين الى مكة ، اما الطريق الآخر ، فقد جلب الى القاهرة مقدارا كبيرا من البضائع الغالية التى وصلت الى مصر برا من وسط افريقيا والحبشة ، وعن طريق البحر ، جاء ايضا الى القاهرة من الهند والصين سيل من السلع النادرة ، التى اتخذت طريقها فى النيل الى الاسكندرية ، وهناك جاء الأوروبيون لشرائها .

وهكذا أصبحت القاهرة مركزا تجاريا عظيما ، تجلب بضائع الشرق الأقصى وترسلها فى شتى طرق الملاحة فى البحر الأبيض المتوسط ، هذا هو العصر الذهبى لتجار التوابل ، ويظهر لنا هذه النقطة قول بيلوتى :

ان من له السيادة فى القاهرة يمكنه أن يسمى نفسه أيضا رب العالم المسيحى وسيده ، ورب جميع الجزر والبلاد التى تنتج التوابل ، هذا هو السبب فى انه لا يمكن ارسال منتجات التوابل الى اى مكان او بيعها اى بلد سوى بلاد السلطان ، لأن القاهرة تقع بين بحرين : فهناك ، اولا ، البحر الغربى الذى تقع عليه الاسكندرية ودمياط ويافا وبيروت وسورية ، وهناك بعد ذلك البحر الذى يقع فى الناحية الأخرى من البلاد ، والذى تقع عليه جدة ، ميناء مكة ، من هذا البحر تسافر البضائع من مكان الى مكان على طول الساحل وتصل أخر الأمر الى الطور ، حيث يوجد ميناء جبل سيناء ، والجمال التى تتحرك من مكة تاتى الى هذا الساحل وتفرغ حمولتها فى هذا الميناء ، ويسيطر سلطان القاهرة على هذا الساحل من مكة الى ميناء جبل سيناء ، وهكذا ، تقع بلاد السلطان بين بحرين مثل

جزيرة ، فتتحكم فى الهند والغرب معا ، وليس هناك طريق أخر تسير فيه السفن الآتية من بلاد الهند ، ولا يستطيع تجارهم أن يبيعوا إلا فى بلاد السلطان القاهرة ، وهذا القول يصدق أيضا على المسيحيين فى الغرب ، وانت تعرف ، لهذا السبب ، انه ينبغى أن نكون دائما على علاقات جيدة مع السلطان ، إذا أردنا أن نبيع ونشترى فى بلاده ، أو إذا أردنا أن نذهب الى بيت المقدس للحج .

كانت الملاحة فى النيل فى العصور الوسطى هامة وسريعة على نحو غير عادى ، وتدل على ذلك هذه الفقرة التى يغلب عليها الطابع الشاعرى :

لا تنس المراكب باشرعتها المرسلة عالية فى الهواء كالرايات ، وهى تسير اسرع من خيرة السهام حين تهب ريح مواتية ، وهى زاهية كالحية الرقطاء ، أو كالفواكه ذات الألوان المختلفة ، او كالطاووس ، أو مثل بعض مقابر القدماء المنحوتة فى جوف الأرض . ان هذه السفن ، يدفعها تيار الماء المتدفق ، لتذكرنا بسفينة نوح فى سيرها قدما ، وحين تنشر اجنحتها من الأشرعة ، تطير اسرع من الريح فى اندفاعها أو السحابة فى سرعة تكوينها : انها تسبح فى الماء مع السمك .

كانت القاهرة تتلقى امداداتها من التموين أساسا ، عن طريق الملاحة النيلية التى كانت دائما نشطة ، وقد رأى ابن سعيد[1] فى النيل عددا كبيرا من السفن جالبة من بحر الاسكندرية وبحر الحجاز بضائع آتية من جميع أرجاء العالم . وبعده بمائة سنة ، كان منظر السفن لا يزال يثير حماس ابن بطوطة[2] ، حيث يقول :

وان بنيلها من المراكب ستة وثلاثين الفا للسلطان والرعية ، تمر صاعدة الى الصعيد ومنحدرة الى الاسكندرية ودمياط بانواع الخيرات والمرافق .. ولا يفتقر راكب النيل الى استصحاب الزاد لأنه مهما أراد النزول بالشاطىء نزل للوضوء والصلاة وشراء الزاد وغير ذلك .

وبعد ذلك بقليل ، كتب فريسكوبالدى يقول :

يسير النيل على طول جانب واحد من المدينة ، ولها ميناء جيد ، وحينما كنا هناك ، رأينا عددا كبيرا من القوارب ، بحيث ان كل ما رأيته فى موانىء

---

( ١ ) راجع رحلة ابن سعيد فى الخطط ١ : ٢٦٧ .
( ٢ ) رحلة ابن بطوطة : ٣٦ ، ٣٧ ( ط. بيروت )

جنوه والبندقية وانكونا مجتمعة ـ دون أن أحصي السفن ذات الطابقين ـ لا تبلغ ثلث عدد القوارب التى كانت هناك ، وتبلغ فى مجموعها اربعمائة قارب أو تزيد .

ووصف لنا بيير بيلون ما شاهده بهذه العبارة :

ترسو القوارب والسفن بأنواعها المختلفة عند قرية بولاق لتفريغ ما تجلبه الى القاهرة ، وقد شاهدنا سفنا فى النيل تسمى جروما ، وهى على ثلاثة أو أربعة أنواع مختلفة ، بعضها منخفض منبسط عريض ومستدير الشكل تقريبا ، واكبرها شبيه بالقوارب فى نهر السين ، إلا انها أقصر بكثير ، وهى تنقل حمولات اكثر من غيرها ، ولها شراع مثلث الشكل . والنوع الأصغر منها ، وهو تلك السفن ذات الشراع المربع ، لا ترحل بعيدا عن بولاق : فهى تستخدم فقط لعبور النيل ، أو لنقل المؤن من القاهرة الى القرى ، أو لنقل الدواب من ضفة الى أخرى ، ولهذه الفلك التى تبحر بعيدا الى دمياط والاسكندرية شراع مثلث ويمكنها ان تدخل البحر الهادىء فى طقس معتدل .

* * *

وكتب ابن خلدون[1] :

من لم ير القاهرة لا يعرف عز الاسلام . فهى حاضرة الدنيا ، وبستان العالم ، ومحشر الأمم ، ومدرج الذر من البشر ، وايوان الاسلام ، وكرسى الملك ، تلوح القصور والأواوين فى وجوهه ، وتزهر الخوانك والمدارس بآفاقه ، وتضىء البدور والكواكب من علمائه ، قد مثل بشاطىء بحر النيل ـ الجنة ، وموقع مياه السماء يسقيهم النهل والعلل سيحه ، ويجبى اليهم الثمرات والخيرات ثجة ، ومررت فى سلك المدينة تغطى بزحام المارة ، وأسواقهم تزخر بالنعم . وما زلنا نحدث عن هذا البلد ، وبعد مداه فى العمران واتساع الأحوال ، ولقد اختلفت عبارات من لقينا من شيوخنا وأصحابنا ، حاجهم وتاجرهم ، بالحديث عنه .. فقال أحدهم : إن الذى يتخيله الانسان ، فإنما يراه دون الصورة التى تخيلها ، لاتساع الخيال عن كل محسوس ، إلا القاهرة ، فإنها أوسع من كل ما يتخيل فيها .

---

( ١ ) التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا لابن خلدون : ٢٦٤ ( ط. لبنان )

تعتبر هذه الفقرة الشاعرة مقدمة مناسبة لوصف العاصمة المصرية فى زمن المماليك ، ولكن يجب علينا أن نلاحظ انه ليست جميع المعلومات الواردة فى هذه الفقرة دقيقة ، حتى يظن مؤرخنا انه مضطر الى إضافة هذه العبارة[1] : « ان العلم والتعليم انما هو بالقاهرة ، لما أن عمرانها مستبحر وحضارتها مستحكمة منذ آلاف من السنين » ولكن القاهرة التى لم تكن فى اى وقت مضى مركزا علميا فى مستوى بغداد او قرطبة ، كانت فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر مركزا للسياسة والادارة وبصفة خاصة للتجارة العالمية ؛ ورغم انها احتفظت بذوقها الفنى الرفيع ، فإنها فى مجال الانتاج الفكرى كانت من الطبقة الثانية ، وما من شك ان مدارس القاهرة استمرت تخرج مدرسين أكفاء ، ولعل هذا هو ما يقصده ابن خلدون حين يقول[2] : « وانتقل شان العلم الى مصر والقاهرة فلم تزل أسواقه بها نافقة لهذا العهد ». وما من شك انه وجدت شخصيات كانت لها شهرتها المحلية وادباء كانوا موضع حديث الناس ، كما وجد فى المدارس والمساجد بطبيعة الحال مدرسون لتدريس الكتب السماوية ، وحتى التاريخ . وقد قام هؤلاء بتعليم تلاميذ يطمحون فى أن يخلفوا أساتذتهم .

ولا ينبغى أن ننخدع بتكاثر المدارس الدينية والمساجد فى ظل حكم سلاطين المماليك ، فليس لذلك علاقة بنوع المدرسين ، إذ لم يتخلف لنا عنها اسم واحد عظيم ، لم تخرج هذه المعاهد العلمية الكثيرة شخصية عظيمة او كاتبا موهوبا ، فهى لم تزد على كونها مدارس لتدريب المدرسين ، وباستثناء « المقدمة » لابن خلدون ، ذلك العالم الفذ الذى تلقى تعليمه فى المغرب ، لم يظهر فى القاهرة اى عمل أصيل ، وقد تميز هذا القرن بكتّاب الموسوعات والسير ، التى كثيرا ما كانت قليلة القيمة ، وواضعى المجاميع ؛ فلم تعرف فيه اعمال تتميز بالاصالة ، كان هؤلاء الرجال يستحقون فى حياتهم عبارات المديح ، وسيرا موجزة مليئة بالنعوت الرنانة ، ولكن اسماءهم تسقط سريعا فى طيات النسيان . ويذكرنا هذا بقول بلزاك : « ان مجد الجراحين شبيه بمجد الممثلين ، الذين يعيشون فقط اثناء حياتهم ، ولا تقدر مواهبهم بعد أن يختفوا » ويصف المقريزى فى

---

( ١ ) مقدمة ابن خلدون : ٧٧٨ وانظر ايضا : ٦٤٤ ( ط بيروت ، ١٩٦١ ) .
( ٢ ) المصدر نفسه : ٧٥٠ .

القرن الخامس عشر معلما ناشئا بانه كان يشبه الانسان فقط فى خلقه ولا يتميز عن الحيوان إلا بقدرته على الكلام : ثم توقف التعليم فى هذه المدرسة التى كان يعلم فيها تدريجا ، ولم ينضب معين العبقرية الخلاقة للكتّاب العرب على هذا النحو فجاة ، فنجد فى القرن الحادى عشر مؤلفا يفتخر بانه فى وضعه لكتابه يتميز بموهبة حسن الاختيار ، فإن فن الاختيار من ذكاء المرء ، وبعد ذلك بقرنين ، عمت هذه الفكرة . ويقول فى هذا كاتب آخر : « ان التاليف اليوم لم يعد أن يكون جمعا لما تفرق وضما لما تشتت » هذه مجرد ملاحظات وليست محاولة للنيل من مكانة القاهرة ، لأنى ممن يعتقدون مع وليام مارسيه بـ « ان الأدب ليس كل الحضارة » فإن المبانى والأعمال الفنية كافية بأن تخلد مجد السلاطين المماليك .

وهكذا نجد انه فى خضم هذه الحركة الكبرى فى مصر عامة والقاهرة خاصة ، كان دور السلع اكثر أهمية من دور الأفكار ، فوجدت طبقة بورجوازية من التجار الذين نعموا بملذات الطعام وبقدر من الراحة ، وبهذا المعنى ، استطاع أهل القاهرة أن يحققوا مستوى مرتفعا من المعيشة ، فأصبحت عاصمتهم سوقا ذات أهمية دولية ، وكان لتجارتهم العالمية تاثير كبير على نمو المدينة .

* * *

يقسم المقريزى[1] المؤرخ سكان مصر الى سبع فئات ، وبالرغم من انه تقسيم اصطناعى ، فهو لا يخلو من قيمة ، وتشتمل هذه الفئات على : رجال الدولة وجندها ؛ وأثرياء التجار ممن سعد حظهم ؛ والباعة مثل تجار الأقمشة وأصحاب المطابخ والحوانيت فى الأسواق ، الذين يمكن أن يطلق عليهم اسم صغار الطبقة المتوسطة : وأهل الفلاحة والزرع ـ وبعبارة أخرى أهل القرى والريف : ورجال الدين والمعلمين وطلاب العلم ـ وفيهم القضاة ، وكتّاب المملكة ورجال العسس : ثم أصحاب الحرف والصناعات والعمال والحمالين والسياس والنساجين والبنائين وغيرهم من فئات العمال المختلفين : ثم فقراء الشحاذين والبؤساء . وكما يستدل مما لدينا من معلومات ، لم تكن هذه الفئات طبقات مقفلة لا مخرج لأفرادها منها . وكان الاستثناء الوحيد من هذه القاعدة هم المماليك ، الذين كونوا طبقة

---

( ١ ) الخطط ٢ : ٤٩٢ .

ممتازة فوق جميع السكان المختلطين اشد الاختلاط بحيث لم يكن بين افرادهم رابطة عامة تجمعهم ليدافعوا عنها . ولم تعرف مصر البناء الطبقي للمجتمع ، فقد اشتملت الأسرة الواحدة على التجار ورجال الحرف والمعلمين ، ونحن نعرف ان التجارة والاشتغال بالتعليم الدينى كانتا صناعتين متداخلتين ولم تتعارضا ابدا اجتماعيا ، وهكذا لم يلتزم الناس بالبقاء في طبقتهم الاجتماعية ، ولعبت حالات الافلاس المالى دورها في انتقال الأفراد من طبقة الى اخرى ؛ وهناك حالات السجن ومصادرة الأموال ايضا . وكانت حالات الاثراء اقل حدوثا ، ولكنها كانت موجودة ، ولنضرب على ذلك مثلا حالة احد ابناء الفلاحين من الدلتا ، الذى كان يجلس فوق حماره في الأسواق يبيع القماش الخام وغيره من المنسوجات : كان مجرد بائع متجول ، وبعد موته ، بلغت تركته عشرين الف دينار نقدا ، دون حساب عدد كبير من الدواب .

واحتفظ المماليك بروح عسكرية لا تعرف الرحمة نظرا لخمول اصلهم وبسبب تدريبهم وتعليمهم . وبالرغم من عدم تحيزهم ، فإن طبيعتهم العسكرية جعلتهم يؤثرون الحرب على السلام . ويفضح تاريخ قواد المماليك اطماعهم ، فقد اعتادوا حياة الخطر وسيطر عليهم الخوف من المستقبل . فاعمالهم التى تشف عن غرورهم وتبذلهم يمكن تفسيرها على ان الدافع الوحيد لها هو الأنانية ، وقد قال المقريزى[1] : « نزل بالناس من ( المماليك ) البحرية بلاء لا يوصف ما بين قتل ونهب وسبى بحيث لو ملك الفرنج بلاد مصر ما زادوا في الفساد على ما فعله البحرية ». وكما هو الحال بالنسبة للجنود المحترفين في كل عصر وفي كل دولة ، كان المماليك مغامرين ؛ ونقصد بذلك انهم لم يكن لديهم جنوح نحو المغامرة والخطر فحسب ، بل غلب عليهم التمادى في تهورهم ، وانه لمن المؤسف أن خلافاتهم الداخلية لم تسفر إلا عن جهد ضائع .

وهم رجال جلبوا الى مصر كارقاء ابتيعوا بالمال مثل سائر السلع ثم حررهم سادة كانوا انفسهم عبيدا من قبل ، واتخذوا لهم شخصية قائمة بذاتها ، تحت اسم جديد ، وحاولوا أن يضيفوا شيئا الى صرح الحضارة الاسلامية ، فاقام المماليك في البلاد إدارة صالحة رغم تعقيدها ، وكونوا

---

( ١ ) الخطط ٢ : ٢٣٧ .

جيشا افسدت عناصره الحياة السياسية فى الداخل ، كما حدث على أيدى العصابات الكبرى اثناء حرب المائة عام ، ولكنه جيش تميز بشجاعة لا شك فيها ، وكثيرا ما انتصر فى الحروب ، فكانت تسيطر على مصر حكومة اقلية من الاطفال المفقودين ، الذين شغلتهم امتيازاتهم واشبعت نفوسهم بفكرة ارتفاع قدرهم ، كما هو واضح من أزيائهم الباهرة ، وكانوا يكوّنون مجتمعا مقفلا تماما ، لا يقوم حق السيادة فيه على امتيازات المولد أو الثقافة او الثراء ، لأن اى شخص لم ينشأ فى الرق لا يحق له أن يصبح سلطانا ، فى هذا المجتمع الغريب كان باستطاعة المملوك بعد تحريره أن يصل الى ارقى مناصب الدولة ، بينما الانسان الحر فى البلاد مقيد فى تبعية الأرض . وينطبق قول شاتوبريان « مملكة بلا شعب » على عهد المماليك اكثر من انطباقه على فرنسة القديمة ، كانت الدولة ملكا خاصا للسلاطين ، يديرونها بقوة لا تكل ، مثل ضيعة خاصة ، ولم يحاولوا أن يخففوا من غلوائهم بفيض من الشعارات المزيفة عن الحرية ، ومع ذلك ، فقد كانت شجاعتهم بقدر كبريائهم ؛ وخير دليل على ذلك : هو دراسة نضالهم ضد الصليبيين والمغول .

وفى ظل الحكم الحديدى للمماليك ، اولئك الذين كثر بينهم القواد والسلاطين ووجدوا التاييد من رجال القضاء وادارتهم التقليدية القوية ، تحكمت مصر الاسلامية فى البحر الأبيض المتوسط ، وقد تم ذلك بفضل مساعدة الأساطيل الأوروبية ، وخاصة فى جنوة ، التى كانت حريصة على حماية رضائها التجارى ، ونمت مدينة القاهرة نموا كبيرا ، وظهرت المبانى الرائعة فى شوارع المدينة القديمة وفى الضواحى ، ورغم انه لا يمكننا أن نغض الطرف عن النضال الدموى الذى دارت رحاه فى القاهرة تحت حكمهم ، إلا انه يجب أن نقرر انه كانت للمماليك افكار عظيمة عملوا على تنفيذها ، ومهما يكن من امر ، فإن عصر النهضة الايطالية فى كثير من النواحى لم يكن اقل الما ، فمثل معاصريهم فى جنوب أوروبا ، الذين شغلوا بمنازعات لا نهاية لها ، خلف المماليك وراءهم شواهد ملموسة من الفخامة ، كالقصور والمساجد والأضرحة الضخمة ، ويكفى أن نذكر هنا عبارات جوبينو المشهورة :

فى مدينة القاهرة ، تسيطر ذكرى المماليك ، لقد قاموا بكثير من الأعمال ، وشيدوا كثيرا من المبانى الجميلة القوية ؛ لقد استطاعوا وحدهم أن ينحتوا من الرخام والحجر تلك الكمية من محفورات الأرابسك التى تضفى

روعة على مبانى آسيا بأسرها ، ويبدو أن هؤلاء الأرقاء السابقين - المماليك - بمجرد ما حملوا سيوفهم العريضة فى جنبهم وقبضوا على ناصية الحكم ، شغلت عقولهم أفكار عريضة كبرى : فكل ما شيدوه لا نجد له مثيلا فى أعمال المسلمين فى سائر العالم .

لقد خيمت الكآبة على القرن الخامس عشر بصفة خاصة بسبب الانقسامات العنيفة التى أدت الى كثرة الاشتباكات بين فرق المماليك بصورة متزايدة ، ولم يكتف المماليك بافناء بعضهم بعضا ، بل دمروا الأسواق حين لم تغلق الحوانيت فى الميعاد ، فبالنسبة لأهالى القاهرة المسالمين ، كان حكم المماليك كابوسا مقيما : فهم يمثلون سلطة تبطش ولا تحمى ، ولم يفكر أصحاب الحرف والحوانيت فى ايجاد تنظيم لهم يحررهم من هذا النير ، وفى حالة وقوع الخطر ، اكتفوا بان اخفوا بضائعهم الثمينة فى أماكن أمنة .

كانت الحياة فى القاهرة قلقة بسبب سوء سلوك الطبقة العسكرية ، وهو أمر كان مألوفا أيضا منذ عصر الفاطميين ، ومع ذلك ، فلم تحدث فى العاصمة أية ثورات شعبية .

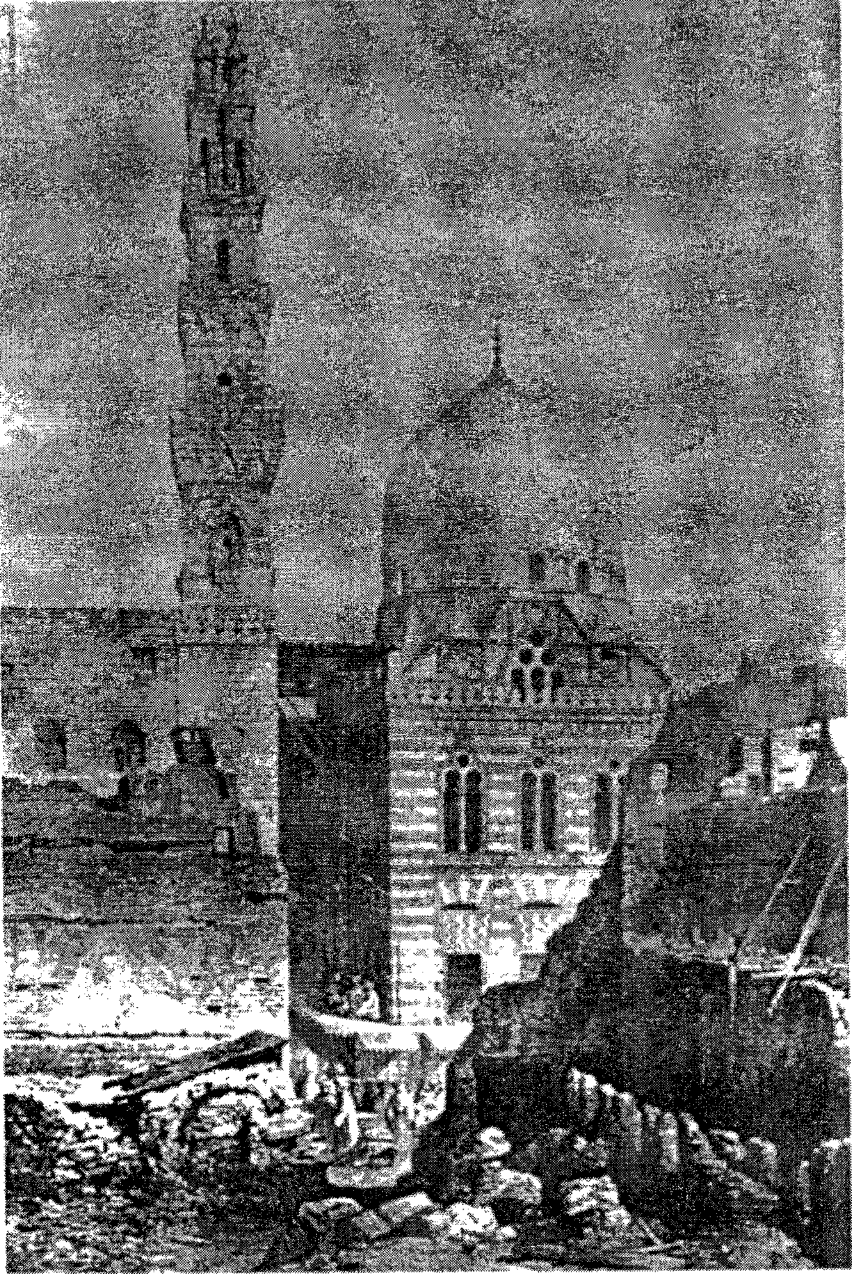
وإذا كان فى استطاعتنا أن نستخلص بعض النتائج مما سبق ، فيمكننا أن نقول أن سكان القاهرة كانوا قوما هادئين فرض عليهم الا يشغلوا انفسهم بشئون الحياة العامة ، وفى الواقع ، ان هذا الجمهور الذى أعوزته الوحدة بقدر ما أعوزه التصميم ، بسبب تكوينه المختلط الى أقصى حد ، لم يبد رغبته فى الاشتغال بالشئون العامة ، وكما كان الحال فى أماكن أخرى ، وجد الجنود وموظفو الحكومة ورجال الدين والتجار ورجال الحرف ، وكان رجال الجيش ، مثل الحكام ، من أصل أجنبى ، وكانوا يقومون بتنفيذ أوامر الحاكم الذى يدفع لهم رواتبهم ، كما كانوا يستغلون أو يسيئون استغلال السلطة الممنوحة لهم ، ولم يكن السلطان وجيشه السلطة الوحيدة فى البلاد ، فقد كان عليهم ارضاء جيش أخر ، هو جيش الاداريين وجامعى الضرائب ، الذين يمسكون فى أيديهم بخيوط الخزانة . وعلى أى حال ، فإن هذه الفئة الأخيرة لم تسقط حكما أو تعزل سلطانا قط بسبب عدم رضائها أو عدم تعاونها ، ونظرا لعدم استطاعة السلاطين أن يستغنوا عنهم ، فقد نظروا الى مصر بمكر وذكاء على انها ملكيتهم الشخصية ويجب ادارتها بواسطة الكتبة الاداريين .

□ □ □



# ٥

# الشوارع والمنازل



أورد لنا أحد الرحالة موجزا بالعيوب التى لا يمكن إغفالها إذا أردنا أن نقدم وصفا للقاهرة فى العصور الوسطى ، قال :

ليس للمنازل شكل الأناقة الخارجية الذى تتميز به منازلنا او مظهرها ، والشوارع ضيقة وغير مرصوفة ومتعرجة ، وهناك ساحات هائلة غير منتظمة الشكل ، خالية من مبان تزينها او تمثال يميز وسطها او يجمله ، تتحول أجزاء كبرى منها إلى برك من الماء اثناء الفيضان ، ثم تعود حقولا وحدائق حين تنحسر مياه النهر .

وفى الشوارع يتدافع جمهور من جنسيات مختلفة ويتزاحم ، ويختصم افراده حول حق المرور مع حصان المملوك ، ودابة القاضى ، والجمال التى تستخدم بدل العربات ، والحمير وهى الركوبة الأكثر شيوعا .

وإذا ماسرنا وراء باب الفتوح نصل إلى شارع بقى كما كان فى العصور الوسطى ، وهو يمتد شمالا وجنوبا لمسافة اربعة كيلومترات ونصف تقريبا ، من هذا الباب الجنوبى إلى ضريح السيدة نفيسة . هذا الشريان الطويل ، أو العمود الفقرى للقاهرة ، هو مظهر وحدة المدينة . وقد احتفظ بمظهره القديم ، على الأقل فى جزئه الشمالى . وتمتد على جانبيه بوابات غريبة ، وحوانيت ذات أبعاد صغيرة بحيث انها تبدو كخزائن قد ازيحت واجهتها لتكشف عن مضمونها . وأمام كل حانوت مصطبة من الحجر او درجة صغيرة بطول مدخل الحانوت ، وعرضها يكفى ليجلس عليها رجل . وبعد أن يفتح التاجر الحانوت ، يضع على المقعد حصيرا او سجادة او وسادة ، ثم يجلس وحين ياتى إليه مشتر يجلسه إلى جانبه . وفى المساء ، عندما يعود أصحاب الحوانيت إلى بيوتهم ، ترى المكان مهجورا .

والشارع من حيث نظامه يسوده الاضطراب فالبيوت تبدو وكانها اقيمت بغير خطة او ادنى محاولة لصفها بانتظام . ونظرا لان المالك اخذ من الأرض ما اراد ليبنى عليه ، فعلى المارة اليوم أن يدوروا فى سيرهم حول البيوت . ولم يترك حيز فارغ فالحوانيت والبيوت قد بنيت متلاصقة على نحو اضر بنظام الشارع ، كما هو الحال فى القرى المصرية حيث تحشر البيوت سويا حتى لا تاخذ سوى اقل قدر ممكن من الأرض التى يمكن

زراعتها . وبالرغم من أن الشارع مستقيم فى اتجاهه العام ، إلا أنه ينحنى بطريقة لا تكاد تلحظ . ونتيجة لهذا فإن امتداد الطريق يبدو وكأنه مسدود . ونظرا لكثرة المساجد فى هذا الطريق الهام ، فهناك دائما مئذنة على مرمى البصر .

ولقد قيل إن أحد حكام المغرب انب اهل بلده حين وجد شارعا بلا مسجد . ومثل هذه الشكوى لا يمكن سماعها فى القاهرة ، حيث تزدحم الشوارع بالمساجد . فعلى طول الشوارع المختلفة ، تجد المساجد الواحد بعد الآخر ـ مسجدين أو ثلاثة أو أربعة فى صف واحد ، يستند بعضها إلى بعض . وتصعد إلى السماء فى كل مكان مآذن تزينها محفورات الأرابسك ، وقد نحتت بدقة بالغة بتصميمات متخلية متنوعة ، بعضها بعيد عنك ، وبعضها الآخر قريب يشير إلى السماء فوق رأسك . وحيثما تنظر على مدى البصر تجدها ، وتحس دائما كان المئذنة التى مررت بها لازالت تراقبك لبعض الوقت . هذا هو الشعور الذى أدهش سنيور دانجلور فى عام ١٣٩٥ :

يوجد فى هذه المدينة ـ كما قد أخبرنا بحق ـ اثنا عشر الف مسجد ، يؤدون فيها صلواتهم ويرتلونها . وهم يصونونها ويحفظونها نظيفة ، ويضيئونها بمصابيح زاهية جميلة ، ومع ذلك فانت لا تجد فى هذه الأماكن للعبادة أى صور أو تماثيل ، واللون الوحيد الذى يغطيها هو اللون الأبيض وقد بنيت جميعا بناء متينا بالرخام . وهناك بعض المساجد الكبيرة الجميلة التى تبدو شبيهة بالكنائس المسيحية الجميلة .

وقال أحد الرحالة الأوروبيين ، أنه لو جمعت مساجد القاهرة فى مكان واحد ، لكونت مدينة فى حجم مدينة أورليان .

وكتب ابن بطوطة[1] ـ وهو أدق ملاحظة من ابن خلدون ـ ما يأتى :

ثم وصلت إلى مدينة مصر ، وهى أم البلاد ، وقرارة فرعون ذى الأوتاد ، ذات الأقاليم العريضة ، والبلاد الأريضة ، المتناهية فى كثرة العمارة ، المتباهية بالحسن والنضارة ، مجمع الوارد والصادر ، ومحط رحل الضعيف والقادر ، وبها ما شئت من عالم وجاهل ، وجاد وهازل ، وحليم

---

( ١ ) رحلة ابن بطوطة : ٣٦ .

وسفيه ، ووضيع ونبيه ، وشريف ومشروف ، ومنكر ومعروف ، تموج موج البحر بسكانها ، وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها وامكانها .

وقد وجد الأوروبيون ، الذين حيرتهم أيضا شدة ازدحام السكان ، أنه من المستحيل الحصول على تفصيلات دقيقة . فكتب سيمون سيميونس فى سنة ١٣٢٢ م : « فى اعتقادى - طالما ليس هناك تقدير اصح - أن القاهرة تبلغ ضعف حجم باريس ، واربعة اضعاف عدد سكانها وحتى إذا اقترحت عددا أكبر ، فهو اقل من الحقيقة » .

وعندما اقترب القرن الرابع عشر من نهايته ، قال جوتشى دى دينو فى غير مبالغة :

بابليون هى المدينة القديمة ، والقاهرة هى المدينة الجديدة التى اسست وبنيت فيما بعد . وفى كلا المدينتين عدد السكان بلا حصر ، إلى درجة انه من المعتقد انه يمكنهم تجنيد جيش من ستمائة أو ثمانمائة الف رجل . إن عددهم لا يقل عن ثلاثة ملايين شخص ، ويقال إن منهم ما يزيد على سبعمائة الف رجل وامراة وطفل فقراء لدرجة انهم لا ينامون ليلبتين متتاليتين فى مكان واحد . إنهم يستلقون فقط على الأرض او على المقاعد العامة حيث يكونون .

وفى رأى سيمون سيجولى :

يبلغ طول مدينة القاهرة اكثر من اثنى عشر ميلا ، ومحيطها ثلاثين ميلا . وتحتوى على أكثر من ثلاثمائة ألف من السكان ، منهم ما يزيد على خمسين ألفا بلا مسكن أو سقف يحميه . وهناك - فوق ذلك - أكثر من عشرة آلاف رجل بلا ثياب تستر اجسامهم ، سوى أسمال يسترون بها عوراتهم .

وقد اعتقد فريسكوبالدى أن عدد سكان القاهرة يفوق عدد سكان تسكانية باسرها ، وأن أحد شوارع المدينة ضم من السكان أكثر من أهل فلورنسة . ويقال إنه فى الربع الأول من القرن الخامس عشر ، بلغ طول القاهرة خمسة عشر ميلا وعرضها خمسة اميال كما كانت مزدحمة بالسكان إلى درجة ان ثلاثة او اربعة اشخاص لا يمكنهم ان يسيروا فى شارع دون ان يصطدموا ببعض .

كانت تلك هى الحال حتى فى الشوارع الرئيسية . ولم يكن أحد يذهب إليها بقصد النزهة ، وإنما يذهب إليها الناس مضطرين لقضاء حاجاتهم

أو لمساعدة غيرهم . لا يستطيع أحد أن يسير دون أن يتدافعه ذلك الجمهور المزدحم الصاخب . لقد كان هذا التدافع بين المارة وراكب الخيل ، وهذا الفيض البشرى هو السبب فى نشوء الفكرة أن المدينة مزدحمة .

ولكن ماذا كان حال الشوارع الضيقة ؟ لقد اشتكى منها الكتاب العرب أنفسهم ، ويئس الرحالة من المتاهة المحيرة التى تكونها . ومن الشبكة المعقدة التى تشكلها الممرات الضيقة المتربة . وكان أكثر الأزقة قصيرا وصغيرا جدا واضيق من ازقة البندقية . وفى بعض الأحيان ، بلغ طول هذه الشوارع مسافة بيتين أو أكثر قليلا بحيث أن المدينة كلها كانت مجرد خليط من البيوت . وفى اماكن معينة ، كانت هذه الأزقة تمر تحت البيوت ، ويذكرنا بهذه الحقيقة شارع لازال يحمل إلى اليوم اسم شارع تحت الربع . هذه الممرات خلال المبانى ، التى لم يكن يعرفها سوى أولئك الذين كانوا على علم تام بالمدينة ، تذكرنا - لولا اختلاف الارتفاع - « ترابول » Traboules فى مدينة ليون . وبالاضافة إلى ذلك . فكان هناك بعد كل عشرين و ثلاثين بيتا بوابة لاغلاق هذه المنطقة . ولم يكن الهدف من هذه البوابات هو الدفاع فى زمن الحرب ، وإنما الغرض منها هو منع اللصوص من دخول البيوت أثناء الليل ، أو عرقلة سبيل خروج اللص الماهر الذى يتمكن من الدخول . وفى بعض الاحيان ، كانت البوابة تغلق فى منتصف النهار ، وكان الانسان يضطر إلى أن يعود أدراجه ويدور فى المنحنيات حتى يصل إلى غايته . وقد ساعدت هذه الشوارع الصغيرة المسدودة من هنا وهناك على تيسير مهمة رجال الشرطة ، الذين خفض عددهم إلى اقل قدر ممكن .

وكانت الأزقة من الضيق بحيث أنه يصعب على رجلين أن يسيرا جنبا إلى جنب وكان الجمل بحمولته كفيلا بعرقلة الحركة أكثر مما تفعل عربة فى بعض شوارع باريس . وما من شك أن جملا عليه حمل ينوء به من قصب السكر كان يرغم أكثر المارة كبرياء أن يلصق جسمه بالحائط . ويذكر الرحالة الأوروبيون أن الشوارع كانت عادة مظلمة ، بسبب أن البيوت فى بعض الأماكن كانت قريبة من بعضها البعض لدرجة أن حواف الأسطح تشابكت ، ومدت الحصر من سطح إلى سطح . وكان هناك تعويض عن المشقة التى يسببها الشارع الضيق وهى البرودة التى ينشرها . فسمحت الشوارع الضيقة بمرور تيار من الهواء المنعش . كما ألقت البيوت العالية

ظلا جميلا على المارة . فتلك إذن متاهة من الشوارع الصغيرة الضيقة التى تدور بين جدران بلا نوافذ ، وتعترضها أحيانا ميادين غريبة الشكل . وقد أوجز لنا سيمون سيميونس وصف الحال فى مطلع القرن الرابع عشر فى هذه العبارة :

تجد فى شوارع المدينة المظلمة الملتوية كثيرا من الأركان والمنحنيات ، وهى مليئة بالغبار وغيره من القمامة ، وغير مرصوفة على الاطلاق . وتزدحم شوارعها الهامة بجمهور صاخب ، ولا ينتقل الانسان من شارع إلى آخر إلا بمشقة كبيرة .

وظل الحال كما هو حتى نهاية القرن الخامس عشر ، حين كتب بريدنباخ :

زرنا شوارع التجار ، فذكرتنا بالزحام فى ساحة القديس بطرس فى روما فى أعوام الاحتفالات . فهناك عدد ضخم من الباعة والمشترين حتى ليصعب على الانسان أن يصدق ما تراه عينه ، فهو أقرب إلى الخيال . ولا اعتقد ان هناك مدينة اخرى فى العالم اليوم تبلغ مبلغ القاهرة فى ازدحامها وحجمها وثرائها وسلطانها . دخلنا مرة فى شارع ثم فى آخر ، وبعد أن مررنا خلال بوابة حديدية ، وصلنا إلى أكثر المناطق ازدحاما . وبعد أن تدافعنا بالمناكب خلال كل من البشر ، رأينا بقعة لا تستطيع الكلمات أن تصف ازدحام الناس فيها .

ويمكننا أن نتصور بسهولة الجماهير المتدفقة من الشوارع الصغيرة الجانبية ، حتى تختفى فى زحام كبير . وقد رأى رحالة ساخط خصب الخيال « قوما يسيرون فى الطرقات وأذرعهم مدلاة دون اهتما بأى شىء ، كأنهم ينتظرون لمسة من عصا سحخرية تعيدهم إلى أنفسهم وتضىء وجوههم المجهدة بالرغبة والأمل » . ولا ينبغى ان ننسى أن الشعب المصرى ، وخاصة فى القاهرة ، كان لين العريكة ، رفيقا ، كثير الضوضاء فى صخبه ، ومليئا بالحياة . واستمر هذا البحر من البشر فى سيره بروحه المرحة نحو دوامة الحياة اليومية دون أن تشغله قضايا الحكم أو فلسفة الوجود .

واخيرا يقدم لنا هذا الوصف صورة حية عن الحياة فى المدينة :

يخترق المدينة ثلاثة شوارع وهى جميلة بالمقارنة مع غيرها من الشوارع الضيقة الملتوية ، بسبب أن كل شخص من الأهالى يبنى منزله

حسب هواه ، فيسد الطريق ، ويحيل الشوارع إلى ازقة ضيقة قصيرة يصعب المرور فيها ، وخاصة فى أيام السوق . وكثيرا ما اضطروا إلى أن يفتحوا ممرات عبر البيوت ليستمر المرور خلالها ، ولكنها كانت شديدة الظلمة وتسمح بارتكاب الجرائم . وأهم شارع من الشوارع الثلاثة الطويلة يخترق المدينة طولا . ويعقد فيه السوق فى أيام الاثنين والخميس . وبالرغم من اتساع الطريق ، يصعب السير فى أيام السوق بسبب الازدحام الشديد فهنا تاتى الماكولات بشتى اصنافها من خارج المدينة او داخلها لتباع . وفى شارع أخر ينتهى إليه ، توجد الحوانيت التى تباع فيها خيرة بضائع الجملة .

وقد عاقت الحركة فى الشوارع تلك المصاطب التى وضعت أمام الحوانيت ، ولكن الامر لم يقتصر على ذلك فالباعة المتجولون يرصون سلعهم من الخبز وغيره من الماكول على هيئة اكوام على الأرض بالرغم من ان الشرطة كانت دائما تلاحقهم . وقد زاد من عرقلة الحركة فى الشوارع جماعات السقائين والباعة المتجولون الذين يعرضون على المارة ما يحملون من سلع رخيصة وماكولات ، وكانوا يلفتون النظر بنداءاتهم المتميزة كما هو مالوف فى جميع مدن العالم ، « فكل ينادى على بضاعته بطريقته الخاصة » ، كما قال سنيكا فى وصف روما القديمة . ولم يكن هؤلاء الباعة يدخلون البيوت وإنما كانت تفتح المشربيات وتدلى منها لهم سلال بحبال طويلة ، فتوضع فيها البضائع وترفع على هذا النحو إلى البيوت . وكذلك الحلاقون اتخذوا لهم مواقع يحلقون رؤوس زبائنهم وذقونهم فى الهواء الطلق . « وهناك رجال يسيرون فى الشوارع ومعهم ما يشبه المرآة معلقة فى صدورهم ويصيحون : اللى عايز يحلق ؟! » ولا ينبغى ان ننسى أصحاب الحرف الذين يعملون امام دكاكينهم . فترى عددا من الحمالين يلبون اى طلب للمشترين : « فهؤلاء الافراد على استعداد للقيام باية خدمة لقاء اجر زهيد » . وعلى مسافات متباعدة ، يوجد مجبرون لاسعاف من اغمى عليهم او من اصابهم أذى ، ولتضميد الرضوض . وتتخذ « الف ليلة وليلة » من باب زويلة موقعا لحادثة نشل . وكانت دوريات العسس تمنع الاضطرابات وتتربص باللصوص ، وكان قائد الدورية يتخذ لتفتيشه طريقا مختلفا كل ليلة ، وكان يسير امامه حامل مشعل ويحيط به ضباط الشرطة والسقاؤون وحاملو الفؤوس ، وكانوا جميعا مسئولين عن مقاومة الحرائق التى قد

تشب اثناء الليل ، وكل شخص يضبط في حالة تشاجر أو سرقة ان يعتقل .

ويبدو ان قوانين المرور في الشوارع لم تكن مطبقة بدقة ، نظرا لتكرر صدورها من حين إلى آخر ، ولكنها مع ذلك تثبت ان السلطات المسئولة لم تهمل هذا الموضوع . فلم يسمح مثلا بمرور حمولة من القش او اخشاب الوقود في الطريق الرئيسية ولم يسمح أيضا للسائس ان يقود فرسا في هذا الشارع وكان لزاما على السقائين ان يغطوا قربهم الجلدية حتى لا تبلل مياههم المارة وإلزم اصحاب الحوانيت بان يقيموا قدرا كبيرا مملوءا بالماء يسهل استخدامه لمقاومة الحرائق . هذه الاحتياطات كانت في واقع الأمر بدائية ، كما ان إزالة مظلات الحوانيت والمصاطب من أجل القضاء على العوامل المساعدة على الحرائق ومن اجل إزالة العوائق امام رجال الحريق لم تكن ذات قيمة فعالة في عام ١٠١٤ م ، وكانت الصدفة وحدها هي السبب في قلة الكوارث . ومع ذلك ، فقد حدثت حرائق خطيرة في عام ١٣٢١ ، وبصورة اشد في عام ١٣٥٠ . فجند جميع السقائين واستدعى جميع النجارين للقضاء على كل شيء قابل للاحتراق في طريق النار ، ولكن دون جدوى . وقد استمرت الحرائق في سنة ١٣٥٠ لمدة شهر كامل .

وفي اثناء الليل ، كان النظام يقضي بأن يعلق التجار امام مخازنهم مصابيح . ومع ذلك ، فحين دخل بريدنباخ المدينة بعد ان مر بالمطرية سنة ١٤٨٣ ، اشار إلى انه « سار طويلا في الظلام » . ولكن حسب رواية الحاخام الايطالي دابرتينورو ، « يستطيع المرء ان يسير في القاهرة بالليل واثناء النهار ، لأن جميع الشوارع مضاءة بمصابيح » . ويذكر تريفيزانو على وجه التحديد انه كان « من المألوف في القاهرة ـ ضمانا للأمن ـ أن يعلق مصباح مضيء على باب احد البيوت كل أربعة بيوت أو خمسة » . ولكن هذا الاجراء لم ينفذ بدقة ، لأنه أثناء حكم ابن قايتباي المخبول[1] ، كان هذا الحاكم « يخرج بنفسه كل ليلة بعد صلاة العشاء ويجول في الشوارع ، يتقدمه مصباحان مستديران واربعة مشاعل ، ويسير أمامه عدد من العبيد السود . وإذا مر امام دكان ليس له مصباح ، كان يامر بغلق المحل بالمسامير ، وكان يبقى ليشرف على العملية بنفسه » . وفي شهر رمضان ، كانت ماذن المساجد تضاء بمصابيح كثيرة ، وكان منظر الآف المآذن الوضاءة تترك في النفس انطباعا قويا ، كل واحدة منها مضاءة

( ١ ) بدائع الزهور في وقائع الدهور لابن إياس ١ : ٣٤٦ ( ط. القاهرة ، ١٩٦٠ )

بثلاثة صفوف من عدد لا يحصى من المصابيح . . وبسبب هذه المصابيح ، كانت المدينة تبدو وضاءة كأنها في وسط النهار » .

وكانت الحكومة بين حين وأخر تبدى اهتمامها بامر نظافة العاصمة ، ولعل ذلك كان يحدث أكثر مما يشير إليه المؤرخون . فنحن نعلم انه عند نهاية القرن الرابع عشر ، كان التجار يلزمون بدهان واجهات حوانيتهم . وفي شهر آيار ( مايو ) سنة ١٤٧٧ صدر أمر بتوسيع الطرقات والشوارع والأزقة[1] ، وصدر امر بهدم جميع المباني التي اقيمت بغير طريق شرعي في الشوارع والأسواق ، مثل كثير من المباني التي كانت تدر دخلا ، والسقائف ، والرواشن ، والمصاطب . وكانت عملية توسيع الشوارع ذات فائدة للمدينة ، ولكن كثيرين من الأفراد تحملوا خسائر جسيمة بسبب إزالة ممتلكاتهم وحوانيتهم . واضطربت مدينة القاهرة حيال تدمير هذه المباني ، وخاصة تلك التي كانت تقع على الشوارع الرئيسية . لذلك كان هذا القانون موضع كراهية الجمهور .

ومع ذلك ، فإن الحكومة لم تحجم عن غايتها وإنما سارت قدما وقامت بإصلاح الواجهات التي شوهت ، كما اصلحت أبواب المساجد وقامت بتنظيف رخامها وتبيض جدرانها ، وصدر امر بتبييض الحوانيت وإعادة تجميل وجوه الرباع المطلة على الشوارع . وعين مفتش للطرقات الذى كانت مهمته حث الملاك على الاسراع بعملية التعمير والدهان . ويضيف مؤرخ عربي انه ، نتيجة لذلك ، استعادت المدينة جمالها الأول كما كانت عند زمن تاسيسها ، وغدت رائعة كالعروس عندما تسفر عن وجهها أمام زوجها . وفي الوقت نفسه ، بدأ العمل عند باب زويلة لرفع مستوى الطريق إلى مستوى الشوارع المجاورة .

وبالرغم من غلبة الأسلوب الشاعرى على كتابة مؤرخنا الذى يمدنا بهذه التفصيلات ، فإنه لا يخفى دائما استياءه . فهو يخبرنا بانه في سنة ١٤٩٨ ، صدر أمر من السلطان يقضى بان يقوم جميع أصحاب الحوانيت التي بالأسواق والشوارع بتبييض واجهات حوانيتهم وأن يزخرفوها بالدهان ، وتحمل التجار بسبب هذا الأمر نفقات باهظة . ويرجع

---

( ١ ) انظر بدائع الزهور ٢ : ١٧١ ـ ١٧٧

كاتبنا هذه الحالة إلى تحريض افراد من أحط الفئات وتحريض البطانة التى تحيط بالسلطان .

وفى تشرين الثانى ( نوفمبر ) سنة ١٥٠٣ ، صدر أمر من السلطان بأن يقوم أصحاب الحوانيت بحفر الشوارع بغرض تخفيض مستواها بمقدار قدم تقريبا نظرا لأن مستواها كان قد ارتفع بقدر ملحوظ . وكان المفروض ممن صدر إليهم الأمر ان يتموا العمل دون تأخير كبير وكان هذا سببا فى ضجر كثير من الناس نظرا لعدم توفر العدد الكافى من العمال لحمل التراب بسبب كثرة الطلب .

وقلما ساءت الأحوال الجوية فى القاهرة وأن وجود ميزاب لتصريف المطر فوق بعض الأبواب الفاطمية ليدل على أن المهندسين كانوا من أصل اجنبى . ومع ذلك ، فقد حدث أحيانا أن انهمرت أمطار غزيرة أدت إلى غمر الشوارع والأسواق بالمياه ، وكما قال فلوبير :

استمر المطر اسبوعا ، وقد حاولنا مرتين اقتحام شوارع القاهرة باحذيتنا الضخمة فوجدناها مليئة ببرك من الطمى ، بينما كان الأهالى فى حالة تبعث على الأسى ، يغوصون فيها إلى ركبهم وهم يرتعدون من البرد . وتوقف العمل ، واقفلت الأسواق ، وخيم عليها الحزن والبرد ، وانهارت بعض المنازل بسبب المطر ، والقيت الأتربة والقمامة على الوحل ليجف هكذا كان مستوى الشارع يرتفع بصورة مطردة .

وكان هناك عدد كبير من الرجال يستاجرون للعناية بأمر نظافة المدينة ، وكان لهؤلاء ايضا مساعدون مهرة آخرون . وقد كتب أحد الرحالة فى ذلك :

ترى فى شوارع القاهرة عددا كبيرا من الحدأن لا تكاد تصدقه العين ، يحوم فوق المدينة فى حرية تامة ، وكثيرا ما رايت هذه الحدآن بعينى راسى وهى تاكل اللحم من فوق رؤوس أولئك الذين يحملونه خلال شوارع المدينة ، واحيانا تطير وتخطف اللحم من ايديهم ، ولا يستطيع إنسان أن يتعرض لها باذى لأنها تاكل الرمم العفنة وغيرها من الفضلات . وبعد أن ينتهى فيضان النيل ويعود إلى مجراه الطبيعى ، فإنه يخلف قدرا كبيرا من القاذورات وحينما يصل الفيضان إلى ذروته ، يجرف فى الشوارع الرئيسية الحيوانات الميتة وغيرها من الأسماك والثعابين ، ولكن هناك عدد كبير من هذه الطيور الفظيعة يكفى لالتهام كل شىء فى الحال .

ويخبرنا رحالة من القرن السادس عشر بانه « غير مسموح قانونيا صيد هذه الطيور أو قتلها لأنها تنظف النيل من قاذوراته ، وكذلك المدينة التى لا يمكن المحافظة على نظافتها بسبب كبر حجمها » .



لقد رأينا كيف كان سكان القاهرة يسيرون جماعات غفيرة . وكما يحدث اليوم لابد أن جماعات من الناس تجمهرت أمام مداخل المستشفيات والسجون . ويمكننا أن نضيف إليهم أولئك الذين تجمعوا حول الكتاب العموميين . وهم فئة وجدت أيضا فى الأزمنة الحديثة . وإذا كان الكتاب العرب قد أهملوا ذكرهم ، فلعل ذلك راجع إلى شدة اعتيادهم عليهم . هؤلاء الكتاب العموميون ، الذين كانوا كثيرين جدا من غير شك ، أقاموا مكاتبهم فى الهواء الطلق وسدوا مداخل مبانى الحكومة والادارة .

هذا مكتب ذو مظهر جاد يتميز عما جاوره من الدكاكين . فعلى عدد من المناضد الصغيرة تجد عددا من الكتب وبعض الورق وهناك تجد رجلا لبيبا ، أمامه محبرة ، يكتب وهو مرتكز على ركبتيه . وقد انحنى نحو رجل آخر يجيب على أسئلته . فالكاتب رجل أهل للمشورة ، ويطلب رأيه فيما يشكل من الأمور فى هذه الحياة .

وقد قيل :

إنه فى الأحياء القديمة تجد الناس على سجيتهم ، يعاملون بعضهم بعضا فى يسر . فهو يحبون الحيوية والبهجة التى تتميز بها الشوارع الضيقة ، ويؤثرون الدكاكين الصغيرة وتلك الحياة التى هى أشبه بخلية النحل ، ويكاد المرء يقطع بأن ذلك ضرورى لسعادتهم . ومما يثير العجب فى هذه الأحياء هو ميل الناس إلى الحياة خارج البيوت ، وإقبالهم المشرق على الحديث ، والألفة الطيبة التى تجمعهم ، ورغبة التمتع بالحياة تشيع فى وجوههم البشر .

والظاهرة العامة بين النبلاء وذوى المكانة الاجتماعية ـ فيما عدا حالات نادرة ـ أنهم يمتطون الخيل فى الطرقات ، بينما يركب النساء الحمير . وليس هناك أطرف من رؤية هاتيك النساء وقد حططن على هذه الحيوانات الصغيرة التى تسير بهن . ويركب الحمير أيضا التجار الذين يرغبون فى إنجاز أعمالهم بسرعة .

وقد أوشك الحمار أن يختفى اليوم ، كاحد الحيوانات التى ترجع إلى عصر ما قبل الطوفان ، أما فى العصور الوسطى ، فكان هناك عشرون ألف حمار للايجار فى المدينة . وكانت تقف عند تقاطع الطرق ، تنتظر فى صبر الزبائن الذين يرغبون فى ركوبها سواء داخل المدينة أو خارجها . وذكر أحد الرحالة أنه وجد من الحمير بقدر ما هناك من كراسى السيدان ( يحمل عليها الأشخاص ) فى نابولى . أو من قوارب الجندول فى البندقية . أو العربات فى رومة . ومن أعجب الأشياء أن لكل دابة سائقها ، رجلا كان أم طفلا ، يهمز الحمار من الخلف ليدفعه على الاستمرار فى السير ، بحيث كنت ترى دائما طابورا من الرجال والدواب على طول الطريق . ويقال إنه من أطرف المناظر رؤية هذا العدد الضخم من الحمير ، ذلك الحيوان الوديع الطيب الذى يزين ببراذع كاملة من الحرير ، وقد طليت أذناه وعرفه وذيله باللون الأصفر .

ويقابل الخطو المتدافع للحمار المظهر الشامخ المتعالى للجمل : « ذلك الحيوان الغريب الذى يتهادى فى خطوته كالديك ويحرك رقبته كالبجعة » فهناك مواكب مهيبة لا تنتهى من الجمال المتهادية ، التى تابى إلا أن تسير فى خط مستقيم ، كان استقامة الطرقات تتوقف عليها . وفى الواقع كان متوسط عرض الشوارع الرئيسية مثل عرض جملين محملين بالقش يسيران جنبا إلى جنب . ونعرف من مصادر أخرى أن جملا واحدا محملا بأخشاب الوقود ـ أى عرض تسعة أقدام ـ يستطيع أن يسير فى هذه الشوارع .

وهناك حادثة غريبة وقعت فى شهر ايلول ( سبتمبر ) سنة ١٥٠٨ تدل على مدى خطورة هذه الأوضاع . فقد حدث بعد أن خيم الظلام أن قاد فلاح خلال الشوارع جملين محملين كتانا ، فامسك هذا الكتان النار من مسارج أحد الباعة ، فلما أحس الجملان بالنار اندفعا مذعورين نحو الجمهور ووطا باقدامهما المارة وقتلا عددا كبيرا منهم ، إلى أن سقطت الجمال على الأرض فى أخر الأمر[١] .

وقد لاحظ أكثر الرحالة انه لم تكن هناك حاجة إلى شوارع تسمح بمرور عربات تجرها الدواب . ويذكر لنا واحد منهم : « يجب أن تعلم انه لا يوجد فى مصر ـ إلا فى حالات نادرة ـ أماكن تستخدم فيها عربات سواء

---

( ١ ) بدائع الزهور ٤ : ١٣٥ .

للركوب أو النقل ، كما هو الحال في البلاد الغربية . فكل ما لا ينقل بالسفن أو الجمال يتم نقله على ظهور الحمير والثيران » .

وما من شك أنه وجدت أحيانا في القاهرة وائل أخرى للمواصلات ، ولكن هذه الحالات كانت من الندرة بحيث أن المؤرخين اهتموا بذكرها . ومثال ذلك أنه في سنة ١٣٦٩ ، نقل عمودان من الرخام بواسطة الزحافات والروافع ، وقد اتخذ الزجالون الشعبيون من ذلك موضوعا لقرائحهم . ورسمت على المناديل صور تمثل المنظر . وبعد ذلك بعدة سنوات ، قطعت حجارة من مقالع جبل المقطم ووضعت على عربات تجرها الثيران ومنذ ذلك الوقت أصبحت هذه الحجارة تسمى « حجارة العربات » ، وفي سنة ١٥١٢ ، أمر السلطان بأن تنقل المكاحل ( المدافع ) التي تم صنعها إلى الصحراء شمالي القاهرة حيث يمكن تجربتها . فوضعت على عربات سحبتها الأبقار . وعند مرور العربات بين الدكاكين في الشارع الممتد من القلعة إلى مسجد ابن طولون ، تبين أن عملية النقل فيه شاقة ، وقد تمت بعناء شديد . ثم حدث بعد ذلك أن انهارت أرض الطريق وسقط مدفع كبير في ممر تحت الأرض وتم إخراجه بعد جهد كبير[1] .

ومن الأشياء التي وجبت مقاومتها في هذه الشوارع الحرارة والغبار ، بحيث لزم رش كثير من الطرقات غير المرصوفة مرتين كل يوم . وقيل إنه في بعض الأماكن التي لم تكن ترش ، كان الغبار يرتفع كثيفا كالدخان ، وكان من العسير القول ما إذا كان هذا مجرد غبار أو أنه حريق.

كانت مدينة القاهرة ذاتها بعيدة عن النيل ، واستنفدت مشكلة نقل الماء جهود عدد كبير من الرجال والدواب . ويؤكد ابن بطوطة بأنه وجد في القاهرة ١٢,٠٠٠ سقاء يستخدمون الجمال و٣٠,٠٠٠ مكار يستخدمون البغال[2] . ويقدر فريسكوبالدي عدد الجمال وغيرها من الحيوانات التي استخدمت لتوزيع الماء في أرجاء المدينة بـ ١٣٠,٠٠٠ دابة . وفي بداية القرن السادس عشر ، لاحظ تريفيزانو أن ١٥,٠٠٠ جمل كانت تمضي إلى

---

( ١ ) انظر بدائع الزهور ٤ : ٢٦٠ - ٢٦٧ .

( ٢ ) رحلة ابن بطوطة : ٣٧ .

النيل مرتين يوميا لتحمل الماء اللازم لحاجات المدينة . ويبدو انه لم تعامل دائما هذه الحيوانات برفق . ومن دلائل ذلك أن « الف ليلة وليلة » تحاول ان تثير فينا الشفقة بقصة نحيب استرحام الحمار الذى حاول الفرار من المجتمع البشرى حتى لا يسخر فى نقل الماء .

وكان من الضرورى أن يزود كل مسكن بالماء وكذلك الحمامات العامة ، وان تملأ المساقى التى اقيمت لشرب الحيوانات والأزيار الفخارية التى كانت توضع على قاعدة وتغطى بلوح من الخشب وعليه كوب للشرب . وكان يوجد فى الشوارع رجال يحملون قربا من جلد الماعز مدلاة من اكتافهم ، ولها فوهات من القماش . وكانوا يبيعون للمارة ما يحتاجون إليه من ماء يطفىء ظماهم ، وكانوا يقدمونه فى كؤوس من الفضة أو النحاس . وكان بعض الأغنياء يؤجرون سقائين رغبة منهم فى تقديم هذه السلعة الأساسية صدقة للفقراء .

وكان السقاؤون المتجولون يحملون قربا من الجلد المصبوغ بالعصف . فقد ثبت ان ذلك يزيد فى متانة الجلد . ولا يمكن استخدام جلد البغل او اى جلد قذر متاكل . وكان على السقائين أن ياخذوا الماء من مناطق فى النيل بعيدة عن كل تلوث . فكانوا يصعدون فى النهر بصفة خاصة بعيدا عن مصارف الحمامات العامة ، أو ينزلون مسافة طويلة أسفل النهر . وكان السقاء ، إذا استعمل قربة جديدة ، فإنه لا يستخدمها لنقل الماء للاستعمال فى البيوت ، بل كان يبيع الماء منها للطواحين وعصارات النبيذ ومضارب الآجر . وكان يعلق حول اعناق الحيوانات الحاملة لقرب الماء اجراس او اطواق مصنوعة من الحديد او صفائح نحاسية بحيث تنبه إلى اقترابها الضرير والسرحان والصغار فى الأسواق العامة .

ويقال إنه كان هناك عدد كبير من الباعة المتجولين الذين يبيعون الأفراخ الصغيرة بالوزن وليس بالعدد كما هى العادة فى البلاد . ومما اثار عجب الرحالين جميعا انهم وجدوا فى مصر البيض يفقس « دون اية مساعدة من الدجاج »[1] . ويقولون إن هؤلاء القوم كانوا يستخدمون طريقة معينة

---

( ١ ) الخطط ١ : ٢٦ .

لفقس الفراخ . فكانوا يضعون ألف بيضة أو أكثر في أفران تحتوى على عدد من الرفوف ، ويوجد في الرف العلوى فتحة ، ثم توقد نار هادئة تحت هذا الفرن وتستمر على هذا النحو سبعة أيام ، تخرج بعدها أعداد كثيرة من الفراخ وتجمع بعد ذلك في صناديق ، وعند بيعها ، تكال بصاع بلا قاع يوضع في سلة المشترى ثم يملأ بالفراخ حتى يمتلىء ، وعند ذلك يرفع الصاع . ولقد أثارت هذه العملية نوعا من التأمل الفلسفى عند الرحالة بريدنباخ وهو في طريقه إلى بيت المقدس فقال :

بعد أن تفقس الفراخ بغير مساعدة الأم ، كانت ترسل كالأغنام إلى الحقول مع راع أو تباع في السوق . والشيء الذى لا يقبله العقل ، رغم انه صحيح ، هو أن هذه الطيور التى ولدت بواسطة فن الانسان وصنعته كانت أكثر استئناسا من الطيور التى ولدت بالطريقة الطبيعية ، وهى تتبع الانسان تماما كما تتبع الفراخ العادية أمها .

* * *

لقد حفظ لنا الرحالة الأوروبيون أوصافا متناقضة عن منازل المدينة ، ويفسر ذلك أن بعضهم تناول وصف القصور الغنية بينما وصف آخرون المساكن المتواضعة الفقيرة ذات الأسقف المسطحة المغطاة بالجريد . ولاشك أن المنازل الأكثر ثراء كانت أقل جودة من حيث البناء عن مثيلاتها في أوروبة . وقد بلغت في بعض الأحيان أربعة أو خمسة طوابق ، الجزء الأسفل منها مبنى من الحجر أو الآجر ، والجزء العلوى من الخشب الخفيف جدا والياف النخيل والجريد والطمى . وأسقف المنازل مسطحة بحيث يستطيع السكان أن يستروحوا فيها نسيم المساء البارد ، وكان بعض الناس ينامون فيها في الصيف .

كانت واجهات المنازل بسيطة للغاية وجدرانها خالية من أى زخرفة . والحلية الأساسية في الواجهة المطلة على الشارع هى المشربيات التى كانت تشكل بروزا في الجدار الخارجى للبيت . وهى مصنوعة من عدد لا يحصى من قطع الخشب الصغيرة المنحوتة ، ومرتبة ومركبة على نحو يكون أشكالا مختلفة . ومن ناحية عملية ، كانت هذه المشربيات « ترضى حب استطلاع من كانوا داخل البيت ، دون أن تكشف أمرهم من الخارج نظرات الفضوليين » . ولهذا ، خيم على منازل العصور الوسطى جو من السرية والغموض . ولقد قيل إن هذه البيوت حاولت بهذه الطريقة أن تخفى

ثراءها الداخلى ، ولكن لعل هناك سببا طبيعيا آخر يفسر بساطة المظهر الخارجى ، وهو ضيق الشوارع ، إذ يستحيل على المرء أن يذهب بعيدا ليتمتع بالنظر إلى واجهاتها الغنية .

كانت بيوت كبار القوم تبدو من الخارج متواضعة ، عادية ، عليها مسحة من الكآبة أما من الداخل ، فلا مثيل لها فى فخامتها وثرائها . وكأنها كما يقول أحد الرحالة : « بيت الرحمن وأبواب السماء » . وكان يزين هذه المنازل زخارف غنية رائعة قد رسمت بألوان مختلفة دقيقة . هذا ، إلى جانب استخدام الرخام وغيره من الحجارة الملونة . ويبدو أنه ساد فى الشرق اعتقاد بوجوب إخفاء الجمال ، كما كانت تحجب النساء فى الماضى ، وتلف المومياء من قبل بأشرطة من النسيج .

أما غرفة الاستقبال ، فكانت مرصوفة بالرخام المتعدد الألوان ليكون أشكالا من الأزهار وغيرها من الزخارف . وكان يقوم فى وسطها نافورة أو نافورتان من الماء تبقيان مفتوحتين بالليل والنهار طوال فصل الصيف . ووضعت حول هذا الحوض الكبير فى أماكن متفرقة أوان مليئة بأزهار الموسم . وكانت هذه النافورة ذات الماء الجارى تعتبر جزءا أساسيا فى بيوت الأثرياء ، وتكاد تقابل المدفأة فى الغرب . وتغطى الأرض بسط ، على الأقل عند الطرفين حيث يوجد الديوان . وهو عبارة عن مصطبة ترتفع عن الأرض بمقدار قدمين ونصف ، مغطاة بالسجاجيد الفارسية الثمينة والطنافس الحريرية المذهبة ، أو بنسيج رفيع ينتهى بذوائب ذهبية . فى هذا المكان ، يجلس الناس القرفصاء على نحو ما هو مألوف فى الشرق .

واشتمل المنزل الذى عاش فيه جان تينو فى مطلع القرن السادس عشر على :

ست غرف أو سبع مرصوفة بالرخام والمرمر وغيره من الحجارة القيمة ، قد رصت بمهارة فائقة ، كما غطيت الجدران بنفس الخامات ، بعد أن طليت بألوان ناصعة مثل الذهبى والأزرق وغيرهما . وقد فاقت مهارة الصانع روعة الخامات . ووجدت فى هذه الغرف نافورات ينبثق منها ماء بارد أو ساخن يجرى فى أنابيب مختفية . وعلى مقربة من هذا المكان تنمو أشجار ونباتات كثيرة للفواكه مثل الليمون بأنواعه والقرع العسلى والبرتقال والمشمش والكاسيا والتفاح . وكانت هذه الحدائق ترش كل صباح ومساء بماء أحضر من النيل بواسطة الثيران والخيول .

وغالبا ما كانت الجدران تغطى بالرخام إلى ارتفاع عشرة أقدام أو اثنى عشر قدما يعلوه افريز بديع صنع أحيانا من البرونز المذهب المرصع بالقيشانى الرائع الجمال ، ويتكون السقف من دعامات خشبية تترك بينها مجار غائرة .

ومما أعجب به الرحالة الغربيون الأساليب التى استخدمت للتغلب على حر الصيف . فبالاضافة إلى أحواض الماء ، فتحت فى السقف فجوات للتهوية تتجه نحو الشمال وتتصل بسرداب ضيق جدا يندفع الهواء عن طريقه بسرعة ليمتزج بالبرودة التى يخلفها الرخام والماء .

ويتلقى البيت القاهرى ضوءه من الفناء الداخلى وليس من الطريق . ونكاد نقطع بأن البيت بنى من الداخل إلى الخارج وأغلق أصحابه بعد ذلك المنافذ على الشارع . وكانت هذه المنازل من الراحة والبعد عن ضوضاء المدينة بحيث تسمح لسكانها بان ينأوا بانفسهم عن مشاغل أعمالهم وعن صخب المدينة ، وأن ينعموا بسويعات قليلة من الهدوء والراحة . وهناك ، خلف جدران هذه البيوت المغلقة ، يشعر المرء بالسكينة فى عزلة عن مشاغل الحياة اليومية . وبالقرب من النافورة فى صحن الدار ، يطيب للمرء أن ينعم بالتامل الهادىء على صوت خرير الماء وشدو الطيور .

ولم تؤثث هذه البيوت بالطريقة التى ننظم بها بيوتنا الآن ، فلم تشتمل مثلا على مطبخ ويذكر جميع الرحالة أن الأكل كان يجلب من الخارج ، ويؤتى به معدا ومطهوا من المطاعم التى كانت تنتشر فى المدينة . كما لم توجد كراس يمكن نقلها ، إذ يجلس الناس على أرائك مغطاة بالبسط والطنافس . ولم توجد أيضا حشيات بالمعنى المعروف الآن ، وكان البساط كافيا . وهذا هو ما يعنيه جوبينو بقوله : « إن ما يسميه بعض الناس تقشفا كان يعتبر هنا غاية فى البذخ » . وكانت أباريق الماء تحفظ فى كوة صغيرة ، كما أن عدد الأوانى النحاسية من أباريق وصوان وأكواب كان يتوقف على ثراء صاحب البيت . كما وجدت صناديق كثيرة مليئة بالحلى والخزف والسجاجيد النفيسة والوسائد ذات الأغطية المصنوعة بخيوط من الذهب والفضة . ومن أقيم ما اشتملت عليه ثروات هذه البيوت المنسوجات الثمينة ، ويدل على ذلك انه فى فترات المحن كانت المنسوجات اول شىء يخبأ فى أماكن آمنة .

يهدف التصميم العام للبيت إلى ستر الحياة الداخلية للنساء ، وأن

يصون الحياة المنزلية من أعين الغرباء . وبسبب التعاريج فى مدخل البيت ، أمكن ترك الباب مفتوحا ، رمزا للكرم ، ولا يستطيع أحد من المارة ان يقتحم المنزل . ويؤدى هذا الدهليز الملتوى إلى صحن الدار . وأهم مكان فى البيت هو غرفة الاستقبال التى كانت خاصة بالرجال .

* * *

ومن الواضح ان المنازل بنيت بحيث تسمح بالمحافظة على بقاء النساء محجوبات . ومع ذلك ، فليس صحيحا أن نظن أن النساء كن محرومات من كل حرية ، فلعل القصص التى جاءتنا عن العالم الشرقى بالغت فى وصف امور أخرى كثيرة ، ولكنها صريحة تماما فى روايتها لألاعيب النساء . فكان النساء يخرجن ويقصدن الحمامات العامة ـ على سبيل المثال ـ وهى مسألة لا يستهان بها . وكن يحضرن الأعياد والاحتفالات العائلية وحفلات الزواج والميلاد ، كما يذهبن إلى الحج ويحتشدن عند الأضرحة . ونستنتج من الطريقة التى نظمت بها منازل القاهرة وأثثت ، أن رب الأسرة كان يراعى رأى زوجته . فالنساء هن اللائى كن يتمتعن بفخامة البيت وبذخه ورونقه ، وكن ينعمن بجمال حدائق الزهور الداخلية .

ولابد أن النساء تمتعن بقدر كبير من الحرية إذا كان لنا أن نحكم من القيود التى فرضها دعاة الفضيلة من المتزمتين . فقد اعتقدوا انه لا يليق بالنساء أن يزرن المقابر ، ولا أن يقمن فى بيوت تطل على الخليج أو البرك ، بسبب المناظر التى يمكن أن يشاهدنها . وللسبب نفسه ، لا ينبغى للنساء أن يسافرن فى القوارب ، ولا أن يحضرن الاحتفال بالمحمل .

وحسب هذه المبادىء الصارمة ، لا ينبغى أن تخرج النساء إلا عند الضرورة ، ويجب عليهن أن يرتدين اقدم ملابسهن . وكانت تغطيهن تماما عباءة تصل إلى الأرض . ولا ينبغى أن يلبسن أجمل ملابسهن ويسرن فى خيلاء فى الشوارع . ويعتبر وجود النساء عند تجار المنسوجات والحلى أو ابتسامهن عند الكلام معهم عملا شائنا . وكانت رؤية النساء فى الأسواق فى القاهرة امرا مالوفا ، لدرجة أن احد القضاة استنكر أن التجار حيوا بعض النساء من غير المسلمات ، فى ملابس غاية فى البذخ ، ظنا منهم أنهن مسلمات . وفى « ألف ليلة وليلة » تقع معظم المغازلات فى سوق الأقمشة .

من الناحية النظرية المحضة ، كانت هناك ثلاثة أسباب فقط لمغادرة المرأة المنزل : ذهابها إلى بيت زوجها ، وحضورها جنازة والديها ، ودفنها

عند موتها . ولكن فى الواقع ، كان هؤلاء النظريون المتزمتون يعرفون جيدا أن كلامهم كان مجرد صيحة فى واد ، وأن النساء كن يذهبن كل اسبوع لزيارة ضريح سيدنا الحسين وضريح السيدة نفيسة .

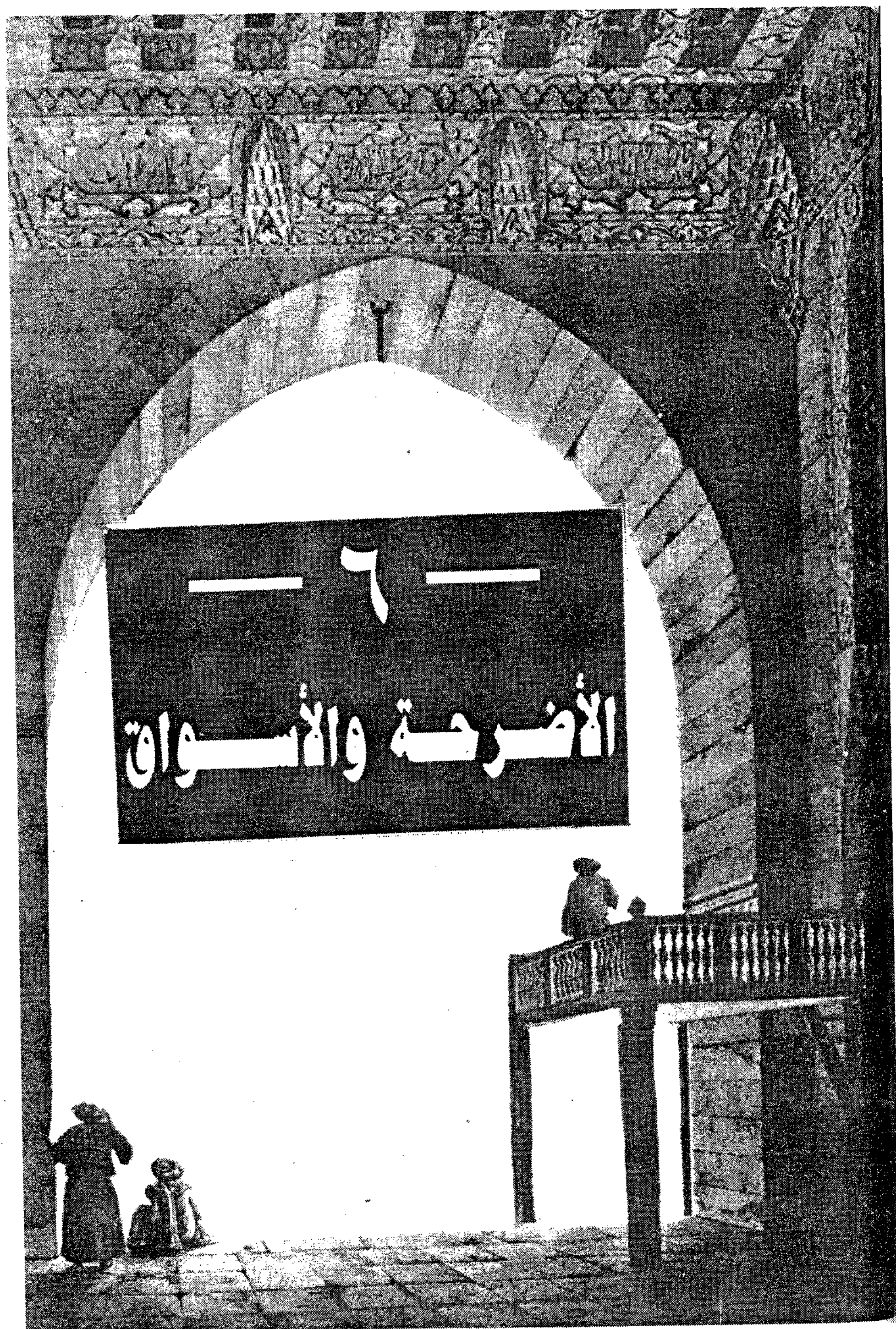
وقد رأى فريسكوبالدى نساء القاهرة على هذا النحو :

ملابس النساء بصورة عامة مصنوعة من اقمشة جيدة النسج ، وملابسهن الداخلية مصنوعة من الخام ، أو من أرقى أنواع الكتان الاسكندرى بالنسبة لأثرياء النساء . وتلبس بعض النساء ثوبا قصيرا من القطن يصل إلى الركبة ، وفى هذه الحالة كن يلبسن فوقه نوعا من الرداء الرومانى . وهن متحجبات تغطيهن الملابس ، ولا يرى منهن غير الأعين . وتضع نساء الأسر الكبيرة أمام أعينهن نقابا اسود من الموسلين السميك يحجب وجوههن عن الأعين بينما يسمح لهن بالرؤية الواضحة . ويلبسن فى اقدامهن احذية بيضاء ذات رقبة قصيرة ، بينما تغطى أرجلهن جوارب طويلة وسراويل تصل إلى الكعب . وتطرز نهاية هذه السراويل بخيوط من الحرير أو الذهب أو الفضة ، أو تحلى بالأحجار الكريمة أو اللآلىء ، حسب وضع السيدة فى المجتمع .

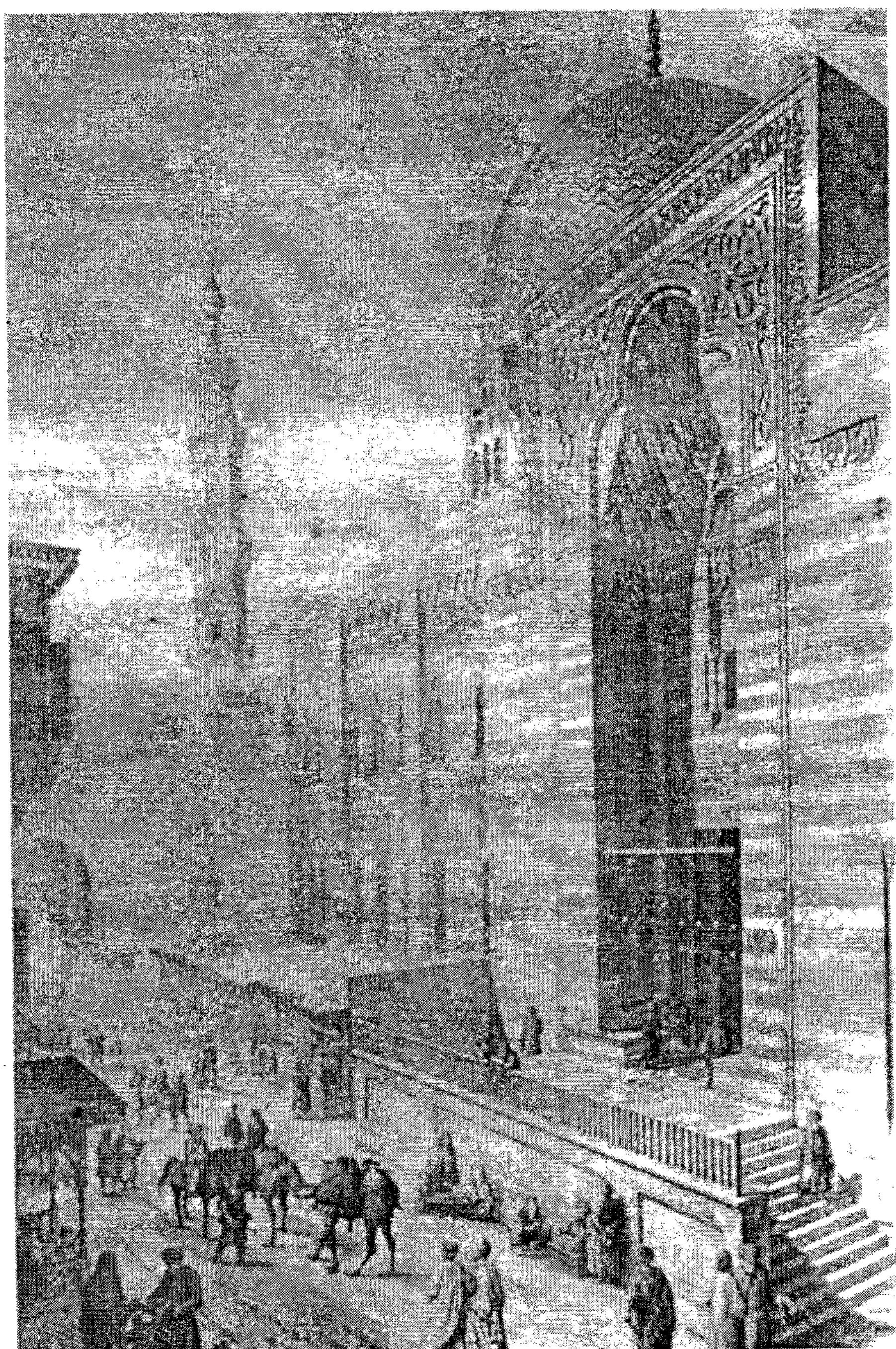
ويضيف تريفيزانو إلى ذلك قوله :

لا يظهر من جسم المرأة سوى الأيدى ، وهذا من النادر أيضا . وعند ذهابهن إلى المدينة ، كن يلبسن ثيابا بيضاء ويمتطين الحمير . وتشاهد ايدى بعض النساء واظافرهن مطلية بالحناء . وهن ينفقن المال الكثير فى شراء الحرير والروائح العطرية من الأسواق .





# ـ ٦ ـ
# الأضرحة والأسواق



كانت الأسواق فى القاهرة ، كما كانت فى سائر المدن الشرقية ، تمتد الى ما لا نهاية . وفى ذلك يقول المقريزى (١) :

والقصبة هى أعظم أسواق مصر ، وسمعت غير واحد ممن أدركته من المعمرين يقول ان القصبة تحتوى على اثنى عشر ألف حانوت ، كأنهم يعنون ما بين أول الحسينية مما يلى الرمل الى المشهد النفيسى ..

ومن اعتبر هذه المسافة اعتبارا جيدا لا يكاد أن ينكر هذا الخبر . وقد أدركت هذه المسافة بأسرها عامرة الحوانيت ، غاصة بأنواع المآكل والمشارب ، والأمتعة ، تبهج رؤيتها ، ويعجب الناظر هيئتها ، ويعجز العاد عن احصاء مافيها من الأنواع فضلا عن احصاء مافيها من الأشخاص . وسمعت الكافة ممن أدركت يفاخرون بمصر سائر البلاد ويقولون : يرمى بمصر فى كل يوم ألف دينار ذهبا على الكيمان والمزابل . يعنون بذلك ما يستعمله اللبانون والجبانون والطباخون من الشقاف الحمر التى يوضع فيها اللبن ، والتى يوضع فيها الجبن ، والتى تأكل فيها الفقراء الطعام بحوانيت الطباخين ، ومايستعمله بياعو الجبن من الخيط والحصر التى تعمل تحت الجبن فى الشقاف ، وما يستعمله العطارون من القراطيس والورق القوى والخيوط التى تشد بها القراطيس الموضوع فيها حوائج الطعام من الحبوب والافاوية وغيرها . فان هذه الأصناف المذكورة ، اذا حملت من الأسواق وأخذ ما فيها ألقيت الى المزابل ..

ويصف التجار أكوام الخبز وغيره من الأطعمة على الأرض ، وكثيرا ما وجهت الالتماسات الى المسئولين ليمنعوا أولئك القوم من عرض بضائعهم فى الأسواق العامة نظرا لأنهم يسدون الشوارع الضيقة ويتسببون فى الاضرار بمصالح أصحاب الحوانيت ..

ويوجد وراء باب الفتوح سور مسجد الحاكم بمآذنه المربعة التى تتفق هندسيا والأسوار المحيطة بها ، ويذكرنا هذا المسجد بأعمدته القصيرة الغليظة بتصميم مسجد ابن طولون ، ويصف ماريلا مسجد الحاكم بقوله : « لم يبق منه سوى بقايا مذهبة تبعث على الحسرة ، وعقود ترتفع فى أنف نحو السماء الصافية ، وأعمدته قائمة مشوهة . وفى وسط هذا

---

(١) الخطط ٢ : ٩٤ ـ ٩٥

الدمار تجد قافلة قد حطت رحالها بعد ان هدها العناء الذى يحدثه الصراع بين الظل وحر الشمس اللافح »

وفى داخل باب الفتوح ، توجد حوانيت القصابين وتجار الحبوب والخضر وغيرهم من الباعة، وهو اشهر أسواق القاهرة وأكثرها ازدحاما ويقصدها الناس من كل مكان فى البلاد ليشتروا جميع أنواع الخضر وشتى أصناف اللحوم من ضان وبقر وماعز . وكان القصابون يلفون اللحم فى اوراق شجر الموز ..

وغير بعيد من هذا المكان ، يقع سوق المرحلين ، وهى سوق اختصت ببيع ما يحتاج اليه فى ترحيل الجمال وكل شىء أخر يتعلق باردية الابل . ويؤمها الناس من كل أرجاء مصر ، وخاصة قبل موسم الحج ، فكل من أراد أن يعد مائة جمل أو أكثر فى يوم واحد ووجد مشقة فى تحقيق ذلك يمكنه أن يحقق غايته هنا نظرا لوفرة كمية المعدادت اللازمة فى المتاجر ومخازن التجار ..

وعلى طول الطريق من باب الفتوح الى المسجد الأقمر . يباع الطعام ، من لحوم نيئة ومطهوة وخبز وزيت وجبن ولبن وخضروات وانواع التوابل المختلفة ، كما وجد عدد كبير من المحلات حيث تباع الأطعمة المشوية والمحمرة ليلا ونهارا . وهناك ، الى جانب ذلك ، الطهاة المتجولون ، ليس فى هذا المكان فحسب وانما فى شتى ارجاء المدينة . اذ يبدو أن سكان القاهرة قلما كانوا يعدون طعامهم فى البيوت ، وكانوا يشترونه مطهوا معدا من المتعهدين وكبار الطهاة الذين انتشروا فى انحاء المدينة وتخصصوا فى هذا النوع من العمل . فيقال انه وجد عدد يتراوح بين عشرة آلاف واثنى عشر الف طاه يتجولون فى شوارع المدينة ويحملون على رؤوسهم افرانا موقدة عليها اوعية ساخنة أو لحم يشوى على السفود ، يقدمونها ساخنة لمن يطلبها . ويضيف فريسكوبالدى ان الطهاة كانوا يجهزون الطعام فى أوعية نحاسية جميلة . ويقال إنه من المالوف أن يجلس أهل المدينة وياكلوا فى الشوارع ، مادين على الارض رقعة من الجلد يضعون عليها وعاء يحتوى على طعامهم ويجتمعون حوله جالسين القرفصاء . وهكذا ، كان القوم ياكلون ما يشترونه من تلك المطابخ التى كانت مزودة بكميات وافرة من اللحم وخاصة الضان والدجاج والأوز ، وبكمية أكبر من الأرز والمقليات بالزيت . وبعض التفصيلات الأخرى تخبرنا :

ان الطهاة كانوا يقطعون اللحم الى قطع صغيرة يضعونها فى السفود ، كما نفعل نحن بصغار الطيور ، ثم يصفونها على افران لا غطاء لها . تنضج اللحم فى لحظات . وأحيانا يشوون حملا كاملا وبعد نضجه يحمله رجل على كتفيه ويضع على راسه منضدة متنقلا بها فى الشوارع مناديا : اللى عايز ياكل لحمة ؟ » ونظرا لعدم وجود فنادق تقدم الطعام ، كان الغرباء مضطرين الى الأكل حيث يكونون .

وإذا تابعنا السير فى الطريق ، نرى ناحية اليسار الواجهة الضيقة للمسجد الأقمر بطابعها الحزين الخلاب . ولنقف قليلا نتامل روعة ذلك البناء . قد لايروعك مظهره عند مقارنته بالأبواب الضخمة عند مدخل المدينة أو بالأبنية الجليلة التى أقامها المماليك والتى سنراها بعد قليل ، ولكن هناك اكثر من سبب يدعونا للاعجاب به . فهنا تمكن العالم الاثرى من أن يحل مشكلات عدة تتعلق بتطور فن الزخرفة الاسلامية . اما بالنسبة للفنان ، فهو مثال للتعبير الهادىء والبساطة الأخاذة . وتعتبر هذه الجوهرة من أكثر اعمال الفاطميين جمالا ..

وعلى مقربة من هذا المسجد ، كانت تقوم سوق الشماعين ، ترى بها أشرطة الاضاءة للمصابيح والمشاعل التى يحملها رؤساء دوريات الحراسة ، والشموع الضخمة التى كانت تستخدم فى المواكب . وبطبيعة الحال ، لم تعد تصنع فى ذلك الوقت الشموع التى كانت تثبت على مؤخر الدواب زمن الاخشيديين ( كان راكبو الدواب مضطرين للتلفت خلفهم بصورةمستمرة للتاكد من موضع الشموع ) . وكانت الحوانيت تظل مفتوحة الى ساعة متاخرة من الليل ، وأصبحت ملتقى المومسات اللائى أطلق عليهن نتيجة لذلك اسم نساء الشماعين الفاجرات ، وكن يرتدين ملابس زاهية الألوان ليسهل التعرف عليهن..

ويلى هذه المنطقة مباشرة ، من ناحية الشمال ، تجاه باب النصر ، سوق البرازين ، مكتظة بتجار الاقمشة ومن يتصل بهم من أصحاب الحرف ، مثل النساجين والحلاجين والصباغين والرفائين والخياطين والغسالين والكوائين والرسامين ـ وبعبارة اخرى ، كل من لهم علاقة بصناعة المنسوجات . وعلى مقربة منهم ، كان هناك آخرون من أصحاب الحرف المتخصصة ، مثل أولئك الذين كانوا يصنعون الضبب التى برسم الابواب ، وهى أقفال عجيبة بهرت الرحالة الاوربيين . ويقول أحد أولئك الرحالة :

تصنع الأقفال والمفاتيح من الخشب فقط ، بما فى ذلك اقفال أبواب المدينة . والمفتاح يتكون من قطعة من الخشب يبلغ طولها نصف قدم وعرضها بوصة وهي فى سمك الأصبع الخنصر ، ومثبت فى طرفها ستة أو ثمانية مسامير من النحاس أو حتى من الخشب طولها حوالى بوصة واحدة . وعندما تقابل تلك المسامير مثيلاتها داخل القفل ، ترفعها وينفتح القفل ..

وكان يوجد بالقرب من هذا المكان ، فى القرن الرابع عشر ، سوق العبيد ، الذى نقل فيما بعد الى خان الخليلى الذى ذاع صيته وأصبح الرحالة يهتمون بوصفه ابتداء من القرن السادس عشر . هنا كان يعرض الرجال والنساء للبيع وأكثرهم كانوا عراة سوى قطعة من القماش تستر عوراتهم . ويقوم المشترون بفحص جميع أجزاء الجسم ليتاكدوا من سلامة ابدانهم ، كما يفعل المرء الآن عند شراء الخيول . « وكانوا يتحسسون العبيد بايديهم بكثرة ، فالأيدى تختبر سلامة عضلات الساق ، ورقة الجلد ، وصلابة الصدر ، وحجم قبضة اليد القوية » . وكان يعرض خليط من النساء : التركيات واليونانيات والجركسيات والجورجيات والحبشيات . ونكاد نسمع بآذاننا نداءات النخاس وهو يردد بصوت مازح تلك العبارات الواردة فى كتاب « الف ليلة وليلة » : « أيها التجار الأثرياء ، ليس كل ما استدار جوزة ، ولا كل من استطال موزة ، ولا كل ما احمر لحما ، ولا كل سمراء تمرة .. أيها التاجر كم تدفع لهذه الجوهرة الفريدة التى تفوق قيمتها جميع أموالك ؟ من يقترح العرض الأول ؟ » .

وخلف المسجد الأقمر من ناحية الجنوب ، كان هناك ذلك السوق الفسيح للدجاجين ، وكان يباع فيه من الدجاج والأوز شىء كثير جليل الى الغاية . وفيه حانوت فيه العصافير التى يبتاعها ولدان الناس ليعتقوها . كما كانت تباع بها بكرة طيور المسموع من أصناف القمارى والهزارات والشحارير والببغا والسمان فى اقفاصها [1] .

نصل بعد ذلك الى حى من أمتع احياء القاهرة وأكثرها ازدحاما ، وهو شارع بين القصرين ، الذى ترجع تسميته الى العصر الفاطمى ، وكان فى ذلك العصر منطقة كبيرة خالية من المبانى والمنشآت ، تسع نحوا من عشرة الاف جندى سواء من الخيالة أو المشاة . فكانت تقام فى هذا المكان المواكب

---

(١) انظر الخطط ٢ : ٩٦ .

والاستعراضات العسكرية . وبعد زوال الفاطميين ، حين سكن امراء الأيوبيين وضباطهم القصور الخالية ، تحول المكان الى سوق للاطعمة ، بأنواعها المختلفة ، من لحوم وفطائر وفواكه وغير ذلك من الوان الطعام .
ومع ذلك ، فقد ظل مكانا ممتعا يحلو للنبلاء وعلية القوم أن يسيروا فيه في المساء للترويح عن النفس ومشاهدة الأضواء المنتشرة المنبعثة من المصابيح والثريات . وكثيرا ما أحتشد الناس لسماع ملاحم السير والقصص التاريخية أو لمشاهدة الألعاب المختلفة ..

بعد ذلك ، انشىء في هذا المكان مجموعة من المباني الرائعة ، مما جعله يتحول الى ما يمكن أن يسمى بمتحف حقيقي للعمارة . فهناك ، أولا ، مدرسة السلطان برقوق ، التي تلفت النظر بجدرانها العالية ومئذنتها القصيرة الغليظة . وبعد ذلك بمائة سنة ، قامت المبانى التى انشاها السلطان قلاوون وابنه محمد . ومما يثير الاهتمام ، بوابة غريبة نعرف انها كانت بابا لكنيسة للفرنجية أحضر من فلسطين ولم يؤخذ كغنيمة حرب ، على انه يدل على اختيار رجل ذى ذوق رفيع . واذا ما يممنا شطر الشرق وعرجنا قليلا ، نصل الى ضريح الملك الصالح أيوب ، خصم القديس لويس ..

هذه المبانى التى ترجع الى عصور مختلفة وتتميز بأساليب معمارية متباينة وتخدم غايات متفرقة ، تقف جميعها جنبا الى جنب دون أن يشعر الانسان باى تناقض بينها ، بل انها لتكون معا نسقا واحدا . ولعل ذلك راجع الى شدة الضوء واستقلال المبانى مما يسمح بتميز الأشياء عند النظرة الأولى . نحن هنا امام مجموعة فريدة ومثيرة من المبانى التاريخية . ويزين المبانى الأربعة التى تكون الواجهةالغربية صفوف من النقوش التى تبعث فى نفس الزائر شعورا بسحر فن الكتابة العربية ..

ووجد فى هذا المكان أيضا ، عند بداية العصر المملوكى ، سوق السلاح ، حيث تباع القسى والسهام والدروع ، ولكنه نقل فيما بعد الى مكان قريب من القلعة ..

ونظرا لتوسط هذا الموقع بين الأسواق على طول المحور الممتد من الشمال الى الجنوب ، فقد وجد به عدد كبير من الصيارفة الذين اتخذوا مواقعهم فى هذه المنطقة . وتجد على مسافة غير بعيدة ، مصاطب سوق الصناديقيين حيث كانت تعرض الحلى . وهذه الصناديق الصغيرة

مصنوعة من الحديد المتشابك وتحتوى على خواتم واختام وأساور وخلاخيل ..

وإذا استانفت السير ، وجدت باعة الأمشاط والوراقين وصانعى الحلوى ( الكعكيين ) المزودين بكميات كبيرة من الفستق واللوز والزبيب . والى جوارهم ، يعرض المهاميزيون أنوعا شتى ، من ابسطها المصنوع من الحديد الى افخمها المصنوع من الفضة أو الذهب الخالص . وكانوا يصنعون أيضا سائر اطقم الخيل . وعلى مقربة من هذه السوق ، كان يقوم سوق السروجيين ، حيث تشاهد اللجم والسيور ، وبصفة خاصة اللجم المصنوعة من الجلد المصبوغ بألوان مختلفة ، منها البسيط ومنها المطلى بالذهب والفضة . وبعد ذلك تاتى متاجر باعة المنسوجات المستوردة التى كانت تستخدم فى اغراض الرياش والوسائد وبطانة السروج ، وقد زاد الاقبال على تلك الأقمشة عن طريق الطبقة المتوسطة فى القرن الخامس عشر .

نأتى بعد ذلك الى مبانى السلطان الغورى التى تكشف عن ذوق رجل محدث الثراء ، ان جاز لنا أن نطلق على مملوك مثل هذا الوصف . فاعماله تمثل اسلوبا ينتمى الى طبقة نبيلة منحلة . فهناك تقليد ضعيف لأعمال فنية ترجع الى عصور الاصالة السابقة . فهذا الفن الذى يمكن أن يوصف بالحذلقة الشديدة والمظهرية انتشر وأوشك ان يتخذ له قواعد مدرسة محددة . ويمكن أن نقول ، بعد مقارنة هذه الأعمال بسابقاتها ، ان صناع السلطان الغورى بالغوا فى اعمالهم محاولة منهم فى أن يخلفوا لنا نماذج من أسلوب وشيك الزوال . فرغم اتقان الزخرفة من ناحيةالصنعة ، فهى مجرد استمرار لما سبقها دون أن يكون لها اية شخصية قائمة بذاتها . وان مقدرة الفنانين التى لايمكن انكارها لتكشف عن دراية بفنون الصنعة أكثر مما تدل على عبقرية خلاقة . فقد يسرنا ، مثلا ، دون أن يحركنا ، مظهر الكتابة الهزيلة التى تبعث على السخرية ، خالية من مظاهر الجدية والقوة . ويمكن تعريف عمل هؤلاء الفنانين الصغار بانه مجهود محمود قام به تلميذ مجد ، ففنانو هذه الفترة يميلون الى المبالغة فى التنميق بالنسبة الى زخرفة قد استكملت تنميقها ، دون أن يدركوا أن فى البساطة جمالا اكثر .

وكان يقوم فى جوار الجامع الأزهر ، غير بعيد من هذا المكان ، سوق

الفرائين ، وتباع فيه انواع الفراء كالسمور والوشق والعمائم والسنجاب . فكان يستخدمها ، في اول الأمر ، قواد السلطان وكبار الموظفين ، ثم استخدمها بعد ذلك ، في نهاية القرن الرابع عشر ، نساء الطبقة الثرية ..

وكان هناك في هذه المنطقة ايضا سوق النجارين حيث تباع المحفورات الخشبية ومن اشهرها ، بطبيعة الحال ، المشربيات . ولم يكن بمقدور هؤلاء الصناع الذين استخدموا أصابع اقدامهم في العمل ان يصلوا بصنعتهم الى تلك الدرجة من المهارة والدقة والسرعة لو انهم استخدموا ايديهم ..

وخلف الموقع الذى شيدت عليه مبانى السلطان الغورى ، في اوائل القرن السادس عشر ، وجدت في القرن الرابع عشر سوق مزدهر للكفتيين ، لصناعة النحاس المكفت . فهذه الأوعية الجميلة المطعمة بالذهب والفضة واشتملت على الصوانى والطاسات والاباريق والعلب الصغيرةوالمباخر . ولايكاد يوجد بيت بالقاهرة أو مصر يخلو من عدة قطع نحاس مكفت . ولكن هذه الطبقة من الصناع كادت تنقرض تماما خلال القرن الخامس عشر .

وفى هذا الوقت . كانت المئذنتان قد تم تشييدهما بمهارة فائقة فوق باب زويلة ، وهو الحد الجنوبى للمدينة الفاطمية . وهما تكونان جزءا من المسجد الذى اقامه الملك المؤيد والذى سنعرض لمشرفاته الغربية بعد قليل ..

وكان باب زويلة ايام المماليك يكون مدخل السلاطين الى المدينة من جهة القلعة ، وعليه كانت تعلق جثث المجرمين الخطرين ، وخاصة اسرى الحرب ، لتكون عبرة للناس . وهو في ذلك يشبه شارع الاستراباد في باريس الذى اقيمت عنده المقاصل .

على مقربة منه كان يقوم سوق الحلاويين ، وهم الذين تخصصوا في عمل الحلوى الملونة والدمى المصنوعة من السكر ،ولقد استاء المسلمون المتعصبون لمنظر بيع الحلوى على صورة الانسان او الحيوان او الحصان او الأسد أو القط . وروى المقريزى (١) :

ولقد رأيت مرة طبقا فيه نقل وعدة شقاف من خزف أحمر ، في بعضها لبن . وفى بعضها انواع الأجبان ، وفيما بين الشقاف الخيار والموز ،



(١) الخطط ٢ : ٩٩ ـ ١٠٠

وكل ذلك من السكر المعمول بالصناعة . وكانت ايضا لهم عدة أعمال من هذا النوع يحير الناظر حسنها ..

وفى سوق آخر مجاور كانت تباع الآلات الموسيقية مثل القيثارة والعو وكان هذا المكان ملتقى أصحاب المجون والشخصيات الخليعة .

وكثيرا ما حدثنا الرحالة عن ثراء سكان القاهرة ، فذكر أحدهم فى أسلوب شاعرى : « اذا كان لى ان أصف ثراء هذه المدينة فلن يكفينى هذا الكتاب . إذ لو أمكن ضم مدن رومة وميلانو وبادوه وفلورنسة وأربعة أخرى من المدن بعضها الى بعض ، اقسم انها جميعا لاتحتوى على نصف ثروة القاهرة » فقد تمتعت القاهرة بحركة تجارية ضخمة نظرا لأن البضائع تدفقت عليها من الهند والحبشة وشمال افريقية و آسيا الصغرى واوربية . فكانت ترى بها كميات كبيرة من الحرير ، والأصباغ القرمزية ، والماس المتلألىء ، والأحجار الكريمة ، والزجاج الملون ذى النماذج الجميلة الذى كان يصنع فى دمشق فى ذلك الوقت ، ثم هناك الأوانى الذهبية والفضية والنحاسية قد نقشت فى أسلوب شرقى بفن رفيع . ويمكننا أن نضيف أيضا انه وجد فى هذه المدينة ، كما هو الحال فى مصر بأسرها ، أنواع الورد والأزهار والفواكه المختلفة فى جميع الفصول وبأسعار معتدلة .

ويوجد فى انحاء المدينة المختلفة أسواق متعددة وساحات عامة شيدت لأغراض التجارة ، وهى التى تسمى « قيسارية » ، وقد خصصت كل واحدة منها لبيع سلعة معينة . وبعضها يبيع الأشياء التى تجلبها القوافل من الحبشة مثل العقاقير والببغاوات والتبر . وقد كان هناك سوق خاصة لكل من الأحجار الكريمة والمنسوجات والاقمشة الثمينة وغيرها من المصنوعات ، وعلى المرء اذا أراد شراء شىء أن يعرف السوق المختصة به ومحتوياتها من البضائع . وبعض الأسواق مكشوف وبعضها مسقوف ، وكانت هناك قوانين مرعية تحكم هذه الأسواق وقد اعتقد الجميع انها بلغت مستوى عاليا فى القاهرة ، وكنت تجد فى كل واحدة من هذه الأسواق جمعا غفيرا من الناس لأنهم اعتقدوا انها المكان الأصلح لهم فى المزايدة الجماعية ، كما هى الحال فى بورصات باريس وانتويرب وليون .

ويقول سيمون سيجولى :

تزخر المدينة بكميات كبيرة من البضائع من شتى الأنواع ، وخاصة

التوابل بانواعها ، التى تجلب من بلاد الهند عبر المحيط والبحر الأحمر ، ثم تفرغ عند ميناء الطور الذى يقع على مسافة خمسة عشر ميلا اسفل جبل سيناء . وهناك وفرة من السكر الأبيض كالثلج . والصلب كالحجر ، وهو خير سكر فى العالم . وتنقل البضائع ، بعد تفريغها فى هذا الميناء ، على ظهور الجمال عبر الصحراء الى القاهرة . وتستغرق هذه الرحلة ثلاثة عشر يوما لا يرى اثناءها بيت أو جدار ، وكل ما يرى هوالجبل والسهل الرملى تغطيه الحجارة والحصى ..

ويحلو للمقريزى ان يطيل الحديث فى وصف رخاء اسواق القاهرة ، ولكن كل جملة من كلامه تنتهى بعبارة من الأسى تذكر بزوال معظم الدكاكين . وكم تالم مؤرخنا للمنظر الحزين الذى كانت عليه الأسواق فى ايامه ـ فى منتصف القرن الخامس عشر ـ حين اصبحت « أوحش من وتد فى قاع (١) » . وهو تصوير صحيح . فنحن نلاحظ ، فى القرن الخامس عشر ، انحطاط جميع الصناعات الفنية واختفاء بعضها تماما مثل صناعة الزجاج المطلى بالميناء والنحاس المطعم . ومع ذلك فمن المفيد ان نورد وصف ليو الأفريقى ( وهو ابو الحسن الوزان الفاسى ) الذى لايخلو من حماسة فى الربع الأول من القرن السادس عشر :

تمتلىء المدينة بالصناع والتجار ، ويكثرون بصفة خاصة فى شارع يمتد بين باب النصر وباب زويله : فهنا يقيم اكثر نبلاء القاهرة . ويوجد فى هذه الطريق عدد من المدارس التى تثير الاعجاب بسبب حجمها وارتفاعاتها الرائعة الجمال . وهناك ايضا عدد من الحمامات العامة التى بنيت بفن معمارى رفيع .

ويضم احد الأحياء ، وهو الذى يسمى بين القصرين ، محلات تبيع اللحم المطهو ، ويبلغ عددها ستين محلا تقريبا ، مزودة باطباق من الصفيح . وفى محلات اخرى ، يباع ماء الزهر وماء الورد المعروف بطيب مذاقه ، ولهذا تقبل عليه الأسر الكبيرة . وهو يحفظ فى قنان من الزجاج أو فى علب من الصفيح مزينة برسوم فنية . وهناك حوانيت أخرى تختص ببيع أنواع ممتازة من الحلوى تختلف عن تلك التى تباع عادة فى أوروبة . وهناك نوعان من هذه الحلوى ، نوع يصنع من العسل وآخر يصنع من السكر . ويأتى بعد ذلك تجار الفاكهةالذين يبيعون الفواكه السورية التى

---

( ١ ) الخطط : ٢ : ٩٦ .

لاتنمو فى مصر مثل الكمثرى ( الأجاص ) والسفرجل والرمان . ويتخلل هذه الحوانيت محال اخرى تبيع المقليات من البيض والجبن . وعلى مقربة منها منطقة يشغلها بعض أصحاف الحرف الرفيعة .. وبعد ذلك توجد المدرسة الجديدة التى بناها السلطان الغورى ، وبعد المدرسة توجد « فنادق » المنسوجات ( أى أسواقها ) وكل فندق يشتمل على عدد كبير من الحوانيت . ففى الفندق الأول ، تباع الأقمشة الأجنبية من أحسن الانواع ، مثل تلك التى تاتى من بعلبك ، وهى نسيج قطنى رفيع ، والمنسوجات التى تاتى من الموصل ، وهى التى حازت اعجاب الناس بسبب رقتها ومتانتها ويستخدمها علية القوم ورؤساؤهم لقمصانهم وعمائمهم . وبعد ذلك تاتى الفنادق التى تباع فيها اجمل الاقمشة الايطالية مثل الحرير الدمقس والمخمل والتفتاه والبروكار . وأوكد لك بأننى لم أر مثيلا لها فى ايطالية حيث صنعت . وبعد ذلك تأتى فنادق المنسوجات الصوفية التى تاتى من جميع الدول الأوروبية . فاقمشة من البندقية وميورقة وهولندة . وهناك مكان لبيع الأقمشة المصنوعة من وبر الجمال . وشيئا فشيئا نصل الى باب زويله ، حيث يوجد عدد كبير أيضا من الصناع . وبجانب هذا الطريق ، نرى فندقا يدعى خان الخليلى حيث التجار الفرس ، ويبدو هذا الفندق كقصر عظيم . فهو مرتفع البناء متينه ويتكون من ثلاثة طوابق . وفى الطابق السفلى يستقبل التجار زبائنهم ويبيعون البضائع الثمينة ، ولاتجد فى هذا الفندق إلا اثرياء التجار الذين يبيعون التوابل والأحجار الكريمة والأقمشة الهندية الثمينة .

وعلى الجانب الآخر من الشارع الرئيسى ، يوجد جزء خاص بتجار الروائح العطرية الذين يبيعون الزبد والمسك والعنبر واللبان الجاوى . وتوجد هذه المنتجات بوفرة بحيث انك اذا أردت أن تشترى درهم مسك من تاجر أراك مائة رطل منه . وهذا أمر عجيب . والمنطقة التى يباع فيها الورق المصقول الجميل تتاخم هذا الشارع الرئيسى ، ويبيع تجار هذا الورق أيضا الأحجار الكريمة . وبعض الأشخاص يحملونها من محل الى محل لعرضها للبيع لأكثر من مزايد ..

ويقع أيضا على هذا الطريق الرئيسى منطقة صائغى الذهب . وهم جماعة من اليهود الذين تتركز . فى ايديهم ثروة كبيرة . وفى منطقة اخرى ، اتخذ تجار الأشياء المستعملة سوقا لهم . وهم يبيعون اقمشة من أنواع

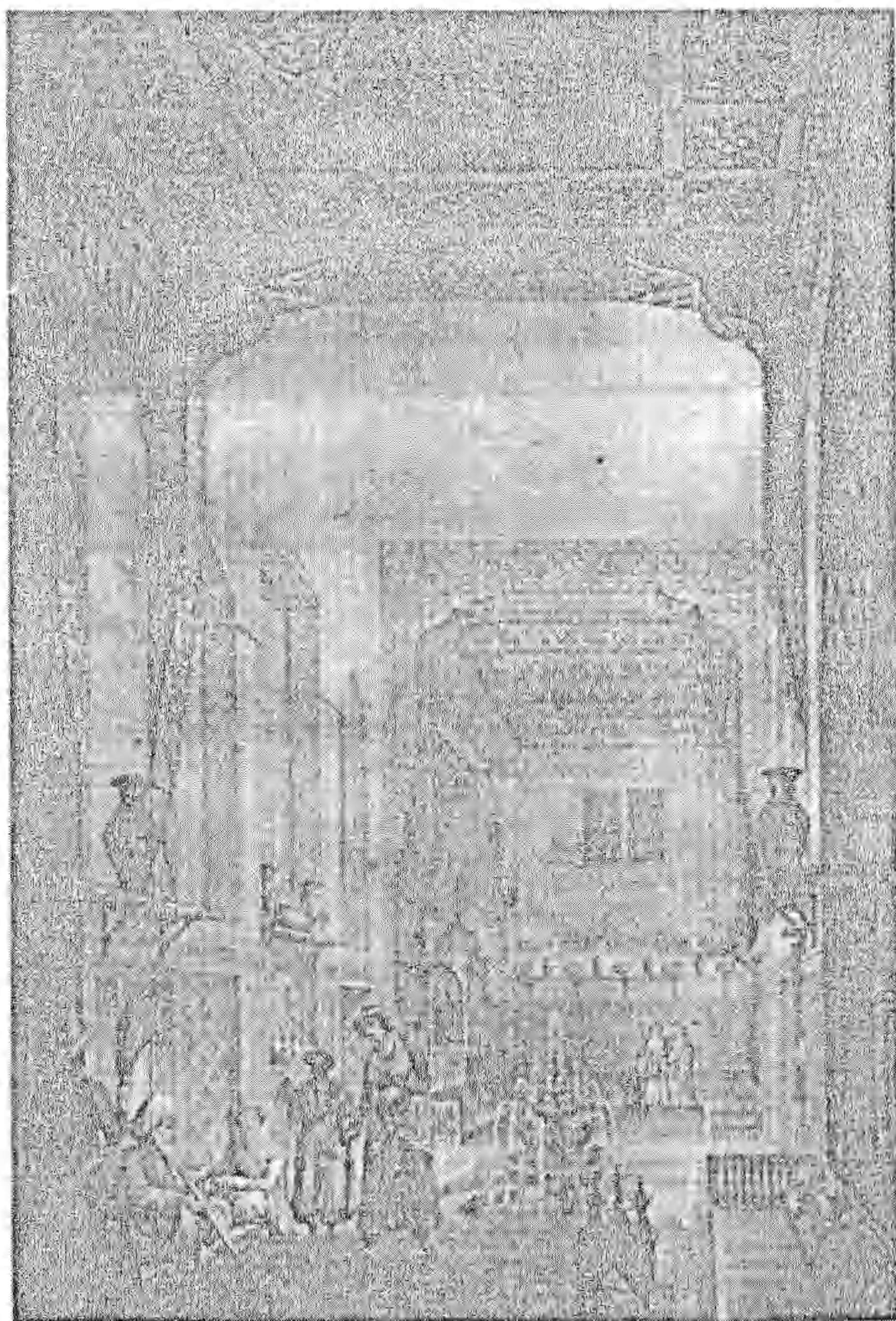
ممتازة باعها لهم أهل المدينة وعلية القوم فيها . ولن تجد هنا ملابس وأردية مستعملة وانما قطعا من افخر المنسوجات واقيمها ..

ويضيف ليو الأفريقى بعض التفصيلات التى تصور لنا مجتمعا متماسكا كاعضاء الجسم الواحد :

واذا ما حدث أن انتج أحد الصناع عملا جميلا ماهرا لم ير مثيل له من قبل ، كان يرتدى رداء من الحرير ويطاف به بين الحوانيت ، يصبحه الموسيقيون فيما هو أشبه بموكب النصر ، ويعطيه كل شخص بعض المال . ولقد رايت فى القاهرة أحد هذه المواكب التشريفية لرجل صنع سلسلة لبرغوث احتفظ به مقيدا على قطعة من الورق . كما رايت أحد اعمال القوة العظيمة قام بها احد السقائين الذين يسيرون فى الشوارع حاملين قربا من الجلد تتدلى من أعناقهم . فقد تراهن مع شخص آخر ان يحمل قربة عجل مملوءة بالماء تشد اليه بسلسلة من الحديد . وفعلا استمر هذا الرجل طيلة سبعة أيام متتابعة من الصباح الى المساء يحمل هذه القربة التى علقت بسلسلة على كتفه العارى ، ففاز بالرهان ، وحاز شرف موكب نصر عظيم تصحبه الموسيقى وجميع السقائين فى القاهرة الذين بلغ عددهم ثلاثة آلاف سقاء ..




٧
الأعياد والأفراح



في المناسبات السعيدة ، تدق الطبول من القلعة . فتتزين
المدينة بالرايات والبنود لمدة سبعة أيام ، ويسمح للأهالى
بالانطلاق التام فى مرح جنونى .

وتعلق فى هذه المناسبات الرايات والحلل والمناديل والاقمشة الثمينة الملونة والبيضاء . وكذلك الستور من المخمل والحرير من النوافذ فى عرض لا مثيل له من الروعة والجمال . وبعض الناس يعرضون الدروع والقسى والخوذ والزرديات وحتى الحلى . وهذا يذكرنا بعبارة فرواسار : « واعلم ان شارع سان دنيس بطوله كانت تزينه اعداد لا حصر لها من الرايات من الاقمشة الحريرية الثمينة حتى ليحسب الانسان انها لا تكلف صاحبها شيئا أو انه فى الاسكندرية أو فى دمشق » . ويمكننا ان نضيف الى هذا القول عبارة الرحلة ابن بطوطة : « شاهدت بها مرة فرجة بسبب برء الملك الناصر من كسر أصاب يده ، فزين كل أهل سوق سوقهم وعلقوا بحوانيتهم الحلل والحلى وثياب الحرير . وبقوا على ذلك أياما » . كما يزينون داخل متاجرهم بالاقمشة . وينشرون الحرائر على الارض فى الطرقات . وفى أماكن متفرقة من المدينة ، تقام أحواض مليئة بالشراب الذى يقدم للمارة . وعلى طول طريق الموكب ، تقام المنصات التى تعزف عليها فرق موسيقية من طبالين وزمارين ومغنين . ومن اسطح البيوت والشرفات تنطلق زغاريد النساء المرحة التى يصفها لنا بيير بيلون على النوح التالى : « يفتح الفم الى اقصى اتساعه فينبعث منه صوت نشاز : ويحرك اللسان بين الاسنان ثم يسحب الى الخلف نحو سقف الحلق فتنطلق صرخة حادة تشبه صيحات القرويات اللاتى يبعن اللبن فى باريس » .

وفى مناسبات معينة مثل الانتصارات الحربية أو قران بعض الاميرات أو كبار رجال الحاشية ، تشارك الاسواق فى المهرجانات ، فتتزين الدكاكين بالرايات وتضاء طوال الليل . وتبدو المدينة متوهجة بسبب العدد الذى لا حصر له من المصابيح التى تضاء فى كل مكان . فهناك الثريات الزجاجية الكبيرة ، وآلاف القناديل والمصابيح ذات الضوء الخافت . والصواريخ . ولعل المسؤولية الكبرى فى هذه الاحتفالات تقع على عاتق اغنياء طوائف الحرف . فنحن نعرف انه فى زمن الخلفاء الفاطميين ، كان تجار الجواهر ورجال المصارف وصائغو الذهب وتجار المنسوجات مسؤولين عن تعليق الرايات والبنود على طول طريق موكب الاحتفال .

ولنعرض الآن لوصف احد هذه الاحتفالات . يسير على راس الموكب ثلة من الجنود وتتبعهم جوقة من الموسيقيين ، بعضهم ينفخ فى الابواق

النحاسية التى يقابل اصواتها القوية صوت الناى الخافت الحزين المنبعث من جوقة اخرى ، وعلى مسافة منهم يسير المنشدون ، يرددون الاشعار على ضربات الدفوف الخفيفة .

وكان هناك تنظيم رسمى دقيق فى تحديد اماكن الضباط الذين يسيرون امام السلطان ، فكان النظارة يرونهم يتتابعون على هذا النحو : عشرة من الجنود المنشاة شاهرين البلط ، يتبعهم على صهوتى جوادين اشهبين اثنان من الغلمان ، يلبسان طاقيتين صفراوين وثوبين من الحرير الاصفر المطرز بالذهب ، وتخفق فوقهما رايتان مشغولتان بالذهب مثبتتان خلفهما عند نهاية سرج من الجلد المغطى بالذهب ايضا ، حتى ليحسب الانسان انه من صنع صائغ . كانت هذه بعض شارات السلطنة ، ولذلك يحملها اثنان من اهم رجال الدولة . وبعد ذلك يظهر السلطان ممتطيا صهوة جواد مطهم يلمع معدنه تحت اشعة الشمس وقد غطيت عنقه بقطعة من الحرير الاصفر المشغول بالذهب . وتمثل ملابس السلطان بقعة قاتمة فى وسط هذا اللون الفاقع . فتغطى رأسه عمامة من الحرير الاسود تتدلى عذبتها على كتفية كشرائط العلم . ويلبس السلطان رداء طويلا من الحرير الاسود له اكمام واسعة . والنسيج كله من لون واحد بلا تطريز . ويتدلى على جانبه الايسر سيف معلق من حزام يدور حول كتفه الايمن . ويرفع احد كبار رجال القصر فوق راس السلطان شارة اخرى من شارات السلطنة ، وهى مظلة صفراء مطرزة بالذهب عليها كرة ذهبية قد وقف عليها طائر ذهبى . ويسير على يمين السلطان شاب طويل القامة متين البنية ذو مظهر عسكرى يحمل فى يده هراوة أو عصا ضخمة تنتهى بطرف مذهب . ويحمل امام الجنود عدد من الاعلام المصنوعة من الحرير الذى تتخلله بعض خيوط ذهبية . ويوجد فوق ساريات الاعلام قطع من الفراء .

« فى يوم ٣٠ نيسان ( ابريل ) سنة ١٥٠٠ ، ذهب السلطان ليرأس مادبة الافطار فى شهر رمضان . فامتطى صهوة فرس ابيض يغطيه سرج ابيض فضى ، بينما ارتدى ملابس من الحرير الابيض وحذاء ابيض ينتهى بمهماز مغطى بطبقة من الفضة ؛ وحتى نعل حذائه كان من الجلد الابيض ، وغطاء راسه من الصوف الابيض . وكان ذلك فى الواقع زيا غريبا ؛ وتشاءم الناس من ملابسه البيضاء ، ثم حدث فعلا ان عزل السلطان بعد ذلك بقليل » .

وكان الموكب يضم فى بعض الاحيان كبار الاسرى ، بعضهم يمشى وبعضهم يجلس على دواب ، وجميعهم مقيدون بالسلاسل . ويسير خلفهم

الجنود حاملين اسلاب الحرب التى غنمت من الاعداء ، وخاصة طبولهم التى مزقت وراياتهم التى تحمل منكسة الى اسفل رمزا للهزيمة .

وقد بقى لنا وصف يوم الاحتفال كبير حين عرض أمير من اسرة على دولات الذى كان قد اسر بعد معركة ضارية . حدث ذلك فى شهر آب ( أغسطس ) سنة ١٤٧٢ . أيام الحر القائظ . أمر السلطان بأن يدهن باب النصر وباب زويلة باللون الابيض وأن يزينا بشعار السلطان . وزينت المدينة بالرايات الجميلة ، واصبحت فى حالة من التطلع نظرا لأن كل شخص كان يريد رؤية الموكب عند مروره . وبلغ ايجار منزل يقع على طريق الموكب أربعة دنانير اشرفية ، وايجار مكان فى دكان دينارا أشرفيا . واوكب الامير المهزوم فوق حصان ، لابسا رداء اسود وعمامة ضخمة ، وحول رقبته طوق من الحديد متصل بسلسلة ثقيلة أمسك بها ضابط راكب الى جانبه . وكان هذا الموكب المهيب يتكون من الضباط الذين اشتركوا فى الحملة ، تتبعهم وحداتهم . وازدحم جميع سكان القاهرة لرؤية هذا المنظر ، بينما اصطف المنشدون بين باب النصر واسفل القلعة . وسمعت دقات الطبول عند القلعة ، واصطف الطبالون والزمارون أمام الدكاكين . وقدم الاسير الى السلطان داخل القلعة ، ثم نزع عنه رداؤه والبس رداء ابيض واركب جملا ، ووضع حول عنقه طوق من الحديد تتصل به عصا من الحديد تنتهى بجرس . اما اقاربه الذين شاركوه مصيره فقد وضعوا عراة الراس والجسم فوق جمال . وخرج الاسرى من القلعة على هذه الحال ، يسير أمامهم منادون يصيحون : « هذا هو جزاء كل من خرج على السلطان » . حتى اذا وصلوا الى باب زويلة . شنق الامير وعلق فى وسط الباب ، وظل جسده هناك يوما وليلة ، ثم انزل ولف فى كفن ودفن فى شمال المدينة . وبعد ذلك رفعت الرايات والزينات .

وهناك ايضا موكب الرؤية الذى يتالف من الفقهاء الذين يخرجون للتاكد من ثبوت رؤية هلال شهر رمضان . وكان هذا الموكب يحاط بعدد كبير من القناديل المستديرة والمشاعل والشموع . وتضاء ايضا امام الحوانيت الثريات والشموع والمباخر التى تنتشر منها رائحة زكية .

ومن احب الماشهد لنفوس الجماهير موكب المحمل « وهو هودج رائع مزين اجمل زينة ، يوضع فوق جمل قوى ، وهو مظهر من مظاهر السيادة . فان منظره الشامخ كان يبدو بارزا وسط القافلة المصرية عند عبورها الجزيرة العربية . وكان حكام الحجاز ينحنون أمامه ، كما يخلى له سائر القوافل الطريق ليمر » .

ويوم دوران المحمل يوم مشهود . وهذه صورة عن كيفية الاحتفال به :

يركب قضاة القضاة الأربعة ووكيل بيت المال والمحتسب الجيلد ، ويركب معهم اعلام الفقهاء وامناء الرؤساء وارباب الدولة . ويقصدون جميعا باب القلعة ، فيخرج اليهم المحمل على جمل ، وامامه الامير المعين لسفر الحجاز في تلك السنة ، ومع عسكره والسقاؤون على جمالهم . ويجتمع لذلك اصناف الناس من رجال ونساء . ثم يطوفون بالمحمل وجميع من ذكرنا معه بمدينتي القاهرة ومصر ، والحداة يحدون امامهم .

وسرعان ما يحدث هرج ومرج ؛ فترى جنودا وقد ارتدوا ملابس تنكرية مخيفة يطلبون المال من الجمهور المرح ، وكان هؤلاء يسمون شياطين المحمل ، اذ كانوا يرتكبون كثيرا من الحماقات ، حتى ان الحكومة قررت منع هذه العروض . وبعد اعوام كثيرة في نهاية القرن الخامس عشر ، كان يتقدم المحمل ثلة من حملة الرماح في ملابس حمراء ويلعبون لعبة الحرب .

واحيانا يدعى الناس للمشاركة في حفلات القرآن والختان التي كانت تزين تزينا جميلا مبالغا فيه بالمشاعل ، وترش الروائح العطرية ، ويحرق البخور ، وتمد موائد حافلة في هذه الاحتفالات . ومثال ذلك ما حدث في شهر اذار ( مارس ) سنة ١٥٠١ حين خرجت اميرة الى القلعة محمولة في هودج مطرز بالذهب ، يتقدمها قواد الحرس ، والامناء ، وحرس الشرف في ملابسهم الرسمية ، وحاكم المدينة ، وقائد الجيش ، والمشرف على حريم السلطان ، وكبار موظفي الدولة ، ورئيس الخصيان . واشتملت معية الاميرة ايضا على مائتين من السيدات من نساء الضباط والموظفين . وحمل على راس الموكب الجهاز الذي تقدم به السلطان والذي اشتمل على ملابس وطاس وابريق من البلور وخيمة مطرزة بالذهب .

وبعض مواكب الجنازات كانت تستلفت النظر بمن فيها من الندابات المحترفات وقارعي الدفوف .

والى جانب مواكب النصر ، هناك مواكب اخرى للتشهير . فالمجرمون الذين يخالفون القانون العام كانوا يوضعون على ظهور الجمال ويطاف بهم في شوارع القاهرة . وعادة ، يتجمع جمهور غفير على طول الطريق ، بينما تصدر من النساء اصوات الاستنكار ضد هؤلاء المجرمين عند مرورهم . واحيانا يجلد المجرم علنا ويوضع على حمار ويطاف به عاري الرأس والجسد في شوارع المدينة .

وكان البدو الذين يعاقبون بسبب جرائمهم يعاملون معاملة قاسية . فالرجال منهم توضع حول رقابهم اطواق من الحديد ، بينما يقيد النساء والاطفال بالحبال .

وكان الملحد الذى يدان بارتكاب جريمة ضد الدين يوضع على جمل ويطاف به فى شوارع المدينة ، ثم يشنق بالقرب من مدرسة الملك الصالح أيوب فى منطقة بين القصرين .

وكانت تدهن وجوه النساء المنحرفات ذوات السمعة السيئة بالهباب ويطاف بهن فى الشوارع على حمير .

* * *

يبدو انه لم تشيد ابنية خاصة للملاهى الجماعية . فقد اخذ العالم الاسلامى الحمامات العامة مثلا عن الحضارات السابقة ، ولكنك لاتجد فى اى مدينة اسلامية ابنية مشيدة لاسباب التسلية الشعبية كالمسرح أو السيرك .

ولكن منظر وقوف الناس فى الشوارع مشدوهين فى تطلع لا يتحدد بالمكان أو الزمان ، وقد وصلتنا اوصاف عديدة من بلاد مختلفة غير مصر عن الجماهير التى تلتف حول مدرب يلاعب دبه أو قرداتى يرقص قروده على دقات الطبول . وهذه الجماهير تستثار لرجل مجذوب مخادع أو لصانع معجزات دعى . ويذكر كتاب العرب القدماء اخبار رجال يستطيعون ابتلاع السيوف والرمل والحصى والزجاج المجروش ، وآخرون يمكنهم تحطيم الاشياء او اخفاءها ثم يعيدونها الى حالتها الأولى امام اعين المتفرجين المشدوهين . وذكر ابن خلدون ـ دون ان يؤكد صحة الخبر ـ انه سمع ان بالقاهرة من يتخصصون فى تعليم الطيور الكلام وتدريب القرود حتى يمكنها القيام بالعاب سحرية تعتمد على خفة اليد دون ان يفطن اليها النظارة ، ومنهم من يعلم الناس الغناء والرقص والسير على الحبل المشدود فى الهواء .

ولا ريب ان هناك بعض الاماكن التى تصلح اكثر من غيرها لاسباب التسلية الشعبية ، وتؤمها طبقات الشعب المختلفة . فنسمع ان سفلة الناس من الماجنين والعاهرات كانوا يبحثون عن التسلية فى باب اللوق حيث يوجد السحرة والبهلوانات والرجال الذين يدربون الجمال والحمير والكلاب والقرود على الرقص ، والمصارعون المجوالون والمنجمون الذين يجلسون وراء صناديق من الرمل ، ولاعبو «الاراجوز» الذين يحركون دمى

من وراء ستار »[١] . ثم هناك ايضا المبارزون المهرة الذين يستطيعون استخدام جميع انواع الاسلحة ، وخاصة الهراوة ، والموسيقيون الذين يرافقون منشدى اغانى الشجو والشجن .

وينافس مدربو الحيوان الحواة والبهلوانات . وفى ذلك يقول بيير بيلون :

ويوجد بين العرب فى القاهرة عدد كبير من القرداتية والطبالين : واثناء لعبهم يقرعون طبلة باصابعهم ، ويغنون على صوت هذه الطبلة ( وهى الرق ) المركب فيها عدد من الحلقات النحاسية ، ويمسكونها باليد اليسرى ويدقونها باليد اليمنى . وهم على جانب كبير من المهارة فى تعليم الاعيب القرود لأنواع مختلفة من الحيوانات : يعلمونها للجدى أو غيره . من ذلك انهم يضعون سرجا على ظهر الجدى ويركبون عليه القرد ، ويعلمون الجدى القفز كالحصان . وهن يعلمون الحمار كيف يمثل انه يموت وان يتمرغ فى الارض وان يصطنع انه يرفس القرود التى تتسلق ظهره . ولديهم ايضا من الحيوانات المدربة انثى القرود ، ولكن قلما ترى لأنه لا يمكن الاعتماد عليها . ومعهم ايضا نوع الغوريلا المكممة ، وهى وديعة حسنة التدريب الى درجة انها تنقل من شخص الى اخر ممن يشاهدون الطبال وهو يلعب ، وتمد يدها دلالة على طلب النقود ، ثم تحمل النقود وتسلمها لصاحبها .

اما الحواة[٢] . فكانوا يسيرون فى الطرقات حاملين اكياسا ( تعرف بالجراب ) مليئة بالثعابين التى كان فى استطاعتهم ان يجعلوها تقوم بحيل غريبة مختلفة . فعن طريق النفخ ، يمكنهم ان يجعلوها تصطنع الموت : وبالنفخ مرة ثانية ، يحيونها ويجعلونها تقوم باعمال شيطانية . وقد رأى أحد الأفراد رجلا ياخذ حية بيده المجردة من قاع قدر كبير يحتوى على عدد من هذه الثعابين ، ثم عرى رأسه ووضع الحية عليها ثم غطاها بطاقيته ، ثم رفعها ووضعها على صدره ولفها حول عنقه دون ان تصيبه الحية باى اذى . وبعد ذلك وضع دجاجة بالقرب من الحية ذاتها فلدغتها وماتت بعد

---

( ١ ) انظر الرحلة العباشية لعبد الله بن محمد بن ابى بكر العباشى ١ : ١٥٥ ( ط. فاس ، ١٣١٦ هـ ) .

( ٢ ) انظر اخبار الحواة والبهلوانات فى زبدة كشف الممالك . ٣٢ .

دقائق قليلة . وفي نهاية العرض . تناول الرجل الحية من رقبتها وأكلها مبتدئا بالذيل ، حتى أتى عليها بأسرها في سهولة ودون أى امتعاض كشخص يأكل جزرة أو عودا من الكرفس .

وكان للبهلوانات جمهورهم : ومنهم من رؤى فوق بركة ماء في القاهرة عندما تسلق الحبال وسار عليها بظهره مقيد اليدين ومعصوب العينين . وكان هناك آخر شد حبلا بين اعلى طبقات القلعة واحدى المنارات على مسافة ميل ومشى على الحبل مستخدما يديه ورجليه ، وهو تارة يطلق نفطا . وتارة يرمى بقوس قوى كان بيده . ولما وصل الى نصف الحبل ، القى نفسه . فصاح القوم كلهم ، وظنوا انه سيهشم الى أشلاء . ولكن تلك لم تكن سوى حيلة بارعة ، اذ كان ممسكا في يده بطرف حبل دقيق مربوط بعناية الى الحبل المنصوب . فتعلق به وصعد .

يظهر الكتاب العرب نوعا من الاستياء عندما يتحدثون عن الاعمال الفخليعة التى كانت ترتكب علانية في عيد رأس السنة القبطية ( وهو عيد النوروز ) . فكان يختار أمير يسمى أمير النوروز ، يطوف هو واتباعه على ظهور الجمال بمنازل كبار رجال المدينة ، وكان يرسل في استدعاء أولئك الذين يدعى انهم في منطقة نفوذه ليمثلوا امامه . وهو يفعل هذا كله على سبيل المزاح ، ويقنع بالميسور من الهبات .

ويجتمع المغنون والفاسقات تحت قصر اللؤلؤة بحيث يشاهدهم الخليفة . ويأيدهم الملاهى ، وترتفع الاصوات ويشرب الخمر والمزر شربا ظاهرا بينهم وفي الطرقات ، ويتراش الناس بالماء وبالماء والخمر وبالماء ممزوجا بالاقذار ، وان غلط مستور وخرج من بيته لقيه من يرشه ويفسد ثيابه ويستخف بحرمته ، فاما ان يفدى نفسه واما ان يفضح[١] .

وفي وقت معين من السنة لا يمكن تحديده ، كان الناس يتقاذفون بالبيض المسلوق ، ويضربون المارة بالسياط . وحاولت الحكومة عند نهاية القرن الرابع عشر ان تحدد هذه الاحتفالات في مناطق معينة : ولكن هذا النوع من المرح استمر على طول القنوات والبرك ونهر النيل وبعض الشوارع الفسيحة . ويتفق الجميع على ان القوم كانوا يسرفون في لهوهم ومرحهم في يوم رأس السنة ، وأن أشياء كانت ترتكب وراء حدود الوقار والاحتشام ، وشاع المجون والخلاعة في غير ضابط . ونادرا ما مر ذلك اليوم دون ان يقتل عدد من الافراد .

وكان الاحتفال بوفاء النيل ( عيد الشهيد ) من ابهج الاعياد عند المصريين فعند اعلان ان النهر قد بلغ اعلى منسوب ، يتجمع اهالى

---

( ١ ) الخطط ١ : ٢٦٩

القاهرة ـ حسب ما يذكر المقريزى[١] ـ ، وينصبون الخيم على شطوط النيل وفى الجزائر . ولا يبقى مغن ولا مغنية ولا صاحب لهو ولا رب ملعوب ولا بغى ولا مخنث ولا ماجن .. الا ويخرج لهذا العيد ، .. وتصرف اموال لا تنحصر ، ويتجاهر هناك بما لا يحتمل من المعاصى والفسوق » .

ويؤكد الرحالة الاوروبيون صحة ما يذكره مؤرخنا العربى اليائس ، فيقول تريفيزانو :

لقد فتح الخليج ، اذ كانت العادة انه عندما يبلغ فيضان النيل منسوبا معينا يرسل السلطان اثنين من كبار موظفيه مع اتباعهما الى حدود المدينة لفتح الخليج وترك الماء يغمر الأرض . ويخرج جمهور كبير من الناس فى هذه المناسبة ، التى كانت اجمل اعياد السنة . فتقفل جميع الدكاكين ويبدو على الناس جميعا فرح عظيم وهم يشاهدون الماء يتدفق الى الخليج .

وبعد ذلك بعدة اعوام ، كتب ليو الافريقى فى حماسة مماثلة يقول :

يقام فى القاهرة فى الايام الأولى من الفيضان احتفال كبير . وتسمع فيه ضجة كبيرة من الصياح والموسيقى حتى يظن ان المدينة قد انقلبت رأسا على عقب . فتتخذ كل اسرة لنفسها قاربا تزينه بارق الاقمشة ، واجمل السجاجيد ، وتتزود بكمية من الطعام والحلوى والمشاعل التى تضاء بالشمع . وينتقل جميع السكان الى القوارب ، ويمنعون انفسهم بقدر ما يستطيعون . ويشارك السلطان نفسه وسائر الاعيان وكبار الموظفين فى هذا الاحتفال ، فيذهب الى خليج يقال له الخليج الاكبر يحيط به سد . وهناك يتناول السلطان فاسا ويحدث صدعا فى السد ، ويفعل سائر معية السلطان الشىء ذاته بحيث ينهار الجزء من السد الذى يحجز الماء . عند ذلك ، يندفع النيل بعنف الى الخليج ، ومنه ينساب الى القنوات الاخرى فى الضواحى والمدينة المسورة . وتصبح القاهرة نتيجة لذلك فى هذا اليوم اشبه بمدينة البندقية ، فمن الممكن ان تنقل بقارب بين جميع ارجاء مصر واقاليمها . وتستمر الاحتفالات سبعة ايام وسبع ليال ، بحيث ان ما يكسبه التاجر طوال السنة ينفقه فى هذا الاسبوع على الطعام والحلويات والمشاعل والعطور والموسيقيين .

---

(١) الخطط ١ : ٦٩ .

كانت جزيرة الروضة المواجهة لمصر القديمة مركزا للهو والنزهة ، حيث وجدت حدائق ومنتزهات كثيرة قصدها اهالى القاهرة ومصر القديمة للشراب والطعام والمتعة . وكانت تقام هناك مهرجانات ليلية على ضفاف بركة الرطلى التى كانت تضاء بانوار وهاجة ، فيهرع نحوها الناس ويزدحمون على الطريق ليشاهدوا ذلك المنظر . وكانت تقدم للناس عروض مختلفة مثل تمثيليات خيال الظل أو الحلقات الغنائية . وبعبارة اخرى ، كانت ليالى حافلة بالملذات التى جذبت جمهورا كبيرا .

وفى سنة ١٤٧٦ ، أسس حى من أمتع أحياء القاهرة . وكثيرا ما اعجب به الرحالة فى العصور التالية . كان قبل ذلك مجرد سهل ملحى قاحل تتخلله بعض الكثبان ، حيث نمت بعض اشجار التمر حنة والصمغ العربى . واصبح المكان تدريجا خاليا ومهجورا ومهملا . فى هذا الوقت ، قرر احد كبار موظفى دولة المماليك ، ويسمى أزبك ، ان يشيد هناك حظيرة لجماله . وعند انتهائها ، خطرت له فكرة انشاء منزل له فى ذلك الموقع ، فبنى عددا من الغرف وردهة للاستقبال ومقصورة . واحضر عددا من الثيران والمحاريث لازالة الكثبان التى فى الموقع ، وحفر بركة واحاطها بمنتزه . وسرعان ما حذا حذوه اثرياء اهل القاهرة واخذوا فى بناء بيوت فخمة هناك . واقبل الناس على الاقامة فى هذا الحى الذى اطلق عليه اسم مؤسسه وظل الى اليوم يسمى الأزبكية .

وحين يبلغ النيل اعلى منسوب له . كان الخليج يفتح رسميا ويفيض الماء الى بركة الأزبكية . وكان يقام فى هذه المناسبة احتفال كبير يحضره كبار الضباط واعداد غفيرة من الناس . والى جانب المادبة الرسمية ، كانت تطلق الصواريخ ، وتسير القوارب الكثيرة فى البركة . ويخبرنا مؤرخ عربى[١] بانه كانت تقام احتفالات كبيرة تنفق فيها على الشراب أموال كثرة بجنون .

ويقدم لنا رحالة متاخر هذا الوصف لبركة الازبكية :

انها عبارة عن سهل يقع فى تجويف على شكل صدفة بحرية تحيط بها من كل مكان المنازل الفاخرة . ومع ان المنازل زادت من جمال الموقع ، فان المكان ذاته يكون منظرا متنوعا خلابا . فليس هناك منظر اكثر جمالا من هذه الأرض التى تكون حوضا كبيرا يمتلىء بالماء مدة ثمانية اشهر ، ويصبح حديقة مشرقة طوال الاشهر الأربعة الأخرى . ففى شهر ايلول

---

( ١ ) هوالمقريزى : انظر الخطط ١ : ٦٩

( سبتمبر ) ، يستطيع المرء ان يركب قاربا فيها ، وفى شهر نيسان ( ابريل ) ، تتحول الى ارض خضراء تغطيها الأزهار . وعندما تغطيها مياه الفيضان ، تسير فيها قوارب شراعية مذهبة ، يركبها افراد من علية القوم فى المساء . وعلى شواطىء البركة ، يزدحم نظارة كثيرون يلتمسون الهواء العليل والراحة من حرارة الشمس . وعندما ينحسر الماء ، تتزين الأرض بجمالها الطبيعى ، فترى بها اشجار النخيل والتمر حنة ، وانواعا شتى من الخضرة والفواكه التى تكون جميعا اجمل منظر متصور . هذه حدائق مسحورة حقا ، فهى تنبت فى المكان ذاته الذى كانت تسير فيه القوارب قبل ذلك باشهر قليلة .

لم تقتصر الاحتفالات على النيل وبركة الأزبكية على عرض الصواريخ بل عرضت ايضا الاضواء الرائعة التى وصفها الكتاب العرب . وقد استمر هذا التقليد لأن فن الاضاءة بلغ درجة عالية من الاتقان . فكانت الاضواء تشكل فى صورة القلاع والقصور وكذلك المعارك . وكتب فى ذلك رحالة اوروبى :

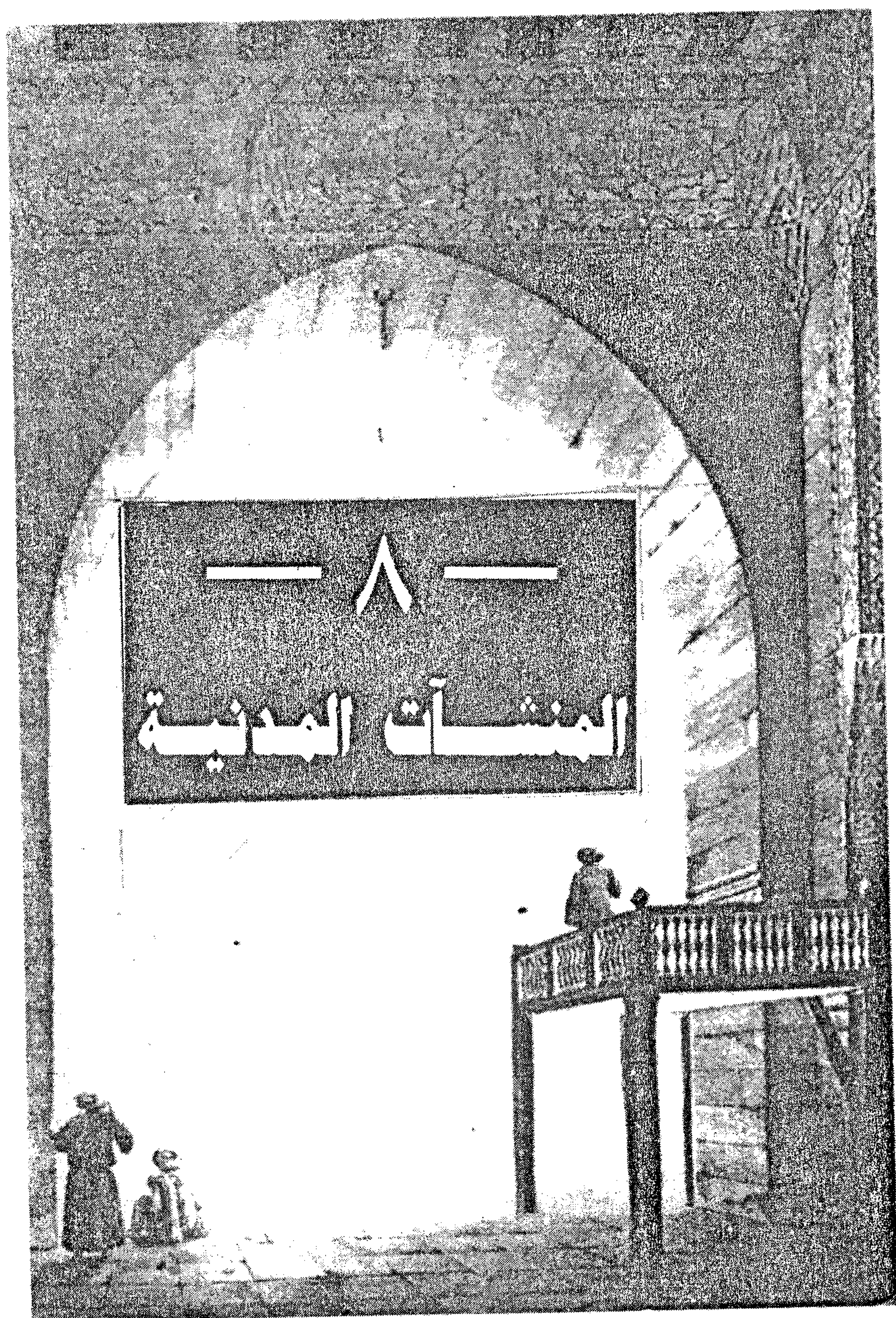
كان على واجهة كل منزل شكل معين : بعض هذه الاشكال يمثل اجسام الحيوان ، وبعضها الآخر على شكل مربعات على طراز الارابسك ، على نحو ماهو مشاهد فى تصميم السجاجيد العربية . والريح لا تطفىء هذه المصابيح التى تستمر مشتعلة طوال الليل . وكان باستطاعة المرء ان يرى على النهر سفينتين كبيرتين تحملان هرمين مرتفعين من الخشب تغطيهما تماما مصابيح قريبة من بعضها البعض . ونظرا لأن النيل كان مرتفعا جدا ، فقد كانا على مستوى ضفتى النهر ويمكن رؤيتهما من عدد من المواضع الى أسفل القاعدتين . وكانت مصابيح هذين الهرمين تتغير بصورة مستمرة . كان بعضها يهبط بينما يحل محلها مصابيح اخرى بسرعة كبيرة ؛ وأنا آخر تتحرك من جانب الى آخر . وقد نتج عن هذه التغييرات التى تمت بدقة كاملة مناظر ضوئية رائعة . ولايستطيع احد ممن يراها أن يدرك انها كانت متصلة بروافع صغيرة أو انها اشتملت على رجال داخل الهيكل يحركونها . وغير بعيد من الهرمين وجد قارب ثالث حمل قصرا صنع من الالعاب النارية وملىء بالقذائف والصواريخ ، بحيث انها شكلت منظرا خلابا .

ويخبرنا ليو الافريقى انه كان من عادة سكان القاهرة ان يحتشدوا فى ساحة الأزبكية كل يوم جمعة بعد الخطبة والصلاة ، لأنه كانت فى هذه الضاحية بعض مظاهر اللهو غير البريئة ، كتلك التى تقدمها الحانات

والنساء ذوات السمعة السيئة . وكنت ترى فى هذه الساحة كثيرا من أهل التفنن والتسلية ، وخاصة أولئك الذين يعرضون رقصات الجمال والحمير والكلاب . وهناك رجال يتبارزون بالسيوف أو بالعصى ، وآخرون ينشدون ملاحم فتوح العرب لمصر . كما كثرت أعمال الجنون والاحتيال والابتذال التى وجد فيها الناس بعض التسلية .

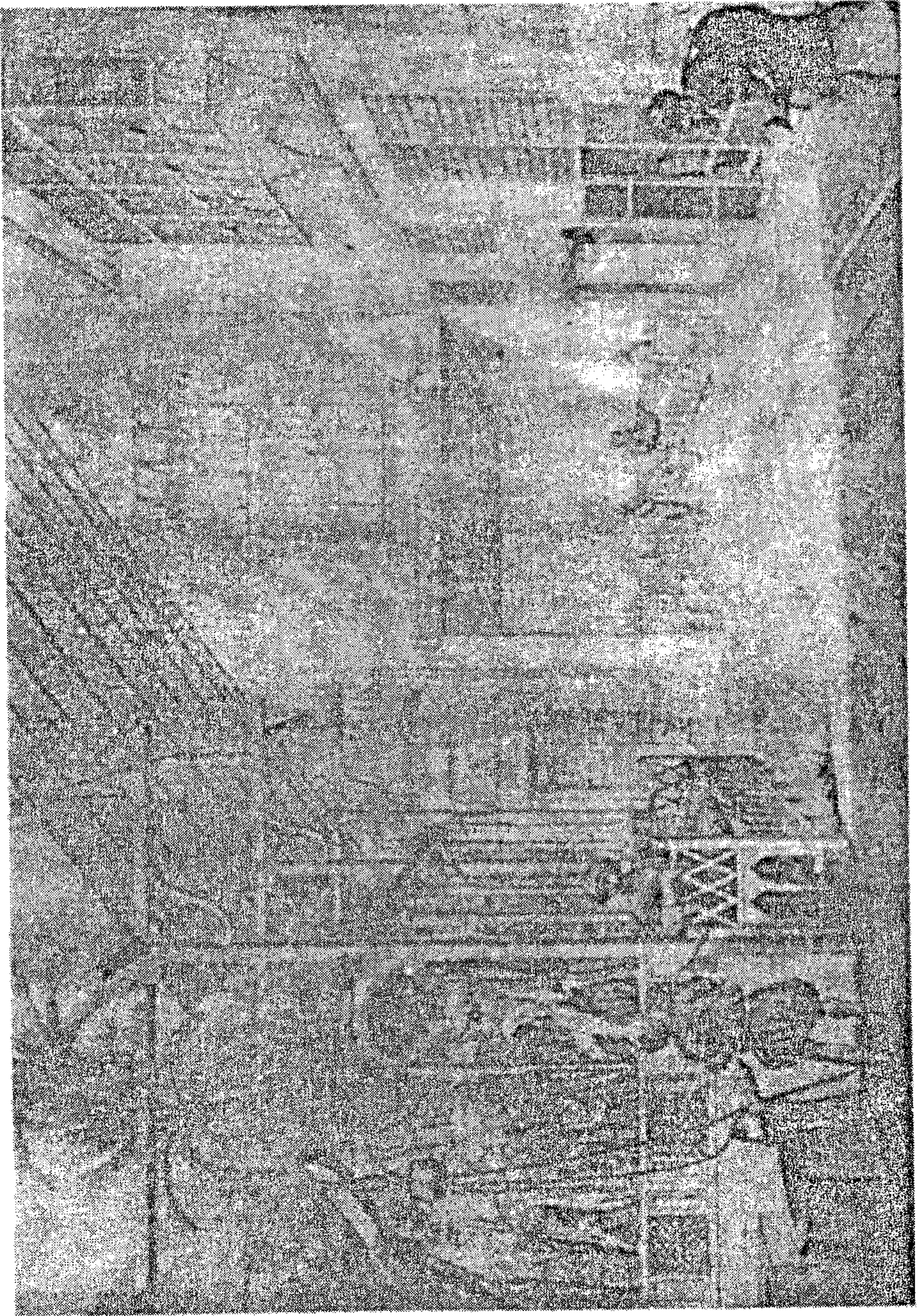
□ □ □





# ٨

# المنشآت المدنية



سبق لنا ان تحدثنا عن بعض المبانى الدينية . وسوف نرى غيرها . ولكنا نريد الآن ان نتناول المنشآت التى كانت تخدم اسباب الحياة المدنية بصورة عامة . ونظرا لأن معرفتنا بالماضى ناقصة . فاننا ندرك الى اى حد تتعرض دراستنا للعصر الاسلامى الأول فى مصر للزلل .

لقد خلفت لنا المبانى القديمة من أعمال الحفر القائر مايكشف عن جميع جوانب الحياة اليومية . فنحن مضطرون الى ان نقصر جهدنا على جمع معلومات ضئيلة مبعثرة هنا وهناك فى قراءاتنا . ثم التوفر على تفسيرها بكل مانملك من معرفة . ولكن ربما كنا فى ذلك حريصين اكثر مما ينبغى على معلومات جزئية . فنخطىء باستنباط قواعد عامة من هذه الحالات الاستثنائية . وقد سبق لفولتير ان قال : « كثيرا ماتؤخذ الحالة الاستثنائية على انها قاعدة عامة » وفيما يتعلق بالحياة الخاصة او الحياة فى الأسواق . فنحن لانملك سوى رواية او حتى آراء مضطربة لكتاب متزمتين ينتقدون اشد النقد الأعمال التى اثارت استياءهم ونقمتهم . وهذا غير كاف فى الواقع .

يقول احد كتاب القرن الخامس عشر[1]

وتحوى مصر والقاهرة من الجوامع والمساجد والربط والمدارس والزوايا والدور العظيمة والمساكن الجليلة والمناظر البهجة والقصور الشامخة والبساتين النضرة والحمامات الفاخرة والقياسر المعمورة باصناف الأنواع والأسواق المملوءة مما تشتهى الأنفس والخانات المشحونة بالواردين والفنادق الكاظة بالسكان والترب التى تحكى القصور . مالايمكن حصره .

نظمت المدينة لتخدم اغراض التجارة بحيث انه وجدت مبان مخصصة لخزن البضائع واخرى لاقامة التجار . وحسب العصر التاريخى . او ربما حسب الهدف من البناء . اطلق على محطات القوافل هذا الاسم الفارسى « خان » او الاسمان اليونانيان « قيسارية » او « فندق » او الاسم العربى « وكالة » . الذى اشتق منه فى العصور الوسطى كلمة okelle وقد انشىء رسميا فى العصر الفاطمى فى القرن الثانى عشر « دار الوكالة » لاقامة التجار وخاصة السوريين والعراقيين الذين يحضرون الى مصر لأغراض التجارة .

---

( ١ ) الخطط ١ : ٣٦١ .

ويصف لنا الفندق فى نهاية القرن الخامس عشر احد الرحالة بهذه الكلمات :

فى القاهرة فنادق كبيرة ، تشتمل على شارع تنتشر فيه صفوف من الدكاكين ذات ثلاثة ابواب او اربعة ، تقفل وتحرس كل ليلة . وتجد فى هذه الفنادق جميع انواع البضائع . ويجلس التجار والصناع قريبا من دكاكينهم . يعرضون عينات من سلعهم . واذا ما أردت شراء شىء له قيمته او أهميته . صحبوك الى مخازنهم ليعرضوا عليك مالديهم من روائع . ورغم انه قد يبدو مستحيلا ، فان كل واحد من هذه الفنادق يضم اكثر من الف مخزن من هذا النوع . وليس هناك شىء فى الدنيا ، حتى اكثرها تفاهة . الا وتجده فى فنادق القاهرة .

وقد اكتسبت بعض هذه المنشآت شهرة خاصة . فنحن نعرف مثلا ، عن طريق « الف ليلة وليلة » خان منصور حيث يباع العبيد .

وكانت هذه المنشآت تبنى بطريقة موحدة . فالبناء العام مربع الشكل يحيط بفناء كبير مرصوف ، وله رواق ذو عقود تعلوه شرفة . ويشتمل الطابق الارضى على الحواصل او المخازن . وفى الطابق الذى يعلوه غرف او ، بمعنى أدق ، حجرات صغيرة كقلل الرهبان . ليس بها شىء غير الجدران . وكان النزلاء يقومون بفرشها واعداد وجباتهم فيها . وللبناء باب واحد شبيه بباب قلعة . والهدف من هذا النظام هو حماية النزلاء من ان يعتدى عليهم اثناء الفتن . ولقد عمل كل شىء لتشجيع التجارة وحماية البضائع . فهى خير وسيلة لتحقيق الرخاء الاقتصادى ، وهناك فرق واضح بين محطات القوافل ، أو الأسواق المسقوفة ، وبين الأسواق العادية . ففى الاسواق تعرض البضائع فى صف واحد وتباع . أما فى محطات القوافل الكبيرة فيوجد عدد من الاروقة المسقوفة : ويمكن ان يرى الصناع اثناء عملهم فى حوانيتهم .

وهناك خان من نوع خاص عند مدخل المدينة شمالى باب الفتوح ، سمح للمسافرين بالنزول فيه مجانا . ونظرا لموقعه فى ظاهر المدينة ، فقد تحول الى مستشفى للمرضى بامراض معدية . وهناك خان أخر استخدم كمصرف اودع فيه التجار صناديق المال المملوءة بالذهب والفضة . ولكن نهاية هذه المؤسسة كانت حزينة : فقد استولت الحكومة على الودائع عندما كانت مصر تستعد لمواجهة غزو تيمورلنك . وفى الحى نفسه ، كان هناك خان قوصون أو وكالة قوصون الذى استخدمه التجار السوريون لخزن بضائعهم مثل الزيت والسيرج والصابون والدبس والفستق والجوز

واللوز والخرنوب . وكان فندق دار التفاح ، بالقرب من مسجد المؤيد ، اشبه بوكالة كبيرة للفواكه على اختلاف انواعها . كما وجد خان أخر كانت تستخدم ايراداته لفدية اسرى الحرب ، واشتمل على اثنى عشر حانوتا ، وخمسة حمامات ، وثمانية وخمسين مخزنا ، وست غرف كبيرة ، وفناء وخمسة رباع ، وخمسا وسبعين حجرة للنزلاء ، وخمسة حمامات فى الطوابق العلوية . ثم ازداد التخصص ، فاصبح احد هذه المبانى ، وكالة باب الجوانية ، يستقبل مايرد من صنف متجر الشام فى البحر ، ومايرد بالبر من تلك البلاد كان يدخل به الى وكالة اخرى ، هى وكالة قوصون .

واكثر الأسواق المسقوفة التى يذكرها المقريزى ـ وقد امكن تحقيق مكان تسع عشرة من اثنتين وثلاثين ـ موجودة فى قطاع يشبه مثلثا متساوى الأضلاع ، راسه يصل جنوبا الى باب زويلة وقاعدته خط شمالى يمتد بين ضريح السلطان الغورى الى الجامع الأزهر . وقد اختصت هذه الاسواق ببيع جميع انواع المنسوجات من صوف وكتان واقمشة شعبية وحرير ثمين وشورة العروس . ولازال اسما سوق العنبر وسوق العصفر يدلان بوضوح على نوع سلعهما . ومن الأسواق الأخرى ماضمت صناع الاخفاف والسهام والصناديق . وكان هناك فى جوار ضريح السلطان قلاوون خمس اسواق مسقوفة ، وسبع اخرى بالقرب من مسجد الحاكم .

ولدينا فكرة عن الأسماء التى اطلقت على الأسواق فى منتصف القرن الخامس عشر بفضل مايذكره المقريزى[1] من ان فى القاهرة : سبعا وثلاثين قيسارية ، وتسعة عشر فندقا ، واحد عشر خانا ، وثلاث وكالات .

زادت المدينة الاسلامية فى عدد الحمامات التى اخذتها عن الحضارات القديمة دون اى تغيير فى خطة بنائها : فهناك غرفة الملابس والاستراحة ، وحمام بخار ، وفى بعض الأحيان غرفة متوسطة الحرارة ، ولعب الحمام دورا مزدوجا ، صحيا ودينيا ، فى جميع البلاد الاسلامية . وقد اورد لنا الطبيب عبداللطيف البغدادى ، الذى كتب فى القرن الثانى عشر وصفا لحمامات مصر ، فقال :

واما حماماتهم فلم اشاهد فى البلاد اتقن منها وصفا ، ولا اتم حكمة ، ولا احسن منظرا ومخبرا . اما اولا ، فان احواضها يسع الواحد منها مابين روايتين الى اربع روايات واكثر من ذلك ، يصب فيها ميزابان ثجاجان ، حار وبارد . وقبل ذلك يصبان فى حوض صغير جدا مرتفع ، فاذا اختلطا فيه ، جرى منه الى الحوض الكبير . وهذا الحوض نحو ربعه فوق

---

(١) الخطط ٢ : ٨٦ ـ ٩٤ .

الأرض ، وسائره في عمقها ، ينزل اليه المستحم ، فيستنقع فيه . وداخل الحمام مقاصير بأبواب . وفي المشلح ايضا مقاصير لأرباب التخصص ، حتى لايختلطوا بالعوام ، ولايظهروا عوراتهم . وهذا المشلح بمقاصيره حسن القسمة . مليح البنية . وفي وسطه بركة مرخمة ، عليها أعمدة وقبة ، وجميع ذلك مزوق السقوف ، مفوف الجدران ، مبيضها ، مرخم الأرض باصناف الرخام ، مجزع باختلاف الوانه ، وترخيم الداخل يكون ابدا احسن من ترخيم الخارج ، وهو مع ذلك كثير الضياء ، مرتفع الآذاج ، جاماته مختلفة الألوان ، صافية الأصباغ ، بحيث اذا دخله الانسان لم يؤثر الخروج منه ، لأنه اذا بالغ بعض الرؤساء ان يتخذ دارا لجلوسه ، وتناهى في ذلك ، لم تكن احسن منه[1] .

وفي نهاية القرن الخامس عشر ، كتب بريدنباخ :

ذهب جماعة منا الى الحمامات : اذ توجد في هذه البلاد احواض في غاية الجمال والبذخ ، مزينة بالفسيفساء وانواع مختلفة من الرخام . فالعرب يقبلون بشغف على هذا النوع من الرياضة ، وهم في غاية المهارة في تدليك اعضاء جسم المستحم .

عرفت مصر المستشفيات قبل مجيء العرب ، ويقال ان هذا النوع من المنشآت وجد ايضا في الفسطاط منذ بداية تاريخها . ولم نتحدث عنها في شيء من الاسهاب بسبب عدم توفر التفاصيل . ولكن الخدمات الطبية العامة ابتدأت في عصر احمد بن طولون . فكان الجمهور الذى حضر صلاة الجمعة في مسجده من الضخامة بحيث لزم وجود طبيب لمساعدة من يحتاج الى علاج بين المصلين . وجاءت الأموال للمستشفى التي شيدها من ايراد السوق المخصصة لبيع العبيد السود ، ومن مصادر اخرى شبيهة بذلك . ولم يسمح للجنود بالعلاج في هذه المستشفى . وكان على المرضى الذين يدخلون المستشفى ان يخلعوا ملابسهم وان يسلموها ومامعهم من نقود لأحد موظفي المستشفى الذى كان يسلمهم ايصالا عنها . ثم يرتدون ملابس خاصة ويستلقون على اسرة ، ويعطون الغذاء والعلاج اللازم مجانا . وعندما يستطيع المريض اكل رغيف من الخبز ودجاجة ، كان يصرح له بمغادرة المستشفى : فترد له عندئذ ملابسه ونقوده . وكان السلطان يزور المستشفى يوم الجمعة من كل اسبوع ، ليتأكد بنفسه من توفر الامدادات وحسن قيام الأطباء على المستشفى ، ويسأل المرضى والضعفاء والمصابين بأمراض عقلية .

---

( ١ ) الافادة والاعتبار . ٨٣ ـ ١٨٥ = (٤٥) ( ط. لندن ).

ثم اسس الأخشيديون كذلك مستشفى . اما الفاطميون ، فرغم مانعرفه من شدة اهتمامهم بتعليم الطب ، فانه لم تصلنا اى اخبار عن المستشفيات فى عصرهم .

وحول صلاح الدين احد القصور الفاطمية الى بيمارستان ( مستشفى ) . وعين فيه اطباء عيون وجراحون ومدير للمستشفى . ويجب ان نذكر ان المؤرخ والطبيب المشهور ابن ابى اصيبعة تلقى تعليمه هناك . ويقول ابن جبير[1] :

ومما شاهدناه ايضا من مفاخر هذا السلطان ، البيمارستان الذى بمدينة القاهرة ، وهو قصر من القصور الرائعة حسنا واتساعا ، ابرزه لهذه الفضيلة تاجرا واحتسابا ، وعين قيما من اهل المعرفة ، وضع لديه خزائن العقاقير ، ومكنه استعمال الأشربة واقامتها باختلاف انواعها . ووضعت فى مقاصر ذلك القصر اسرة يتخذها المرضى مضاجع كاملة الكسى . وبين يدى ذلك القيم خدمة يتكفلون بتفقد احوال المرضى بكرة وعشية ، فيقابلون من الأغذية والأشربة بما يليق بهم . وبازاء هذا الموضع ، موضع مقتطع للنساء المريضات ، ولهن ايضا من يكفلهن . ويتصل بالموضعين المذكورين موضع أخر متسع الفناء فيه مقاصير عليها شبابيك من الحديد ، اتخذت محابس للمجانين ، ولهم ايضا من يتفقد فى كل يوم احوالهم ويقابلهم بما يصلح لها .

اما بيمارستان قلاوون ، فهو اهم ماانشىء فى القاهرة من هذه المبانى . فهو بناء عظيم فخم ، يمكننا ان نتصوره فى سهولة لما نعرفه عن مقبرة السلطان . ويقدر من عدد الناس الذين دخلوا وغادروا البناء ان اربعة ألاف مريض كانوا يعالجون يوميا بالمستشفى فى القرن الرابع عشر . وكان كل مريض عند مغادرته للمستشفى يعطى هبة مالية وكسوة ، كما قيل ان الطعام كان يعد بعناية فائقة . ولايتردد احد الرحالة المغربيين من ذلك العصر فى القول ان الأثاث نافس مابقصور السلاطين فخامة واتقانا . وكان كل من يعمل فيها متقنا عمله ، وجميعهم ، دون استثناء ، من الأطباء الى العاملين ، كانوا يقدرون مسئولية اعمالهم . وتتضمن الوثيقة التى انشات

---

( ١ ) رحلةابن جبير : ٢٦ ( ط. بيروت ، و ٥١ اوروبة ) .

هذا الوقف هذه الافكار السلمية[1] :

انني اقرر ان خير فرصة يمسك بها الانسان وخير اعمال الخير هي تلك التي توفر الراحة للآخرين . ينبغي على الانسان ان يحقق السعادة للرجل الفقير حين يمرض عن طريق توفير المسكن والعناية الصحية ، الباهظة التكلفة . ويجب ان يبتدا بالاكثر فقرا بين المرضى والبائسين والضعفاء والمحتاجين والمساكين .

وقد انشئت هذه المستشفى لعلاج المرضى من المسلمين ، رجالا ونساء ، مقيمين او عابرين من جميع البلاد والاقاليم ، دون تمييز بسبب الأصل او الدرجة ، ومهما كان المرض الذى يشكو منه المريض ، سواء اكان بسيطا او خطيرا ، ظاهرا او مختفيا ، جسميا او عقليا . وكان الفقراء من المرضى ، رجالا ونساء ، يقيمون بالمستشفى حتى يتم شفاؤهم . كما كان هناك استعداد لتوزيع الأدوية والعقاقير الطبية للمرضى الخارجين . وكان يقسم المرضى حسب فئات معينة : فجعلت اواوين للمرضى بالحميات وغيرها ، وجعلت قاعة للرمدى ، وقاعة للجراحة ، وقاعة لمن افرط به الاسهال .. ونجد فى بنود نظام هذا الوقف فقرات غير متوقعة ، مثل تلك التى تبيح شراء مراوح من جريد النخيل لراحة المرضى فى فصل الصيف .

كان الرباط اول الأمر وحدة لحراسة الحدود مكونة من محاربين . وكانت هذه المؤسسة فى القرن الرابع عشر تؤوى افرادا ممن ليست لهم موارد ولا اسر . ونحن نعرف ان احد المنازل كانت تعتزل فيه النساء المطلقات اللائى رغبن فى حياة التامل بعيدا عن عالم الحياة اليومية قبل الزواج مرة ثانية . وتحت تاثير الحركة الصوفية ، اضبح الرباط أشبه بدير للمتصوفة ، ولكن الاسم العادى الذى اطلق على هذا النوع من الأديرة هو « خانقاه » ، واشهر خانقاه فى مصر كانت تؤوى افراد طريقة صوفية .

تعنى كلمتا « دير » و « راهب » معنى محددا فى المسيحية . ولهذا ينبغى تجنب اى سوء فهم بالنسبة لهاتين الكلمتين . ونظام التصوف الاسلامى لايمكن تشبيهه بنظام العزلة الصارم الذى وجد فى الاديرة المسيحية . فعلى خلاف المسيحية ، لم يعتبر الاسلام الجسد مجرد رداء حقير ، ولم يزدر الحياة على الأرض . ويشبه التصوف الاسلامى الى حد بعيد الطبقة الثالثة فى المسيحية . فى ان افراد هذه الطبقة لايرفضون تماما الحياة المادية .. وكما فى الطبقة الثالثة ، تباح العضوية لجميع الناس

---

( ١ ) هناك ترجمة فرنسية حرفية لنص هذا الوقف فى كتاب Histoire des Bimaristan, par Ahmed Issa Bey. Le Caire, 1928.

وينبغى ان يكون ذلك واضحا ، لأنه لاتوجد كهانة فى الاسلام . وتختلف نظم الخانقاه حسب النصوص الواردة فى وثيقة الوقف . وبعض الخوانق قبلت المتصوفين المتزوجين ، الذين لم يقيموا ، بطبيعة الحال ، فى الخانقاه .

وقبل ان نشير الى بعض حالات التطرف التى كانت ترتكب ، يجب علينا ان نذكر الفقرة التى افردها ابن بطوطة للحديث عن خوانق القاهرة[1] :

واما الزوايا فكثيرة وهم يسمونها الخوانق ، واحدتها خانقة ، والأمراء بمصر يتنافسون فى بناء الزوايا . وكل زاوية بمصر معينة لطائفة من الفقراء ، واكثرهم من الاعاجم ، وهم اهل ادب ومعرفة بطريقة التصوف . ولكل زواية شيخ وحارس ، وترتيب امورهم عجيب . ومن عوائدهم فى الطعام انه ياتى خديم الزاوية الى الفقراء صباحا فيعين له كل واحد مايشتهيه من الطعام ، فاذا اجتمعوا للأكل جعلوا لكل انسان خبزه ومرقه فى اناء على حدة ، لايشاركه فيه احد . وطعامهم مرتان فى اليوم . ولهم كسوة الشتاء وكسوة الصيف ومرتب شهرى ، من ثلاثين درهما للواحد فى الشهر الى عشرين . ولهم الحلاوة من السكر فى كل ليلة جمعة ، والصابون لغسل اثوابهم ، والأجرة لدخول الحمام ، والزيت للاستصباح .

وهم اعزاب ، وللمتزوجين زوايا على حدة . ومن المشترط عليهم حضور الصلوات الخمس ، والمبيت بالزاوية ، واجتماعهم بقبة داخل الزاوية . ومن عوائدهم ان يجلس كل واحد منهم على سجادة مختصة به ، واذا صلوا صلاة الصبح قراوا سورة الفتح وسورة الملك وسورة عم ، ثم يؤتى بنسخ من القرآن العظيم مجزاه ، فياخذ كل فقير جزءا ويختمون القرآن ، ويذكرون . ثم يقرا القراء على عادة اهل المشرق . ومثل ذلك يفعلون بعد صلاة العصر .

فى العصر المملوكى ، اصبحت الفرق الصوفية قوة سياسية تحسب لها الحكومة حسابا . ولهذا كان السلطان يعين رؤساءها حتى يمكن ان يحتفظ بشىء من الاشراف عليها . وضاق سائر رجال الدين والشريعة ، مثل اساتذة المدارس والقضاة ورجال الافتاء ، بهؤلاء الصوفيين الذين كثيرا ماكانوا من اصل اجنبى . ومانعرفه عن الصوفيين جاءنا عن طريق انتقاد هؤلاء القوم ، ولهذا يجب ان نقبل آراءهم فى الاحتياط شديد . فسخروا من اولئك الصوفيين الذين ادعوا انهم ينصتون فقط الى قلوبهم ، بعد ان

---

(١) رحلةابن بطوطة : ٣٧ ـ ٣٨

يسرفوا على انفسهم فى حلقات الذكر ، ليدركوا الحب الالهى . واكثر ماخشى من جانب الصوفيين هو ان يتمكنوا من بسط نفوذهم على الطبقات الشعبية ، الذين يجب المحافظة عليهم بصفة خاصة تحت سيطرة الحكومة . وقد وصلتنا اخبار بعض الحوادث . منها ماحدث فى سنة ١٤٩٦ ، حين ثار المتصوفة فى احدى الخوانق ضد رئيسهم ، وهو كاتب معروف ، فمزقوا أرديتهم والقوا بها فى حوض ماء للتوضؤ ، واوشكوا ان يعتدوا على رئيسهم . ولكن المؤرخ الذى اورد هذه الحادثة يقول : « واعقب ذلك اضطرابات تحتاج روايتها الى وقت طويل » .

لم تكن مصر هى البلد الوحيد الذى ترك فيه الرهبان او المتصوفة رسالتهم الدينية واتجهوا نحو استثارة الجماهير ، الأمر الذى ادى احيانا الى صدام مع السلطات المدنية . وهناك العبارات القاسية المعروفة التى قالها الكاردينال بيير دميان عن بعض الرهبان الايطاليين : « انهم جماعة من نساك المدن ، متوحدين فى الأسواق العامة ومترهبنين فى الدنيا ، يحاولون التسلط على الجماهير ، تحت ستار الرهبنة » . وقد ازداد نفوذ الفرق الصوفية فى الواقع فى العصر المملوكى ، وبدأ يتخذ مظهرا خطيرا . وليس من الانصاف طبعا ان نستنتج احكاما مطلقة من الآراء القليلة التى يجب ان ننظر اليها بعين الاعتبار . ولكنه من الغريب ان نرى عددا من كبار الكتاب المتدينين حملوا فى سخرية على هؤلاء الرجال ، ذوى الأسمال البالية الفاضحة والتصنع الرخيص ، الذين ارادوا ان يخلعوا رداء الحياء المرعى فى كل بقاع الأرض . وقد سود ابن خلدون احد سهامه نحو سكان الخوانق حين قال عنهم[1] : ... من سكان الزوايا المنتحلين للعبادة ، يشترون بها الجاه ليجيروا به على الله ، فلم يصوموا ولم يصلوا الا حين يضطرون الى ذلك ، واسرفوا فى جميع الملذات المباحة . ولم يلتزموا الا بالواجبات التى ان خالفوها خرجوا عن مسلك التصوف . ولم يكلفوا انفسهم قطعا عناء تدبر روح القوانين .

كان للمنشآت الدينية مثل المدارس والمساجد والخوانق مظهر خيرى ايضا ، وذلك لأن الهبات التى كانت تقدم لهذه المؤسسات الدينية مكنتها من ان توزع الغذاء والكساء المجانى . على ان اعظم اعمال البر جميعا هى

---

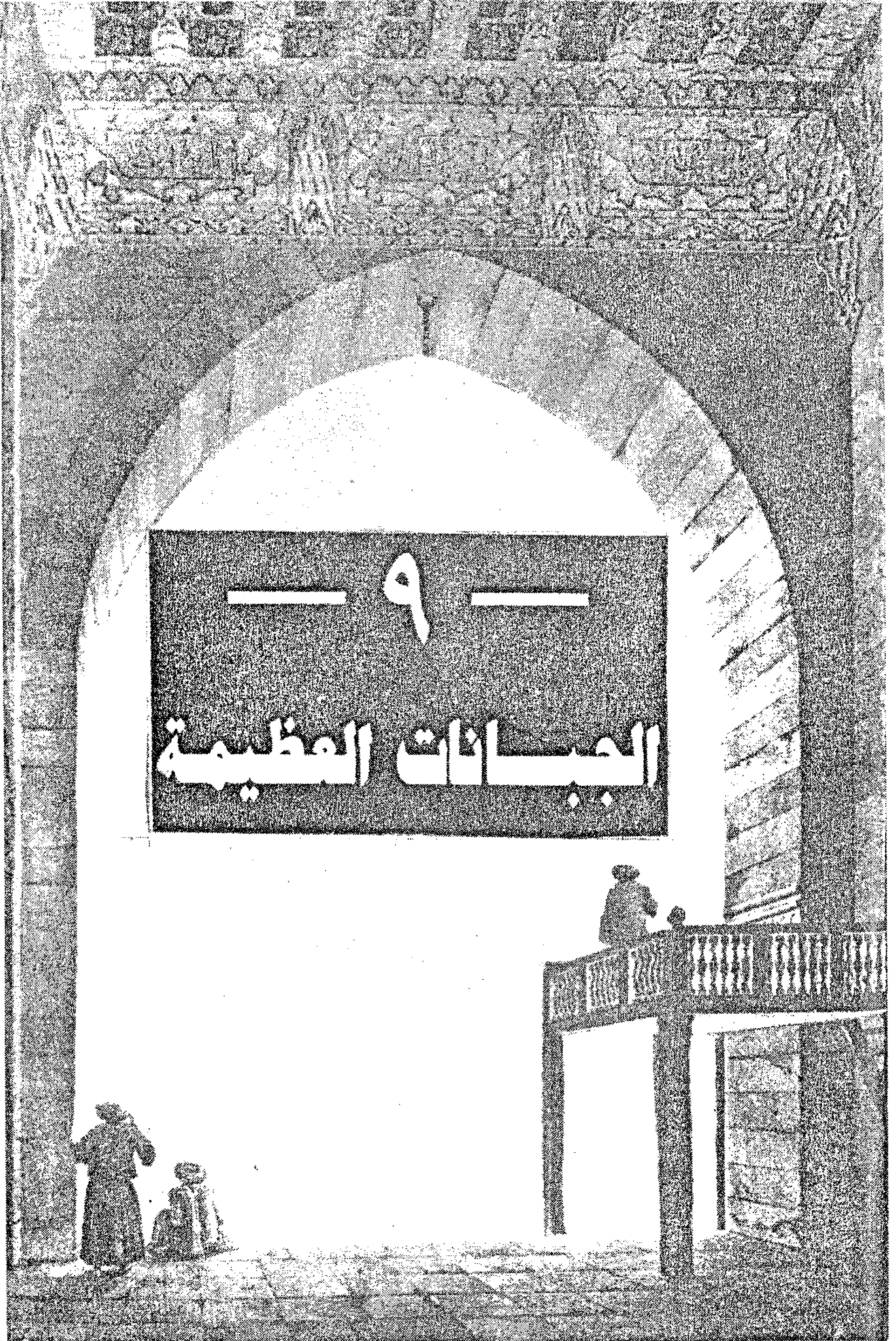
( ١ ) التعريف بابن خلدون : ٢٧٦ .

انشاء سبيل لسقيا الماء . وقد قال احد الكتاب الفرنسيين من ذلك العصر :
ان عظمة اى شعب يجب ان تقاس بمقدار مايعمل من اجل الحصول على الماء » ويتفق هذا القول مع حديث شريف منقوش على سبيل فى القاهرة : سئل الرسول صلى الله عليه وسلم اى الأعمال افضل ، قال : » سقى الماء «[1] والماء فى الشرق الأوسط ضرورة حيوية ، ولعل هذا هو السبب فى وجود نافورات فى اكثر البيوت فى العصور الوسطى . واقام اهل البر للفقراء اسبلة عامة . وقد امد هذا العمل الصالح اهل المدينة بماء للشرب ، كما انه ـ ولعل هذا هو الأهم ـ امدهم بماء للتوضؤ . ولهذا ابيح استخدام هذه الأسبلة مجانا لعامة الناس . وكان يقوم على تزويدها سقاؤون . وبواسطة الامتصاص ، يندفع الماء خلال انابيب نحاسية ، ويشرب المارة من اكواب مثبتة فى السبيل بواسطة سلاسل . ومما قاله احد الرحالة فى نهاية القرن الرابع عشر : » ان كثرة الأسبلة الموجودة فى المدينة لدليل رقيها « وكانت تلحق اول الامر بمبان اخرى ، مثل المدارس والخوانق . ولكن بعد ذلك ، فى العصر المملوكى ، اصبح السبيل بناء مستقلا لايخلو من رونق ، ذا احواض واسعة وشبابيك نحاسية ( يمد المار يده منها ليشرب ) . والحق بالسبيل ، فى الطابق العلوى ، كتاب للتعليم الأولى .
وفى القرن الخامس عشر ، لم يبق فى المدينة متسع من الأرض الفضاء سوى النزر القليل . ونتيجة لذلك ، كان من الضرورى ان يصغر حجم المبانى العامة التى بنيت عن سابقاتها . فبنيت مدارس اصغر حجما ، كما ازيل منها الفناء الأوسط المكشوف . واصبح يغطى البناء باسره سقف تتخلله فتحة تسمح بدخول الضوء نهارا . وبطبيعة الحال ، لم يعد هناك مجال لاقامة المدرسين والتلاميذ فى هذه المبانى : وعلى هذا ، لم يعد هناك فرق ظاهر ـ ابتداء من القرن الخامس عشر ـ بين المدارس والمساجد فهناك مصلى مستطيل الشكل : وقل حجم الليوانين الجانبيين الى مجرد تجاويف ، والشىء الوحيد الذى يذكرنا بالفناء الأوسط القديم هو اختلاف ضئيل فى مستوى الأرضية .



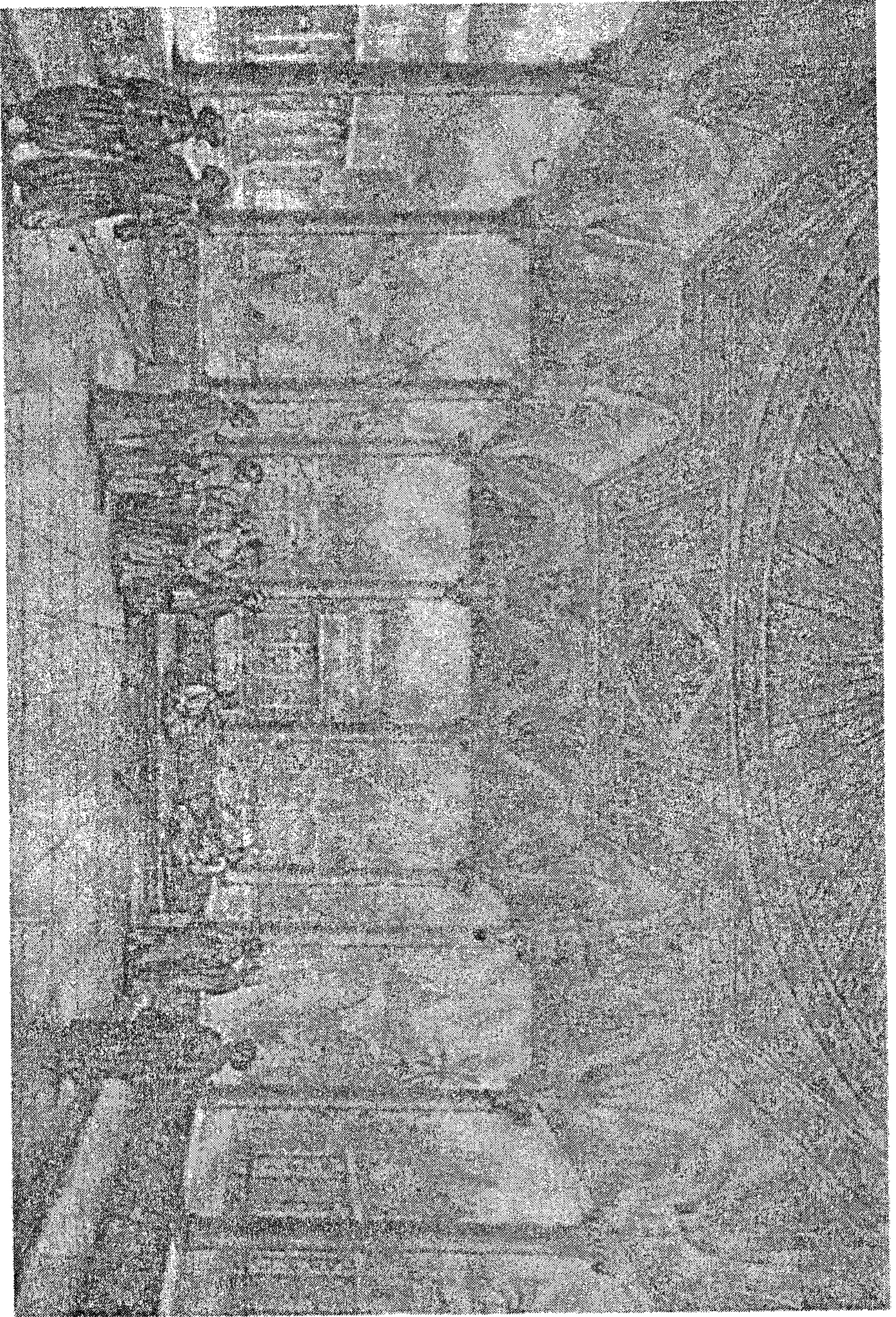
---

(١) Repertoire d'Epigraphie Arabhie Arabe, XVI, No. 6217.



# ٩

# الجبانات العظيمة



تقع الجبانات ، وهى المدافن الفسيحة ، فى ضواحى القاهرة من ناحية الغرب .

وكانت أول الأمر جنوبى القلعة . وقد ذكر ابن جبير انه يوجد[1] :

بسيط متسع يعرف بموضع قبور الشهداء . وهم الذين استشهدوا مع سارية رضى الله عن جميعهم . والبسيط المذكور مسنم كله للعيان على مثال أسنة القبور دون بناء . ومن العجب أن القرافة المذكورة كلها مساجد مبنية ومشاهد معمورة ، يأوى اليها الغرباء والعلماء والصلحاء والفقراء . والاجراء على كل موضع منها متصل من قبل السلطان فى كل شهر . ولكن اللجوء إلى القرافة والاقامة بها يناسب كلا من الرجل الصالح والشخص الفاسد : فانت واجد هناك كل ما تبحث عنه . فالعزلة فيها تسر الناسك ، بينما يحتمى بها المارقون من القانون .

وكانت تحدث فى ذلك المكان معجزة وصلنا خبر عنها ابتداء من القرن السادس عشر ، حين كتب باومجارتن يقول : « فى ظاهر المدينة ، على ضفاف النيل ، شاهدنا مسجدا ؛ وقيل لنا انه عند اقامة الصلاة فيه ، يخرج الموتى من مقابرهم ويقفون دون حركة طيلة الصلاة ، وبعد ذلك يختفون ويعرف كل شخص فى القاهرة هذه الحقيقة » . وبعد أعوام عديدة ذكر اجريبا دوبينييه هذه المعجزة فى كتابه « تراجيديات » Tragiques .

وقد رأى الرحالة المغربى ابن بطوطة[2] الجزء الجنوبى من القرافة فقط ، فقال :

وهم (يعنى أهل القاهرة يبنون بالقرافة القباب الحسنة ، ويجعلون عليها الحيطان ، فتكون كالدور ، ويبنون بها البيوت ، ويرتبون القراء يقرأون ليلا ونهارا بالأصوات الحسان . ومنهم من يبنى الزاوية والمدرسة إلى جانب التربة ، ويخرجون فى كل ليلة جمعة إلى المبيت بها بأولادهم ونسائهم ، ويطوفون على الأسواق بصنوف المآكل .

وفى العصر ذاته ، ذكر الرحالة الأوربيون تلك الظاهرة الفريدة عن الجبانات : « على مسافة ميل تقريبا ، شرقى المدينة ، تمتد جبانات

---

( ١ ) رحلة ابن جبير : ٢ ( ط. بيروت )

( ٢ ) رحلة ابن بطوطة : ٣٩ .

إسلامية فى غاية الاتساع ، وهى مشهورة جدا . وترتفع عاليا بين المقابر زوايا ومبان يظن الانسان انه ينظر إلى مدينة فسيحة بدلا من جبانة » .
وقال اخر : « وهناك جبانات واسعة توجد فيها مقابر المسلمين ، وشيدت بها مبان رائعة من الرخام والسماق والمرمر وغيرها من الأحجار الراقية ، متقنة البناء ومذهبة ، لم ار شبيها لها فى روعتها فى العالم المسيحى باسره . هذه هى مقابر قدماء السلاطين والأمراء ونبلاء العرب » .

وحفظ لنا بيلوتى ، فى سنة ١٤٢٠ ، اول وصف لمقابر المنطقة الجنوبية ، فقال :

على مسافة ميل من القاهرة ، توجد مدينة غير مسورة ، فى اتساع مدينة البندقية ، توجد بها مبان مرتفعة واخرى منخفضة . ويدفن فى هذه المدينة موتى أهل القاهرة . ولكل عربى من اهل القاهرة بناء فى هذه المدينة . فى المبانى المنخفضة يدفن الموتى ؛ وفى المبانى المرتفعة يقدم النبلاء الذين يمتلكونها صدقات للفقراء كل يوم جمعة : فهذا هو يوم العطلة ، ويوم الصلاة الجامعة ، ويوم اعداد وجبات كبيرة من اللحم . فى هذا اليوم ، يذهب جميع فقراء القاهرة هناك لياكلوا وياخذوا الصدقات التى تعطى لهم .

فى هذه المدينة من المقابر ، حيث كان المواطنون العاديون يدفنون فيما مضى فى مكان فاصل عند حافة الصحراء ، شرقى القاهرة ، اخذت الأضرحة الفخمة تشيد لتستقبل رفات الحكام من المماليك . ويبدو كان هؤلاء الأمراء الذين عاشوا حياة مليئة بالأحداث المثيرة ، رغبوا فى ان تكون مقابرهم فى مكان مهجور ناء ، بعيدة عن جمال الحدائق الخضرة واعين الأحياء ، وبعيدة عن صخب القلعة وكرسى الحكم ، كانما يريدون أن يمنعوا ضوضاء الحياة من ان تقلق نومهم الأخير . وتضفى القباب والمآذن الصاعدة إلى السماء على المكان جوا من السكينة والحزن معا . هذه المبانى الناصعة البياض ، الخالية من الظلال ، تقف فى ضوء دائم صارم لا يسمح مطلقا بتخفيف حدة زوايا البناء . وعند الغسق ، تصبح كرسم الظلال فى ارتفاعها إلى عنان السماء .

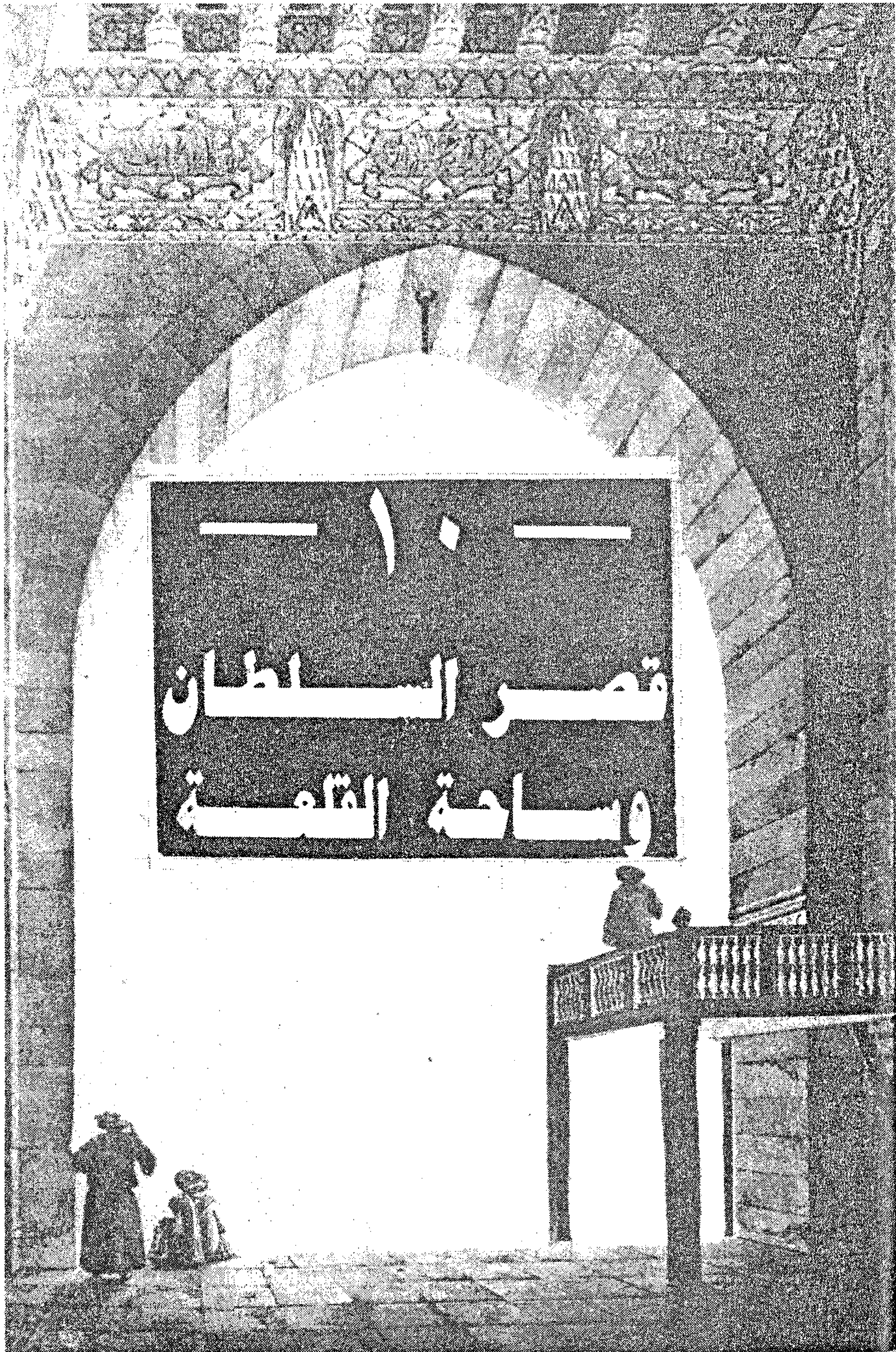
وقد زار هذا المكان بريدنباخ فى طريق عودته من القلعة ، فقال :

فهبطنا منحدرا حادا لا يخلو من خطر . ومررنا خلال عدد من الجبانات ، حتى وصلنا إلى مقابر السلاطين . فلكل سلطان مسجد خاص بنى فى البقعة التى اختارها لنفسه . وقد أمر السلطان الحالى قايتباى ببناء

مسجد كبير فسيح ، له مآذن عالية ماهرة الزخرفة . كما أمر ببناء منازل كبيرة حوله ذات عدد كبير من الحجرات كالأديرة . وفيها يعول فقهاء الشريعة والدين الاسلامي .

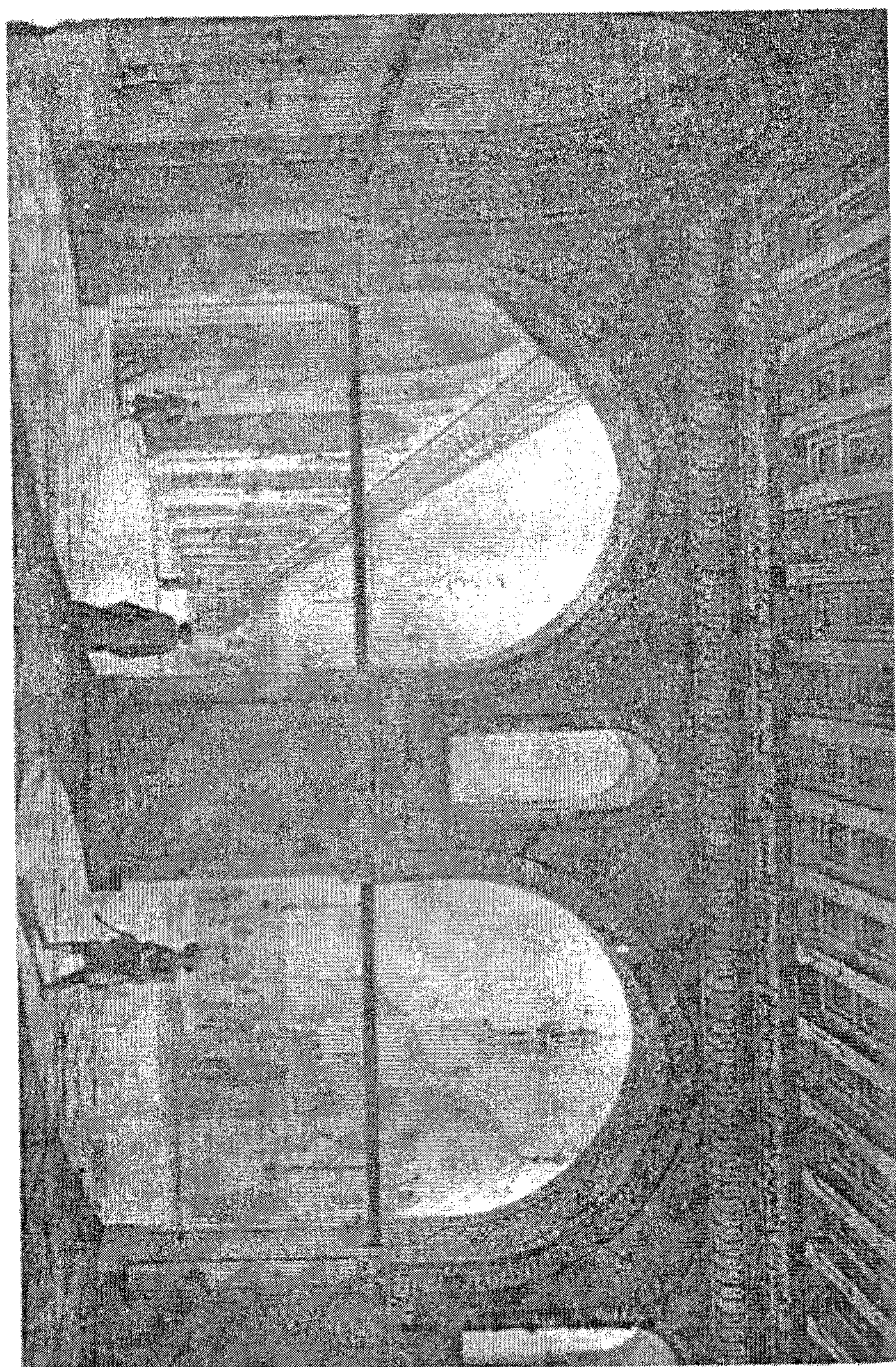
ولنتوقف قليلا عند مقبرة قايتباى الهائلة ، التى تحير اللب بروحها المرحة . ففيها نرى ميلاد فن زخرفى رفيع ، فيه سحر وجمال . كما تشعرنا بالتعبيرات الظلية الدقيقة التى يخلقها فن الحفر العربى فى حركة رقيقة لا مثيل لها . هذا هو عالم التخيلات المطلقة ، ولكنه أيضا يمثل ازدهار فن الزخرفة المتالقة . هنا يصل التانق ذروته ، ويبلغ فن الزخرفة أقصى درجات الروعة . فقد عمل الفنانون بموهبة طيعة حتى بدا عملهم كأنه تم بغير عناء . ويشعر الزائر كان البناء يرحب به فى سماحة وهدوء . واذا ما حاول أن يتتبع المزج الدقيق بين الخطوط التى تكاد تشكل نغما متناسقا ، فانه ينسى أهو أمام عمل من أعمال النحت أم أمام عمل من أعمال صائغ . كما أن تداخل عروق الرخام بين فاتح وقاتم ، والعقود الحجرية المزينة بالفستونات تبدو كأنها تبتسم لنا . ففى هذا العصر ، اتخذت المقابر مظهرا أليفا وديعا ، وهو أمر غريب حقا . ومقابر الخلفاء هذه ، كما تسمى - والتى لها من الشهرة ما طبق الآفاق ( فى وقت مضى ) - هذه الساحة الجنائزية والسهل الفسيح الذى تنطقه القباب والمآذن ، لا تحس بها اثرا للحزن على الاطلاق .





# ١٠

# قصر السلطان وساحة القلعة



لنصعد الى قمة جبل المقطم ، كما فعلنا في بداية هذا الكتاب ، ونقرأ مرة أخرى هذه الفقرة التى كتبها جوبينو :

يرى الانسان تحته أولا ميدانا فسيحا ، وفي الناحية المقابلة ، يرى مسجد السلطان حسن ، وبعد ذلك عن يمين ويسار يرى المدينة ممتدة ، تخترقها آلاف الشوارع ، وتنتشر فيها المساجد والمبانى الكبيرة ، ويجملها في مئات الأماكن مجموعات من الأشجار والحدائق . والمدينة غير مرحة ولا غريبة ولا جليلة بالمعنى الدقيق للكلمة ، نظرا لعدم وجود التناسق فيها على الاطلاق ؛ ولكنها كبيرة ، فسيحة ، مكشوفة ، مليئة بالحياة والدفء والحرية ، ولذلك فهى مليئة بالجمال . وباستطاعة الانسان ، بطبيعة الحال ، أن يجد مدنا أخرى تتوفر فيها بصورة أكبر مقاييس الكمال ، لن تجد هنا شيئا تام الاستقامة : ولكن إذا كان الانتظام غير متوفر . فالمظهر العام جاد ونبيل ، رغم تنوعه ، كما ان هناك شعورا بالقوة ، ورغم انها ليست من عمل الحضارات القديمة ، إلا انها ترجع الى عصور قديمة نسبيا ، وهى عصور لم يعوزها الايمان والفكر والشجاعة والثروة وكذلك النشاط .

وهذه نقطة ملاحظة ممتازة لتأمل هذه المدينة الجليلة . فإذا بك أمام مسرح من الأضواء ، تحده من ناحية الشمال والجنوب مآذن المقابر الملكية لسلاطين المماليك . أمامك مباشرة تجد مسجد السلطان حسن واقفا في جراة متميزة ، ويزيد من الشعور بفخامة هذا البناء الحجرى الهائل انتشار المباني مزدحمة وراءه . ويستوقف نظرك طويلا منظر الريف للسطح خارج المدينة ، بعيدا عن النهر الذى تقف وراءه مجموعة الأهرامات عند الافق كسلسلة من البقع الصغيرة .

تساعدنا مدرسة السلطان حسن – ولعلها أجمل بناء اسلامى – على فهم الهندسة العامة لبناء المعاهد التى خصصها لتعليم المذاهب السنية الأربعة . ونظرة من خارج البناء ان المدرسة تتكون من فناء أوسط أو صحن وأربعة أواوين والايوان المواجه لمكة أكبر من الأواوين الأخرى ، وهكذا يتخذ التصميم الداخلى شكل الصليب : وليس هناك ما يدعونا الى أن نعزو ذلك الى تأثير مسيحى . من الخارج ، يبدو البناء مربعا أو مستطيلا ، بسبب وجود غرف بين أضلع الصليب للمدرسين وبعض تلاميذ المذاهب الاربعة .

ان منظر البناء بقوته وضخامته وجدرانه العالية الصارمة . ليبدو

وكانه يتحدى القلعة الواقفة ازاءه . فكم من فتنة وكم من معركة دامية وقعت بين هذه الجدران . هذه المدرسة ـ في حقيقة الأمر ـ خصصت لأغراض التعليم الديني الهادىء ، ولكن بسبب موقعها لعبت دورا سياسيا . فعند حدوث قلاقل في القاهرة ، كان هدف الثوار الأول تحويل هذا المسجد الى معقل لهم . فالمنظر الخارجي يشبه حصنا مكعب الشكل . يزيد من مظهر ارتفاعه فجوات عمودية بها نوافذ ضيقة . وحافة بارزة تمتد في أعلى الجدران . ويتكون مدخل البناء من ممر ذى عطفتين ، يقود فجاة ودون اى تمهيد الى فناء واسع مكشوف ، تحيط بجوانبه الأربعة أواوين ضخمة ذات اسقف معقودة . والنغم السائد في هذا البناء هو الوقار من غير شك ، ولكن يخفف منه التناسق التام بين كتله .

يقع المكان الذى اختير لهذا البناء في مواجهة القلعة الحصينة التى تشرف على مدينة القاهرة ، ولعل المهندس قد استوحى فنه من التحدى الناتج عن هذه المواجهة . فمن التحدى أن تشيد بناء صارم السمت كهذا في ظل عداوة واضحة من جدران القلعة ، فقد حاول السلطان حسن أن يستغل كل شبر في القلعة ليجعلها تبدو كانها تتحفز لتثب في كبرياء ووقار ، بينما يبدو المسجد العملاق كانه قد عقد العزم على سحق القلعة ، ومما زاد مظهره تميزا موقعه الممتاز ، ووجود الساحة التى تفصل بينه وبين غريمته ، ونحن نلحظ في هذا الجامع الحصن جمالا أولمبيا ، يذكرنا الى حد ما بكاتدرائية البى ، إذ به من الصفات ما يجذب الذوق الفنى العام . لقد اتمت روعة البناء دقة المنطق عند التصميم ، فنتج عنهما عمل فنى واضح المعالم بلغ حد الكمال ، بحيث ان اى تعليق يصبح غير ذى معنى . وهو يمثل قمة في فن العمارة سيتحرك بعده الفن المملوكى ـ بما فيه من سحر لا ينكر ـ في اتجاه واحد فقط ، نحو التخلف . ففى مصر ، هو اكمل المبانى الاسلامية ، واكثرها تناسقا ، وهو البناء الذى يستحق ان يقف جنبا الى جنب مع الأعمال المعجزة التى خلفتها الحضارة الفرعونية . ومما يجعلنا نزيد في تقديره ، الظروف التاريخية التى بنى في ظلها . فهو ينقض الاعتقاد السائد فإن وجود ظروف مستقرة منتظمة أمر لازم لعمل طويل مضن مثل هذا البناء الحجرى الجرىء الرائع . فقد استغرق بناؤه سبع سنوات من العمل والعناء ، ان صدقت العبارة التى قالها السلطان ذاته : « لولا أن يقال : ملك مصر عجز عن اتمام بناء بناه ، لتركت بناء هذا الجامع من كثرة ما صرف عليه »[1] . ويضاف الى ذلك العقبات السياسية التى أدت الى عزل السلطان . وانه لمن سخرية الأقدار ،

---

( ١ ) الخطط ٢ : ٣١٦

ان الحاكم الذى بنى لنفسه مثل الفراعنة مقبرة خالدة مات مقتولا ولم يضم رفاته قبر .

الطاعون الذى حدث سنة ١٣٤٨ ، الذى قضى على ثلثى سكان فلورنسة ، تسبب فى موت اعداد مفزعة فى القاهرة . ولسنا بحاجة الى أن ننكر أن ثروات باسرها آلت الى خزانة الدولة بسبب عدم وجود ورثة احياء . فقد قيل ان الميراث فى بعض الحالات انتقل بين أربعة او خمسةورثةمتعاقبين فى يوم واحد . كان ذلك فى النصف الأول من حكم السلطان حسن : وربما كانت الزيادة غير المتوقعة فى الأموال سببا فى ميله الى الاسراف .

من المحتمل أن السبب الذى دعا صلاح الدين الى بناء القلعة هو تهدئة شعب قلق ومقاومة اى هجوم محتمل من جانب عدو اجنبى . « اما فى عصر خلفائه » ، فيقول مارسيل كليرجيه :

اتخذت القلعة المظهر الأكيد للمدينة ـ القصر المحصنة . فاتصل البناءان تدريجيا : بينما تضاعفت المنشآت القضائية والادارية ، وزحفت على المنطقة الواقعة اسفل النشوز الذى فى الجبل ، وفتحت ابواب كثيرة فى الأسوار . واخيرا ، انقسمت الساحة الى عدد من الأجنحة : غرفة لتنفيذ الأحكام ، وحظائر هائلة ، وحمامات ، ومسجد ، وحدائق زودت بوفرة من الماء بطريقة ماهرة بالآبار والقنوات والسواقى . فجذبت اليها هذه المرافق عددا متزايدا من الناس ، وتكونت الأسواق والمتاجر لبيع المأكولات والأسلحة والمواعين المنزلية . ويصفها كازانوفا بصدق بانها كانت أشبه ببوتسدام ، او فرساى صغيرة ، تتخللها شوارع ضيقة منحنية منحوتة فى الصخر .

أعاد السلطان محمد بن قلاوون بناء غرفة السلطنة او العرش الفسيحة فى القلعة . فشيد فوقها قبة رائعة ، ووسع مساحتها ، وزودها بأعمدة ممتازة من صعيد مصر ، وكساها بالرخام ، ووضع فى الوسط كرسى السلطنة المصنوع من العاج والابنوس . وزاد فى ارتفاع الغرفة كثيرا ، وبنى أمامها ميدانا فسيحا . وبالباب المؤدى الى الغرفة يوجد حاجز من الحديد المشغول بمهارة ، ليمنع الناس من الدخول . اما السلطان نفسه ، فكان له باب يبقى عادة مغلقا ، وفى مناسبات الاستقبال ، يفتح الباب حتى يرى من خلاله أو من خلال الشبابيك ذات القضبان الجزء الأكبر من جيشه فى الميدان . وكان السلطان يعقد الاستقبالات عادة يومى الاثنين والخميس من كل اسبوع .

وتروى لنا احدى الرحلات انه :

فى اتجاه منتصف مدينة القاهرة ، من الناحية الشرقية ، فوق نتوء فى الجبل ، توجد قلعة السلطان ، وهى واسعة ، جميلة ، حسنة البناء ، تزينها المبانى العسكرية والقصور ومكاتب الادارة وغيرها من روائع الدولة . ويقال ان قطرها يبلغ الميل ، وانها تبعد عن المدينة بمقدار مدى قذيفة المنجنيق . ويقيم بها عشرة آلاف فارس ، معينون لحراسة السلطان ، دون أن ندخل فى حسابنا واولئك الذين يقيمون فى المدينة الآنفة الذكر . واساسات القلعة ، وكذلك سائر منشاتها ، مبنية من حجر أبيض رخو . ولا يوجد بالقلعة ، بالرغم من حجم الحامية العسكرية بها ، اى عيون للماء ، واسوارها ـ فيما يقال ـ تنهار بسهولة .

واليك وصف خليل الظاهرى فى منتصف القرن الخامس عشر[1] :

واما دار الملك الشريف التى بها تخت المملكة ، المعروفة الآن بقلعة الجبل ، ليس لها نظير فى الاتساع والزخرفة والابهة والعلو . تشتمل على سور وخندق وابراج وعدة ابواب من حديد ، وهى حصينة جدا ، وبها من القصور والأواوين والمجالس والغرف والطباق والأحواش والميادين والاصطبلات والجوامع والمدارس والأسواق والحمامات ما يطول شرح ذكره . ولكن ناتى بملخصه لما فيه من العظمة والأبهة والناموس الشريف . اما قصر الابلق ، فبه ثلاثة قصور شريفة وخرجاه برسم المواكب السلطانية . الجميع مفروش بالرخام الملون ، والسقوف مدهونة بالذهب واللازورد والنقوش العجيبة . واما الايوان الاعظم ، فليس له نظير ، وهو مكان بمفرده بظاهر القصر ، تعلوه قبة خضراء عالية جدا ، حسنة المنظر ، وبه مرتبة الملك ، وعمد كثيرة ، وهو مكان عجيب . أما الجامع الكبير الذى بالقلعة فليس له نظير . قيل انه يصلى فيه خمسة آلاف نفر . وبه عمد عجيبة فى الغلظ ، وبه منارتان . اما الدهيشة ، فهى من العجائب ، وعمارتها حسنة ، من خواص مجالس السلاطين . وأما القياع المخصوصة بالآدر الشريفة فعديدة .. واما طباق المماليك الشريفة السلطانية اثنتا عشرة طبقة ، كل طبقة منها قدر حارة تشتمل على عدة مساكن . حتى انه يمكن السكنى فى كل طبقة لألف مملوك . واما الحوش الشريف ، فانه متسع جدا ، وبه بستان عظيم ، وبه بحرة معظمة . واما الاصطبلات الشريفة ، فانها متسعة جدا برسم الحيوان السلطانية . واما المديان الشريف ، المعروف بالأسود ، فمتسع جدا برسم المسايرة .

---

( ١ ) زبدة كشف الممالك ٢٦ : ٢٧

ويصر رحالة القرن السادس عشر على قلة القيمة العسكرية لهذه القلعة . فكتب جان تينو يقول :

يكاد يبلغ قصر السلطان فى اتساعه مساحة مدينة أورليان . عند دخولنا اطلقت طلقتان . وكان هناك خمسون موسيقيا بآلات مختلفة . ومررنا بساحة بها نحو من خمسمائة مملوك فى تشكيل عسكرى ، فى ثياب طويلة بيضاء وقبعات مستديرة خضراء وسوداء . ثم مررنا بساحة اخرى ، رأينا عند مدخلها بعض عدد الحرب وآلات تحطيم الأسوار ، كما رأينا صانعى الأسلحة ومثقفيها ، وفى هذه الساحة نحو من الفى مملوك ابهى منظرا من الآخرين . وعلى رأس هذه السلحة ، فوق حجر مرتفع مغطى بالسجاد الثمين ، جلس السلطان القرفصاء . وأمامه على الأرض سجادة لاتقل مساحتها عن عشرين قدما مربعا ، ملابسه من الحرير الأصفر ، وعلى رأسه عمامة عالية مصنوعة من نسيج رفيع من الهند ، ومشكلته على هيئة ست قمم ، اثنتان الى الأمام ، واثنتان الى اليمين ، واثنتان الى الشمال . وكان هذا الأسلوب من العمائم ذات القمم العالية مستخدما منذ عشرين عاما فقط فى ذلك الوقت ..

ويضيف تريفزانو البندقى ، الذى استقبله حاكم مصر :

للقاهرة قلعة غير قوية ، ويبلغ محيطها نحوا من ثلاثة أميال . وهى مشيدة على أرض مرتفعة من الصخر ، وتشرف على المدينة بأسرها . وبداخلها قصر السلطان . وهو فى غاية الجمال والامتاع . ولايوجد فى القاهرة مكان آخر محصن . ومثل هذه القلعة لاتسمى حصنا فى بلادنا ، وانما يطلق عليها اسم قصر عظيم .

كان السلطان يجلس أثناء المقابلات الرسمية تحت مظلة مطرزة بخيوط من الذهب . ويزين باب مخزن الأسلحة أعلام ورايات وأسلحة عدة الخيل والزرديات والبلط والسيوف . واكثر وصف تفصيلى لمقابلة فى القلعة ما ذكره فيليتشى برانكاتشى الفلورنسى الذى حظى بمقابلة السلطان بيبرس سنة ١٤٢٢ ، قال :

قبل بزوغ الفجر بساعة ، حضر الينا ادلاؤنا واحضروا معهم خيلا ، وحضر معهم احد النبلاء المعينين لاستقبال السفراء ، وكذلك عدد من الموظفين الآخرين ، بعضهم مترجلين وبعضهم على ظهور الخيل ، وخرجنا قاصدين شطر قلعة السلطان الواقعة على مسافة ميلين فوق مكان مرتفع ووصلنا عند مشرق الشمس ، ولكننا انتظرنا نحوا من ساعة خارج الأبواب الأولى ، وكانت الشمس قد ارتفعت فى السماء ، واخذ المماليك ،

وهم النبلاء على مختلف درجاتهم ، يتوافدون على القلعة . وكانوا فى أعداد كبيرة يلبسون زيهم التقليدى من التيل الأبيض الذى يصل الى الأرض تعلوه عباءة فضفاضة من الكتان الرفيع ذات أكمام محلاة بصفوف من التطريز الأزرق تتكون من رسوم اختص بها هؤلاء القوم . وقد ارتدى جميعهم هذا الزى . وفى منتصف الساعة الثالثة ، صعدنا الى القلعة بواسطة طريق صاعد يبلغ اتساعه ثمانين ياردة ولكنه شديد الانحدار وشاق لصعود الخيل ، حتى وصلنا الى باب دخلنا منه الى فناء كبير ، حيث جلسنا بين عدد كبير من المماليك وانتظرنا نصف ساعة . وبعد ذلك ، مررنا خلال باب آخر وسرنا فى عدد من الممرات ذات القباب بين صفين من المماليك يواجه كل منهما الآخر حاملين الرماح فى أيديهم ، حتى وصلنا الى باب آخر تقوم عليه الحراسة بالطريقة ذاتها . وبعد أن واصلنا السير خلال ممرات ذات قباب ، خرجنا الى فناء حيث شاهدنا مرة ثانية رجالا مسلحين بالرماح ومصطفين بالطريقة ذاتها وهناك تم تفتيش ثيابنا بما فيها الملابس الداخلية للتأكد من عدم وجود اسلحة معنا . واخيرا وصلنا الى حيث يقيم السلطان ، بعد أن صعدنا ثمانى مجموعات من الدرج وقف على طولها رجال مسلحون بالرماح ، ورماح هؤلاء تنتهى براس من الحديد متعدد السنان وهى تشبه ما نطلق عليه عندنا اسم halkered ( وهو نوع من الفؤوس ذات السنان المدببة ) وقد عقدوا رماحهم فوق رؤسنا اثناء مرورنا . وفى كل مكان من أماكن الحراسة ، وجد نحو من اثنى عشر رجلا من حاملى الرماح . والحجرة التى دخلناها ، حيث جلس الأمير ، تنقسم مثل الكنيسة الى ثلاثة أروقة يفصل بينهما أعمدة من الحجر . والرواق الأوسط أكبر من الرواقين الجانبين . وتنفتح هذه الأورقة من الجانب الذى دخلنا منه ، ويغطى الفتحات شبكة مسدلة من أعلى الى أسفل . ورصفت الأرض ببساط . وفى مواجهة المدخل ، ترتفع منصة تؤدى اليها درجات على الجانبين وقد جلس السلطان على أرض هذه المنصة . وليس لهذه المنصة حافة مرتفعة ، كما كان الدرج على الجانبين بغير سور ، وكان من السهل رؤية السلطان من كل مكان . وكان يرتدى ملابس من الكتان مثل الآخرين ، ويبلغ من العمر حوالى ثمان وثلاثين أو أربعين سنة ، وله لحية بنية اللون ، ويقف خلفه مباشرة عدد كبير من المماليك ، يحمل أحدهم سيفا مشهورا وجرابه فى يده ، ويحمل آخر أبريقا ، ويرفع ثالث عاليا فوق كتفه الايمن عصا من الذهب الخالص يبلغ طولها ياردة واحدة وسمكها بوصة . ويقف عدد كبير من المماليك بالقرب منهم وعلى الدرج الجانبى وعند أسفل

المنصة . وقد نظم هذا الجمع الكبير بطريقة تذكرنا بمناظر مواكب النصر التى ترى فى الصور . وانتشر فى كل مكان ، وخاصة على الدرجات أسفل العواميد ، موسيقيون يعزفون على الكمان والربابة والعود والآلات الخافتة الصوت والصاجات ، جميعا فى وقت واحد بصحبة مغنين ، محدثين أصواتا عالية ، وقد يتفق النغم احيانا . ولايمكنني أن أقدم وصفا منظما نظرا لأن عينيَّ أعماهما البريق ، وأصمت أذنيَّ الأصوات ، وكنت ملزما فوق ذلك بتقبيل كل درجة . وبالاضافة الى ذلك ، يمسك رجلان بكتف كل واحد منا ويدفعاننا ونحن منحنون كما لو كنا من دواب الحمل . وفى كل مرة أرادوا منا نقبل الأرض ، كانوا يصيحون صيحات عالية فى لغتهم بشكل اصم أذننا . وعلى هذا النحو ، الزمونا بتقبيل الأرض سبع أو ثمانى مرات ، حتى اذا أصبحنا على مسافة خمس وعشرين ياردة من السلطان ، توقفنا وسكتت الأصوات . وطلب منا الا نطيل الحديث فى هذه المقابلة الأولى التى ظلت اثناءها ثلاثة فؤوس لامعة مشهرة ويلوح بها فوق رؤوسنا ولم نكد نذكر لمترجمنا بضع كلمات نقدم بها الموضوع حتى قوطعنا بكلمات « كفى .. كفى .. » ، وبعد أن الزمنا بتقبيل الأرض ، سحبنا الى الوراء نحو مدخل الغرفة . وهناك ، بعد أن قبلنا الأرض ، سمح لنا أن ندير ظهورنا للسلطان وأن ننصرف . وهنا غادر السلطان الغرفة ايضا ..

وهذا وصف أخير للقلعة كتبه بيير بيلون يمكننا أن نذكره ، فهو لايقتصر على ذكر تفاصيل مماثلة فحسب ولكنه يقدم تحية أخيرة لسلاطين المماليك ..

ان مبانى قلعة القاهرة ، وحجراتها ، وابهاءها الجميلة ، والرسوم الموجودة فيها ، لتقوم دليلا على عظمة الجراكسة الذين حكموا مصر مدة ليست بالطويلة . فالجدران مرخمة بقدر ارتفاع قامة رجل ، وحول الأبواب والنوافذ ، وهناك اطار يبلغ عرضه قدما مطعما على الطريقة الدمشقية بالصدف والأبنوس والبلور والرخام والمرجان والزجاج الملون . وتقع القلعة على صخرة صلبة قطعت فيها درجات لتيسر الصعود . وعلى هذا ، فان موقع القلعة يتكون من أرض مرتفعة تكاد تكون مستديرة ، وهناك عدد من الأبراج العالية المستديرة صنعت على الطريقة القديمة وليست من مواد بناء جيدة . وميدان القلعة كبير فسيح ، كما أن المبانى جميلة مشرقة لأنه عند النظر من النوافذ هنا وهناك ، حيث المناظر الجميلة المكشوفة ، يمكن

رؤية مصر باسرها تقريبا . ولكن لاتعتبر قلعة القاهرة منيعة جدا اذا ما قورنت بما عندنا من حصون ..

وقد ادركت الحكومة نفسها هذه الحقيقة ، فحين هددتها ثورة فى سنة ١٥٠٠ ، قررت اعادة تنظيم الدفاع عن القلعة . فوضعت المدافع فوق الأسوار ، كما تم اصلاح الأسوار والقلاع ، واقيم باب على السلم المدرج الذى لايزال موجودا ، واحيط باب السلسلة ببرج بنى من الحجر ، وفتحت فيه فتحات لرماة السهام وابواب صغيرة . وسد السلطان الفتحات المؤدية الى الميدان وساحة العرب والحظائر بالقرب من منحدر المدخل . ثم امر بهدم مدرسة السلطان حسن ، فبدىء العمل فى جزء من الواجهة ، وحين مضت ثلاثة ايام دون انجاز شيء يذكر ، عدل عن المشروع . وقد انزعج الناس بشأن الاقدام على هدم مثل ذلك البناء الرائع الذى لامثيل له فى سائر انحاء العالم ، كما انه هدم فى غير طائل . وفضلا عن ذلك ، فقد ثبتت استحالة التنفيذ ، وكان العدول اكثر نبلا من الاعتراف بالاخفاق . وأمر السلطان بإحضار العلف والفطائر والجبن وغيرها من مواد الغذاء الأساسية الى القلعة . فامتلأت المخازن والمطابخ بكل ما كان ضروريا لمواجهة حصار شهرين . ودمر سلم مدرسة السلطان حسن . واحضرت الى القلعة مواد حربية . وخاصة قطع من الخشب لبناء السيوف والزرديات والدروع بانواعها والقسى والسهام ووزعت بين الجنود .

اما مشكلة الماء ، فقد أعيد التفكير فيها بعد ذلك بقليل . ففى حوالى شهر نيسان ( ابريل ) من سنة ١٥٠٧ ، أمر السلطان بتدمير خليج مصر القديمة وإعادة بنائه . فحفر بئر عند نقطة ابتدائية ووصل بينه وبين النيل بمجرى مائى ، ورفعت المياه الى المستوى المطلوب بواسطة مجموعة من السواقي .. ورفعت القناة التى كانت تصل الي القلعة على عقود تعتمد على اعمدة . وقد اعتبرها اهل العصر معجزة كبرى ، ولكنهم ضاقوا بالأموال الطائلة التى انفقت على بنائها ، خاصة وان هذه الأموال استخدم فى جمعها اساليب العنف ومصادرة الأملاك . وتبدو هذه القناة عند النظر اليها من مكان مرتفع فى حالتها الهالكة الراهنة ، « بحكم موقعها فى سهل قاحل ، كهيكل عظمى لثعبان قد تفككت فقراته » ..

ويوجد فى القلعة عدد من السجون . فهناك الجب الذى بنى فى نهاية القرن الثالث عشر ، وكان يسجن فيه الأمراء . وبعد ان استمر استخدامه اربعين سنة ، نزل اليه مفتش المباني ليصلح عمارته ، فشاهد امرا مهولا من الظلام وكثرة الوطاويط والروائح الكريهة التى شاعت فى هذا السجن

الأرضى . فامر بردمه فى الحال . ولكن يوجد سجن اخر لايقل عنه سوءا كان يسمى « ارقوانة » ( اى بركة الوحل ) ، وكان يستخدم للمسجونين السياسيين أو للتجار الذين خالفوا القانون . بعض هؤلاء المسجونين وضعوا فى الحديد وتركوا هناك سنين طويلة . وبطبيعة الحال كان الهروب ممكنا ، ولكن تحت خطر كبير . وليس لدينا سوى اوصاف متاخرة عن هذه السجون كتبها لنا الرحالة الاوروبيون .

يرى الانسان احباسا وسجونا من بينها ذلك السجن الذى احتجز فيه يوسف النبى وحيث قام بتفسير احلام زملائه الذين سجنوا معه ، وهو فى الوقت الحاضر عفن نتن حيث تساء معاملة المسجونين المساكين المقيدين بالسلاسل والمشدودين بالحديد الى كتل من الخشب ، واذا لم يمنحوا صدقات ، فسوف يكون مالهم الموت جالسين على ارض رطبة وعلى القاذورات التى تتكوم فى كل مكان ..

من بين المبانى الخارجية فى قصر السلطان بالقلعة التى زارها بعض الرحالة ، حظائر السلطان التى لم تضم الخيل الخاصة فحسب ولكن ضمت كذلك عددا من الحيوانات الغريبة الجميلة . فكان هناك ، اولا ، الفيلة . وفى ذلك يقول احد الرحالة : « راينا ثلاثة منها ، وكل واحد مقيد من رقبته واقدامه الى عواميد وقوائم بواسطة سلاسل ضخمة من الحديد ، ورغم أنها من غير شك حيوانات فظيعة وليست جميلة المنظر ، إلا انها ، بسبب ضخامة حجمها وعلوها ، تبدو متمتعة بتلك القوة العظيمة التى يتحدث عنها الكتاب المقدس » ..

ولكن لعل الزرافة كانت اكثر اثارة للعجب من غيرها من الحيوانات .. انها عظيمة الارتفاع بحيث أن رجلا طويلا لا يكاد يبلغ باطراف اصابعه اعلى فخذيها ، وهى حيوان جميل جدا يتميز بالرقة والوداعة . لايخلو شعره من التجاعيد ، وجلده شديد الشبه بجلد الغزال . وتغطى جسم الزرافة بطريقة أو اخرى بقع ملونة خفيفة ، ورقبتها ضعيفة طويلة وتحملها عاليا عند المشى . ويوجد فوق راسها قرنان صغيران ، وجبهتها مدببة فى شكل الماس ، وقائمتاها الاماميتان اكثر ارتفاعا من الخلفيتين ، وبسبب هذه الخاصة ، يحسبها الناس وكانها مشوهة التركيب ، وذيلها الذى لايكاد يتحرك رفيع ويغطيه شعر قليل جدا عند الطرف ..

ويحتمل أن السلطان احتفظ ايضا بحيوانات مفترسة ، فقد قيل انه فى يوم ٣٠ نيسان ( ابريل ) سنة ١٥١٥ اصطرعت فيلة كبيرة الحجم واسود وحيوانات اخرى متوحشة فى الميدان ..

* * *

لو ان العالم الاسلامى عرف فكرة الـ « commune » ( والمقصود بها اغتصاب هيئة من الأفراد لسلطة الحكم الذاتى ) لمثل بناء السلطان حسن المواجهة لمركز الحكم تحدى المدينة لسلطان الدولة . وعلى أى حال ، فان وجود هذا البناء العتيد فى هذا المكان شكل خطرا مستمرا فنحن نعرف أنه لم يكن دائما بقعة هادئة أمنة ، اذ كان مسرحا لاشد المغامرات السياسية دموية فى تاريخ المماليك : ففيه ارتكبت أغرب الجرائم واكثرها وحشية . ففى هذا العصر ، ساد من القلق والاضطراب ما يبعث على الأسى ، حين تلاطمت على بناء القلعة موجات من الغضب والسخط . فهذه الساحة للعرض العسكرى تشبه ميدان السنيوريا فى فلورنسة - اذا ما تغاضينا عن طبيعة اختلاف المكانين - من حيث انها القلب النابض للحياة السياسية طيلة قرنين من حكم سلاطين المماليك ..

بين الحصنين ، الحصن الحقيقى ومسجد السلطان حسن ، أقيمت الحفلات والموائد للسفراء فى وقت السلم . فالمكان فسيح حقا ، حيث يستطيع الناس ان يتمتعوا بالمشى . وكان هذا الميدان المسطح لايخلو من اعداد لاتنتهى من الناس ، بين راجل وفارس ، ولامن الجنود وسائر موظفى السلطان . وفيه سوق لبيع الجمال والحمير والخيل .

والى الجنوب منه الميدان ، وهو مكان مباريات المبارزة ، حيث عرض المتبارزون اساليب مهارتهم فى المراوغة ، التى أعجب بها المماليك أيما اعجاب . كما عقدت مباريات البولو التى كانت تسمى لعبة الكرة ، فى هذه الساحة الرملية . وقد كتب رحالة من ذلك العصر يقول :

احيانا يجنح السلطان مع سائر ضباطه الى التسلية . والتسلية التى يمارسونها هى ذاتها التى يقوم بها الرعاة فى البلاد المسيحية الذين يلعبون بكرة وعصا منحنية . وهناك فرق واحد ، وهو أن النبلاء وسلطانهم لايضربون الكرة إلا من فوق ظهور الخيل . وحولّوها بأسلوبهم الخاص الى مبارة عسكرية . لقياس قيمة الفرس وقوة راكبه وسرعة حركته وغيرها من الصفات العسكرية .

كانت الكرة توضع فى وسط الملعب ، ويرسم خطان متوازيان : خط عند كل طرف . ويقسم الراكبون الى فريقين . ويحمل كل لاعب مضربا ذا يد طويلة ، ويحاول أن يضرب الكرة وراء الخط المواجه . وقيل ايضا انه ، وجد عند نهاية الملعب قصر فسيح مرتفع ، تستطيع منه نساء السلطان وسائر النبلاء مشاهدة اللاعبين ، وخاصة السلطان نفسه ، دون الاختلاط بالجمهور الكبير من النظارة . وكلما جاء دور السلطان ليضرب

الكرة . يصفق الجميع ويباركون . وتصدع أصوات الأبواق مرات عديدة ، وتسمع دقات خافتة عميقة من الطبول بين الصياح والتهليل » .

وفي هذا الميدان ايضا ، اظهر المماليك مهارتهم كرماة : فالرماية هي الرياضة الوطنية بين المماليك الأتراك . فكانت حمامة توضع داخل قفص من الذهب أو الفضة ، ويطلق المبارون سهامهم اثناء ركوبهم بأقصى سرعة ، محاولين اصابة الحمامة ..

شاهد جياكومينو الفيروني التدريبات العسكرية اليومية للمماليك ، وقال :

يجتمع الجنود كل صباح امام باب القلعة . وجمعيهم مسلحون بالقسي ، ويركبون خيلا صغيرة ، ولم أر بينها أبدا فرسا حربيا . وأجسام الفرسان ضعيفة الحماية ، ولايغطي رؤوسهم سوى خوذ صغيرة من الحديد . وقليلون منهم فقط يلبسون الدروع ، اما الآخرون ، فيلبسون وقاء من الجلد فقط . وليس لأحدهم أي وقاية للذراع الذي يحمل القوس ، ولا للأفخاذ والأرجل . وهم يستخدمون ركابا قصيرا ، وعندما يريدون الرمي بالقسي ، يقفون عاليا عليه . ومن هذا الوضع يرمون السهام . اما خيل السلطان ، فقد رايتها جميعها تلبس أغطية مطرزة بخيوط الذهب والحرير . وحسب قوله رحالة أخر من القرن الرابع عشر ..

يركب جميع الفرسان على سروج منخفضة وركابات قصيرة ، كما تفعل النساء . وفي مؤخر كل سرج توجد حلقة يثبت فيها بطريقة عسكرية عصا او هراوة لوقاية الفارس وحمايته . وجميع الفرسان بغير استثناء مسلحون بسيف مقوس ، كما أن اكثرهم رماة مهرة ، وخاصة الأتراك منهم الذين يستخدمون أقواسا مصنوعة من قرون محدبة . وسهاما ذات رأس كرأس الحربة ، ورأس السهم مثبت في جسم السهم كما يثبت السلاح في مقبض السكين ..

وقد وصلتنا معلومات مشابهة من نهاية القرن الخامس عشر تقول : « في كل يوم ، أو على الأقل ثلاث مرات في الأسبوع ، يخرج مماليك القصر الى اسفل الجبل ، ليقوموا بتدريباتهم العسكرية . وتشتمل هذه التدريبات على تسلق المضايق والمنحدرات ، وبذلك يدربون خيولهم على الحركة في السهول والجبال » ..

وقد بلغت القلعة أوجها في عصر السلطان الغوري في بداية القرن السادس عشر ، إذ أمر هذا الحاكم بأن يرفع مستوى الأرض في الميدان بمقدار أربعة أقدام ، ثم سويت وغطيت بالحصى الصغيرة . وكذلك بنيت

مقصورة وغرفة لتستخدم كدار للمحكمة . وفى الطرف الغربي ، شيدت شرفة ذات مظلات جميلة صغيرة على الجانبين وبركة من الماء . كما زرعت اشجار الفواكه وأحواض الأزهار وشجيرات النباتات العطرية . فهذا السلطان الذى أولع بزراعة الاشجار كان يحب ايضا منظر أحواض الزهور . وكان يذهب الى ذلك المكان كل يوم ، ليس فقط لأنه مكان اجتماعاته الرسمية ولكن لانه كان يحب المشى فيه ..

ولنقرأ الوصف الذى أورده تريفيزانو ، سفير دوقية مدينة البندقية :

هو ميدان يمتد اسفل الأسوار وتتم فيه تمرينات الفروسية الماهرة . وهذا الميدان الكبير يبلغ ضعف حجم ساحة القديس مرقس . وهو مستطيل الشكل . وحديقة السلطان اوسع من الميدان ، وفى وسطها تقوم على مستوى أعلى بدرجة واحدة من مستوى الأرض شرفة مشيدة على أعمدة ، تغطيها النباتات الخضراء ، معلق على جانبها وخلفها مظلات من القماش للحماية من حرارة الشمس . وعلى كل عمود معلق قفص فيه طائر صغير يغرد . وتمتلىء الحديقة بأشجار الرمان والكمثرى والتين والعنب والآس وغيرها من الأشجار المختلفة ..

وفى شهر أيار ( مايو ) من سنة ١٥٠٩ [١] :

اقام السلطان احتفالا فى الميدان ، ونصب به خيمة كبيرة مستديرة ، وملأ البحرة التى انشاها هنالك من ماء النيل بواسطة المجراة التى انشاها ، ثم رسم بجمع كل ورد فى القاهرة ووضعه فى تلك البحرة ، وجمع قراء البلد قاطبة والوعاظ ، وعلق احمالا بها قناديل ، وفرش حول البحرة الفرش الفاخرة ، وعزم على القضاة الأربعة وسائر الأمراء من كبير وصغير وأرباب الوظائف من المباشرين وأعيان الناس قاطبة .. ومد ( السلطان ) تلك الليلة اسمطة حافلة ، فمد فى السماط اربعمائة صحن صينى ، ورسم بأن تعمل المؤمونية الحموية ( مايعرف بالمرازبان وهو من عجين اللوز ) ، وكان من الأوز والدجاج والغنم ما لاينحصر ، ومن اللحم الف وخمسمائة رطل ، ومن الدجاج الف طير ، ومن الأوز خمسمائة طير ، ومن الغنم المعاليف خمسون معلوفا ، ومن الرمسان الرضع أربعون ميسا ، حتى قيل صرف على ذلك السماط فوق الألف دينار بما فيه من حلوى وفاكهة وسكر وغير ذلك ..

وفى اليوم العاشر من نيسان ( ابريل ) سنة ١٥١٠ ، فى عيد رأس السنة

---

( ١ ) بدائع الزهور ٤ : ١٥١

الهجرية . نزل السلطان الى الميدان لتقبل تهاني كبار ضباطه . وقدم لكل واحد منهم وردة . ويضيف المؤرخ الذى أورد لنا هذا الخبر قوله [1] .

« فقبلوا له الأرض الأمراء المقدمون لأجل الورد ، حتى عد ذلك من النوادر » ..

في سنة ١٥١١ ، ابنعت الشجيرات التي غرسها السلطان بالميدان ، واخرجت ما شتله به من الأزهار ما بين ورد وياسمين وبان وزنبق وسوسان وغير ذلك من الأزهار الغريبة . وفي ذلك يقول ابن اياسا [2] :

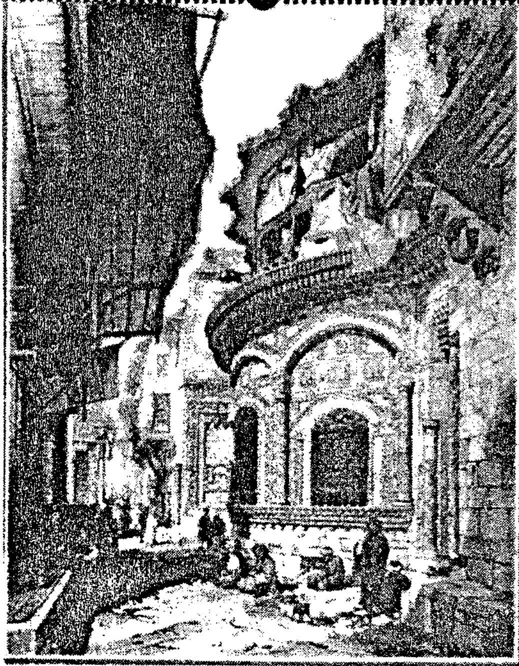
ولقد عاينت به ( يعني الميدان ) وردا أبيض زكي الرائحة ، وهو غير أنواع الورد التي بمصر ، وقد نقل من الشام ، وكان يطرح في أوان الصيف والنيل في قوة الزيادة ، وهو نوع غريب لم يوجد بمصر . فكان السلطان ، يضع له دكه كبيرة مطعمة بالعاج والآبنوس ويفرش فوقها مقعدا مخملا بنطع ويجلس عليه ، وتظله فروع الياسمين ، ويقف حوله المماليك الحسان بأيدهم المذبان ، ينشبون عليه . ويعلق في الأشجار اقفاص فيها طيور مسموع ما بين هزارات ومطوق وبلابل وشحارير وقمارى وفواخت وغير ذلك من طيور المسموع . ويطلق بين الأشجار دجاج حبشي وبط صيني وحجل وغير ذلك من الطيور المختلفة . وتارة يجلس على البحرة التي طولها اربعون ذراعا وتمتلىء كل يوم من ماء النيل بسواقي نقالة من المجراة تجرى ليلا ونهارا . فيجلس على سرير هناك في غالب ايام الجمعة ولايدخل عليه من الأمراء أحد إلا من يختاره ..

هذا هو المكان الذى أقام فيه السلطان حفلات رائعة للسفراء الذين كانوا يمرون بالبلاد . وفي بداية القرن السادس عشر ، ارسل عدد من الحكام سفارات الى سلطان مصر . ويذكر المؤرخون انه في سنة ١٥١٢ ، وجد في القاهرة نحو اربعة عشر قاصدا ( سفيرا ) في وقت واحد . فمن ذلك قاصد شاه اسماعيل الصوفي ، وقاصد ملك الكرج ( جورجيا ) ، وقاصد ابن رمضان أمير الترجمان ( كيليكية ) ، وقاصد من عند ابن عثمان ملك الروم ، وقاصد يوسف بن الصوفي خليل امير التركمان ، وقاصد صاحب تونس ملك المغرب ، وقاصد من مكة ، وقاصد الملك محمود ( البنغال ) ، وقاصد ابن درغفل امير التركمان ، وقاصد من عند نائب حلب ، وقاصد من عند حسين الذى توجه ( في تجريدة ) ، وقاصد البنادقة ( البندقية )

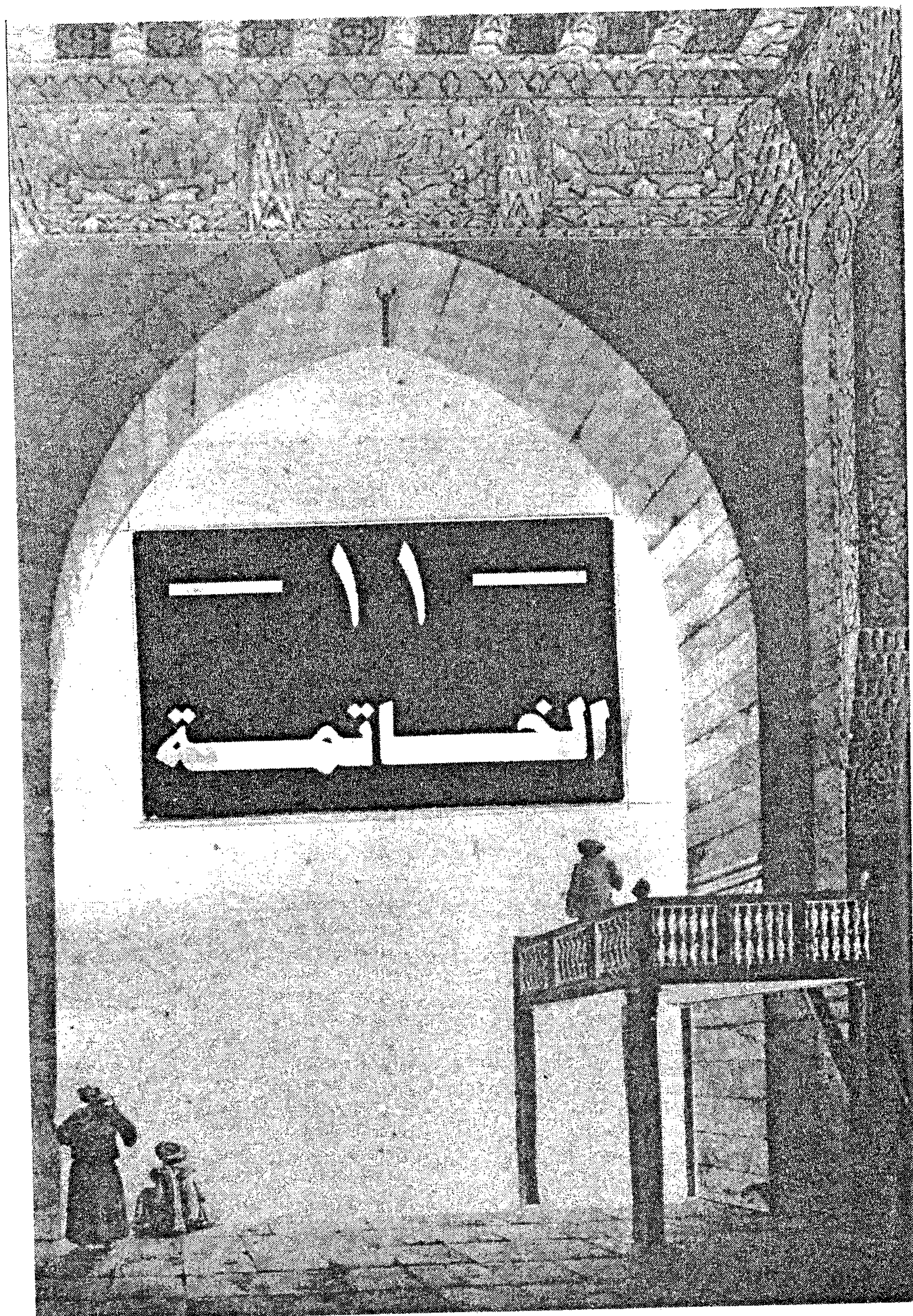
( ١ ) بدائع الزهور ٤ : ١٧٧
( ٢ ) المصدر نفسه ٤ ١٧٢

وقاصد على دولات ( سليكية ) ، وغير ذلك قاصد من عند جماعة من النواب [1] .

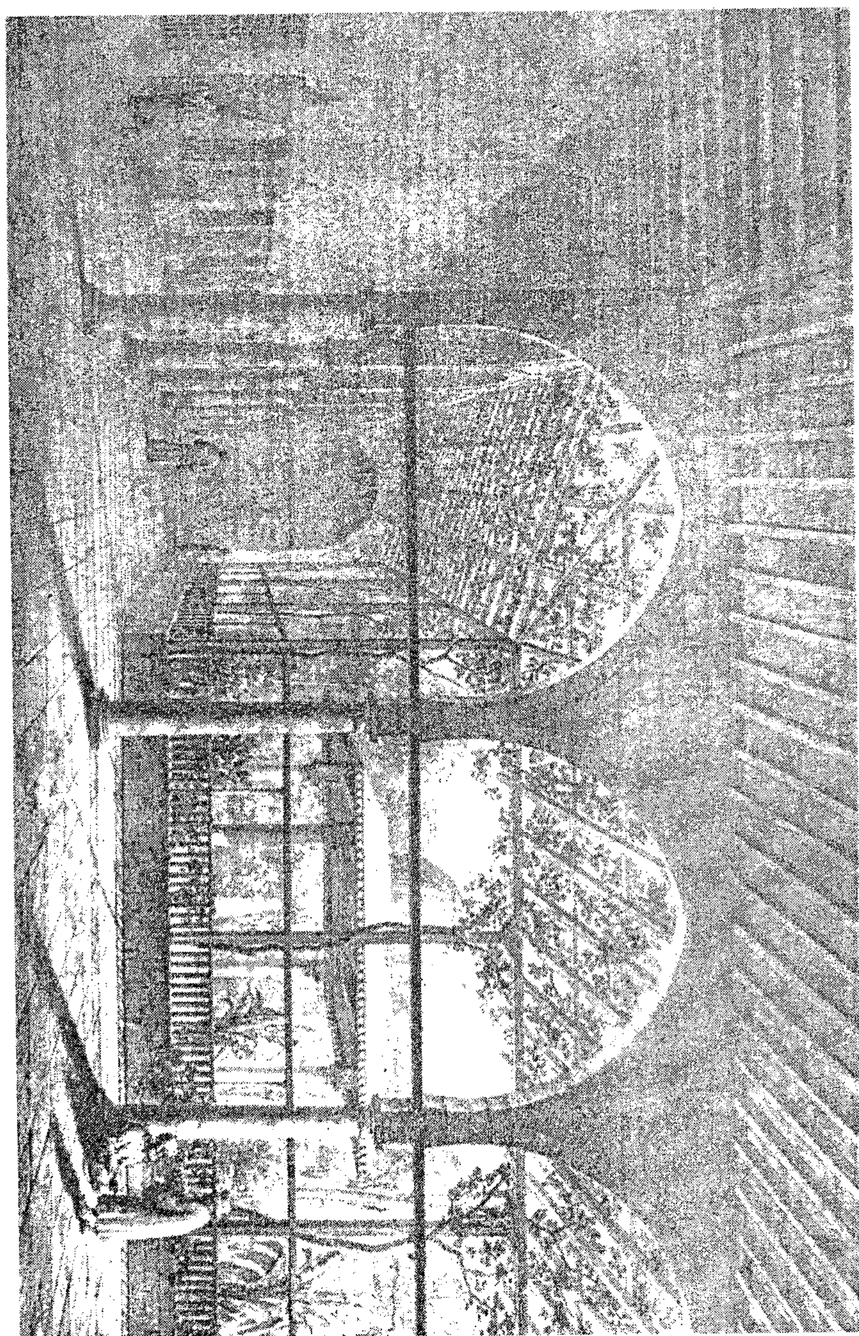
□ □ □



( ١ ) انظر بدائع الزهور ٤ : ٢٦٨ ـ ٢٦٩



١١
الخاتمة

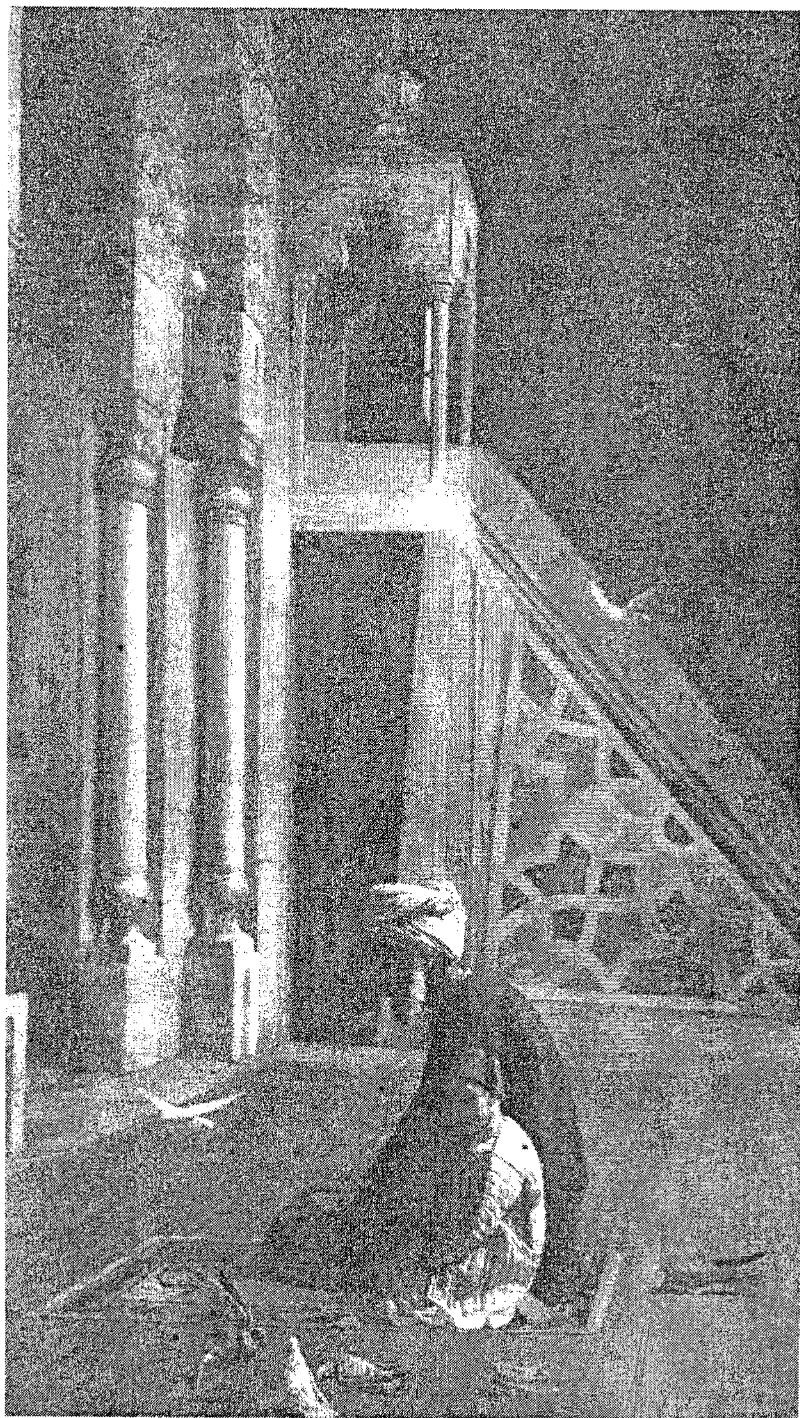


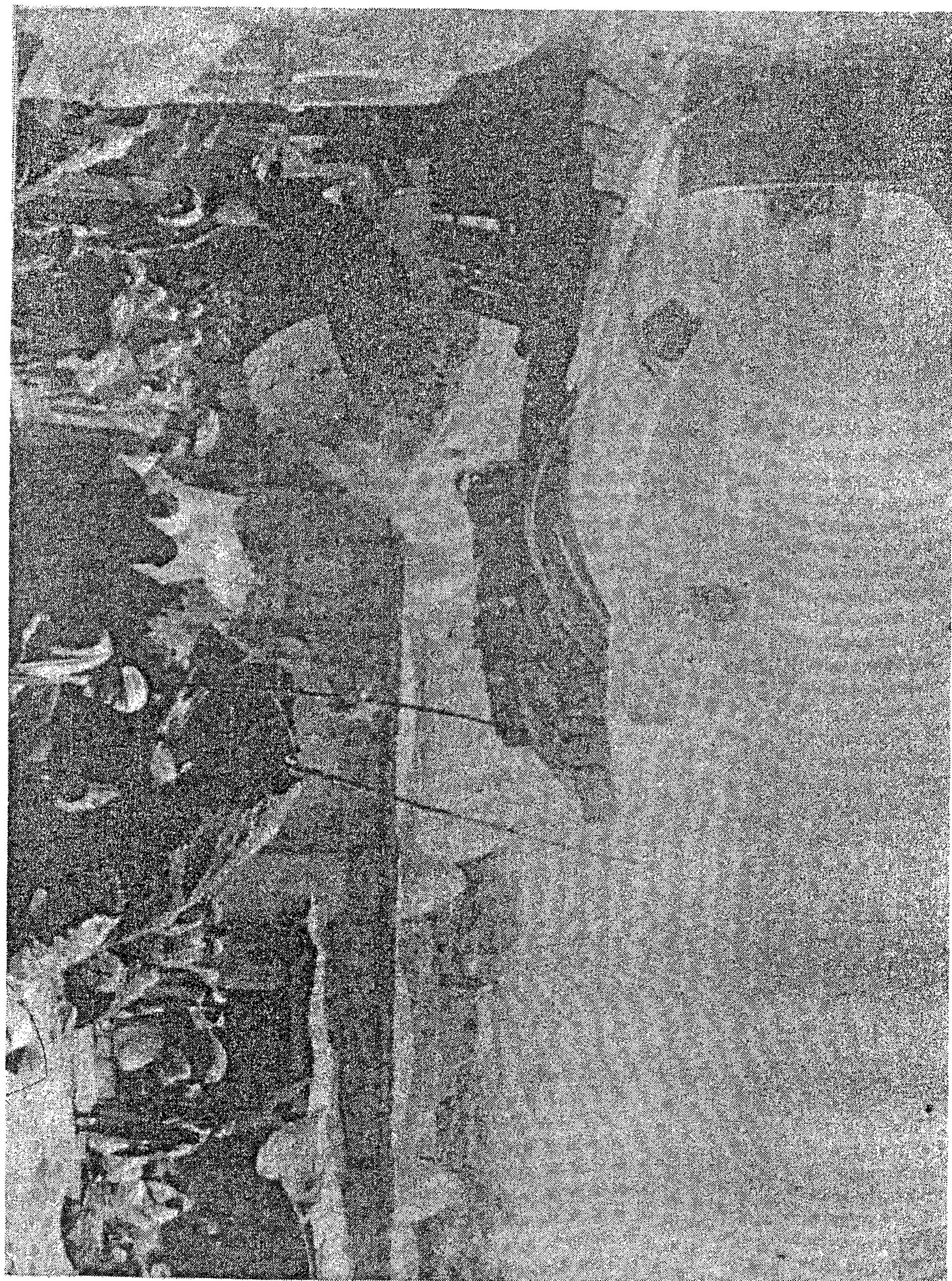
عرفت دولة سلاطين المماليك نهايتها في الواقع فيما يمكن ان يسمى ساحة الاعدام ، وهو الباب الجنوبي للقاهرة الفاطمية ، المسمى بباب زويلة .

ففي اليوم الرابع عشر من شهر نيسان ( ابريل ) سنة ١٥١٧ ، ألبس السلطان السابق طومان باى رداء ذا أكمام طويلة وقلنسوة ، وكان مقيدا بالسلاسل ومحمولا فوق جمل . ثم عبر المدينة من شمالها إلى جنوبها . وعند باب زويلة ، انزل عن دابته وفك وثاقه واحاط به الجنود العثمانيون الذين حملوا سيوفا مشهورة . وعندما أيقن انه سوف يشنق ، وقف امام الباب وصاح : « اقراوا الفاتحة لى ثلاث مرات ! » ثم مد يده وقرا الفاتحة ثلاث مرات . ثم استدار نحو الجلاد وقال : « قم بعملك ! » فوضع الحبل حول عنقه وشد إلى اعلى فتمزق الحبل ووقع طومان باى أسفل الباب . ويقال ان الحبل تمزق مرتين ووقع منه الرجل إلى الأرض . وفي آخر الأمر ، شنق عارى الراس وجسده مغطى بأسمال حمراء ، وقدماه مقيدتان باشرطة من قماش ازرق . وعند موته علت صيحة عظيمة من الجمهور الحزين المنكسر .

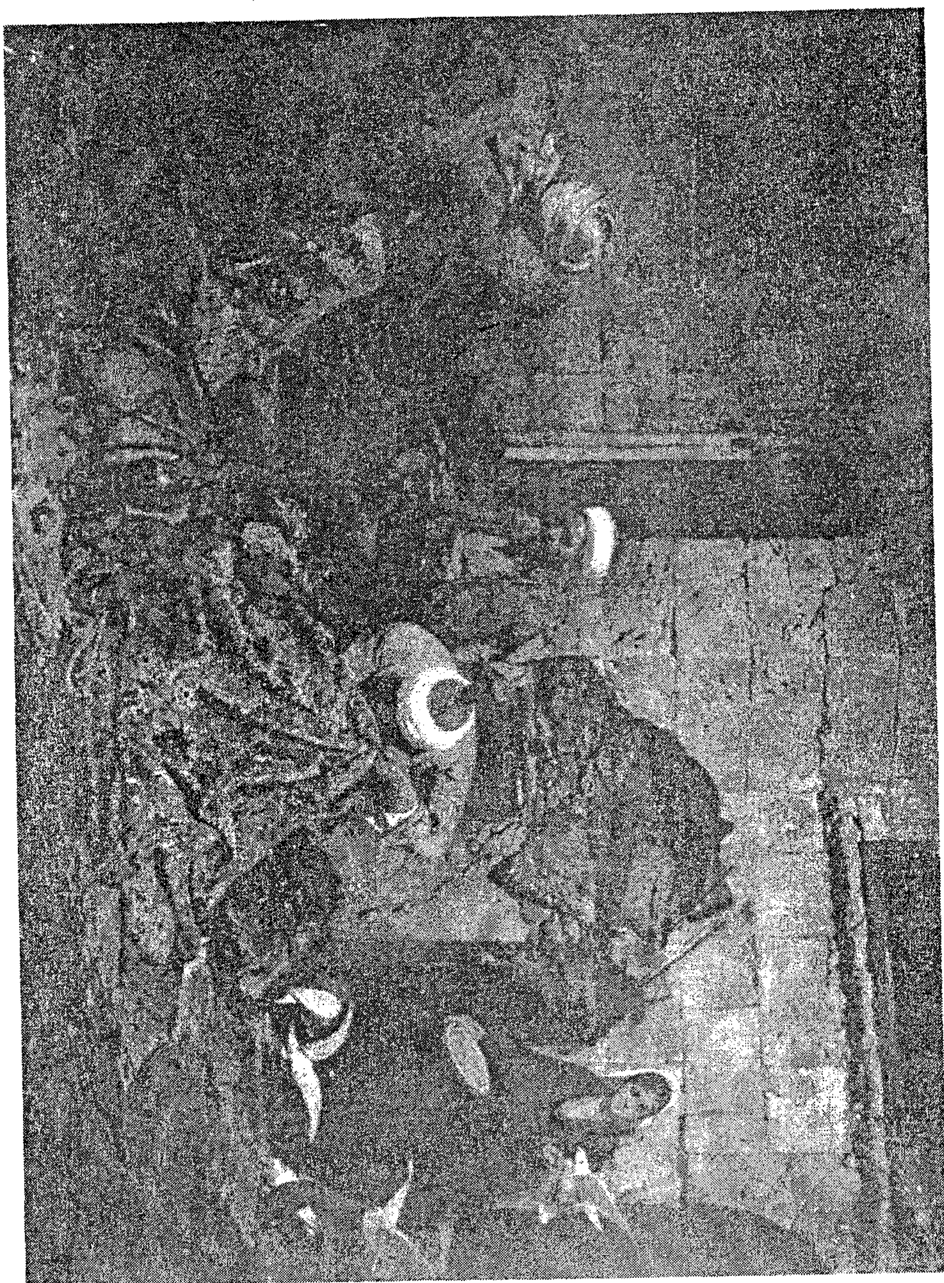
كان من المتوقع ان يقع هذا الاعدام . ولكن لسوء الحظ ، لم يتوقف السلطان سليم عند هذا الحد : فبعد ذلك بعدة اشهر ، شهد حفلة من حفلات خيال الظل في جزيرة الروضة ، وفيها عرض الفنانون باب زويلة وطومان باى ممثلا بدمية عند وقت شنقه . ووجد السلطان العثماني المنظر مسليا عندما تمزق الحبل مرتين . واعطى الفنان مائتي دينار وقال له : « عندما نذهب إلى استانبول ، أحضر معنا حتى يستطيع ابني ان يرى هذه التمثيلية ! » .





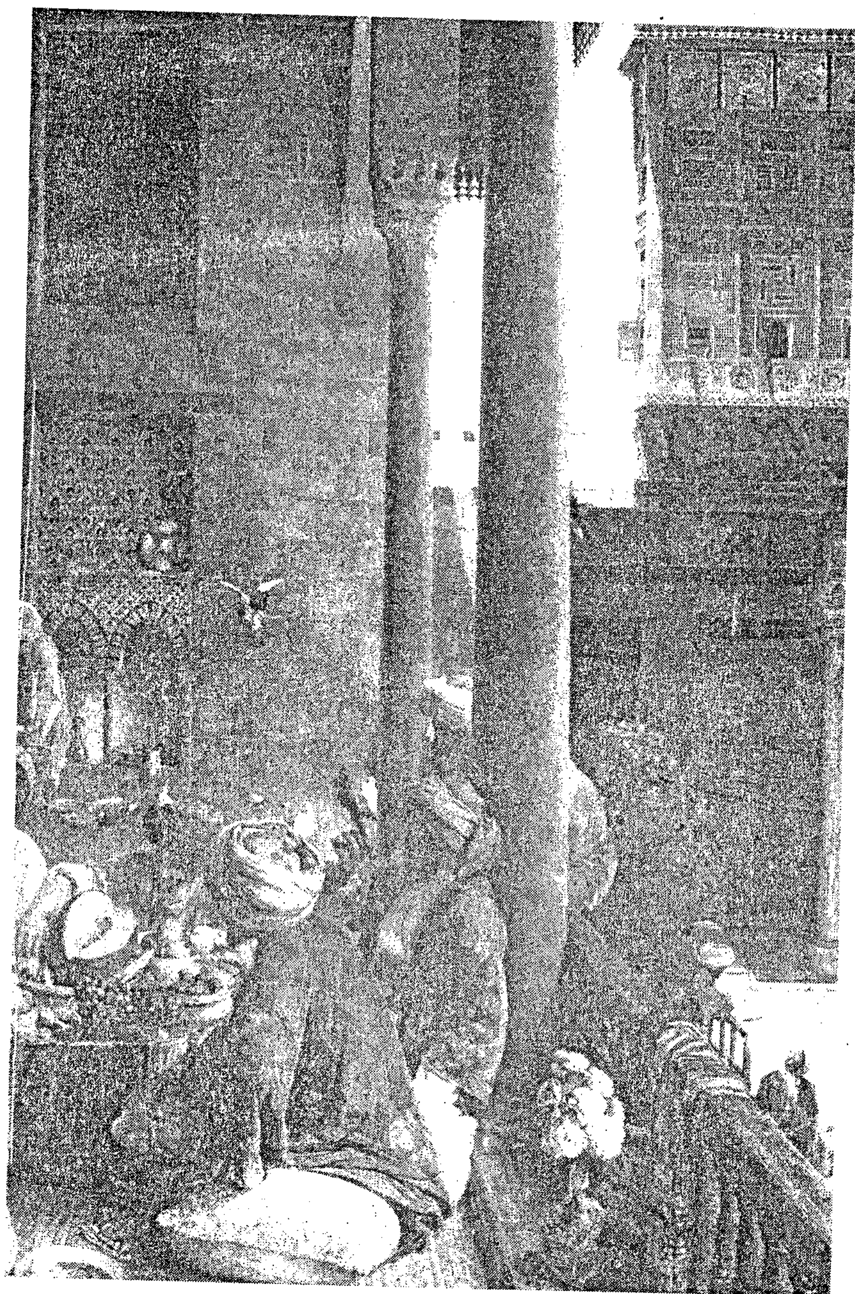


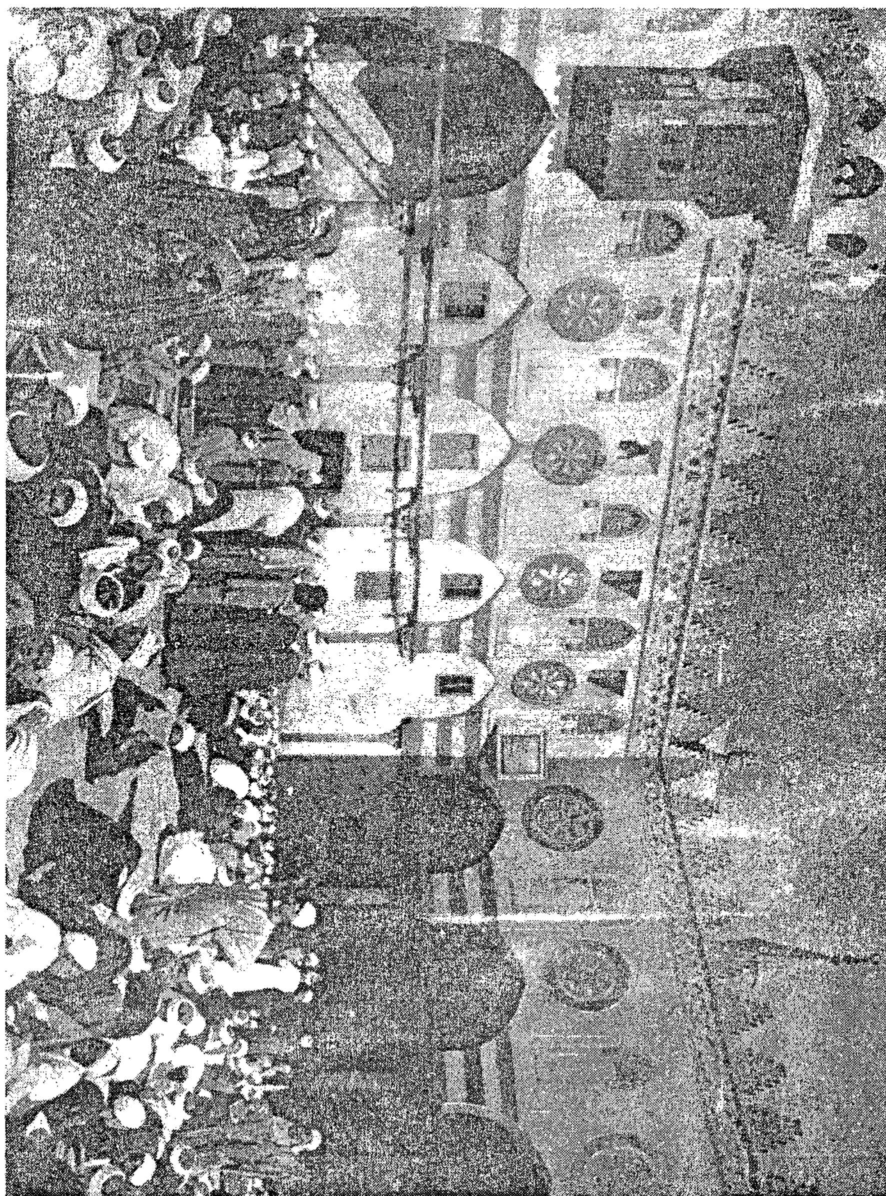












## مجمل بتواريخ حكام مصر

| | |
|---|---|
| الحكام من قبل الخلفاء | ٦٤٠ - ٨٦٨ |
| الدولة الطولونية | ٨٦٨ - ٩٠٥ |
| عودة الحكام من قبل الخلفاء | ٩٠٥ - ٩٣٩ |
| الدولة الاخشيدية | ٩٣٩ - ٩٦٩ |
| الدولة الفاطمية | ٩٦٩ - ١١٧٢ |
| الدولة الأيوبية | ١١٧٢ - ١٢٥٠ |
| سلاطين المماليك | ١٢٥٠ - ١٥١٧ |
| الفتح العثمانى لمصر | ١٥١٧ - |

## ● مؤلف هذا الكتاب ●

### * جاستون فييت

* مستشرق فرنسى ، ولد عام ١٨٨٧ .

* كان مديرا لدار الآثار العربية بالقاهرة ( ١٩٢٤ - ١٩٤٤ ) ، وانتخب عضوا بالمجمع اللغوى بالقاهرة ( ١٩٣٠ ) .

* استاذ شرف للغة العربية فى الكوليج دى فرانس .

وله مؤلفات كثيرة فى التاريخ الاسلامى والفنون الاسلامية ، منها كتابان فى تاريخ مصر الاسلامى ، وعدة كتب فى وصف محتويات متحف الفنون الاسلامية .

حقق الجزء الأول من كتاب « الخطط » للمقريزى ، وترجم كتاب « البلدان » لليعقوبى ، و« مختصر الادريسى » ، وشارك فى دائرة المعارف الاسلامية ، كما انه صنف بمعاونة لويس هوتكور كتابا ضخما عن جوامع القاهرة . ومن أحداث مؤلفاته كتاب « عظمة الاسلام » .

..................................................................

## ● مترجم هـذا الكتاب ●

### الدكتور مصطفى العبادى

* نال درجة الليسانس من قسم التـاريخ بجـامعـة الاسكنـدريـة عام ١٩٥١ ، ونال درجة الدكتوراه فى التاريخ اليونانى الرومانى من جامعة كمبردج عام ١٩٦٠ .

درس بعـد ذلك فى جـامعـة الاسكندرية ، ومنذ ١٩٦٦ ـ ١٩٦٧ .

شغل منصب استاذ مساعد فى جامعة بيروت العربية .

له كتاب : « مصر من الاسكندر إلى الفتح العربى » .

وهو الآن يعمل استاذا فى جامعة الكويت .

وقد رأى الدكتور العبادى عند ترجمة هذا الكتاب أن يثبت فيه هوامش بمصادر النصوص العربية ، بعد أن ردها الى أصولها ، نظرا لأن المؤلف الأصلى لم يتضمن مثل هذه الهوامش باعتباره من كتب الثقافة العامة .

.................................................................................................

## المحتويات

ص


● المقدمة : ........................ ٥
● ١ ـ العواصم الاسلامية الأولى : ............ ٧
● ٢ ـ قاهرة الفاطميين : ..................... ٢٣
● ٣ ـ صلاح الدين : ......................... ٤٩
● ٤ ـ سلاطين المماليك : ..................... ٦٥
● ٥ ـ الشوارع والمنازل : .................... ٧٩
● ٦ ـ الأضرحة والاسواق ..................... ١٠١
● ٧ ـ الأعياد والأفراح : ...................... ١١٧
● ٨ ـ المنشات المدنية : ...................... ١٣٣
● ٩ ـ الجبانات العظيمة : ..................... ١٤٧
● ١٠ ـ قصر السلطان :
وساحة القلعة ............................. ١٥٥
● ١١ ـ الخاتمة : ............................. ١٧٣
● ● ● ( ملحق بالصور ) ...................... ١٧٨
● مؤلف هذا الكتاب : ........................ ١٨٧
● مترجم هذا الكتاب : ........................ ١٨٩

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب